



راؤ ویدیس

مطبعة خان بكية رهنر

رأوى ديس

بالنف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

الناس
مكتبة مصبر
٣ شارع كاسمى سدى - الجلاء

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

عيد النيل

لاحت في الأفق الشرق تباشر ذلك اليوم من شهر بشنس ، المنطوى في أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة . وكان الكاهن الأكبر لمعبد الرب سوتيس يتطلع إلى صفحة السماء بعينين ذابلتين . أضناها التعب طوال الليل .

وإنه لقي تطلعه إذ عثر بصره بالشعري الجمانية ، يتألق نورها في كبد السماء ، فتلهل وجهه بالبشر ، وخفق قلبه بالفرح ، وسجد على أرض المعبد الطاهرة شكرا وزلفى ، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة الرب سوتيس في أفق السماء ، تحمل إلى الوادى بشرى فيضان النيل المعبود ، وتسير بين يدي رحمته . وأيقظ صوته الجميل النيام . فهبوا من نومهم فرحين ، وقلبوا وجوههم في السماء ..حتى قرّت أعينهم على النجم المعبود ، فرددوا ترتيلة الكاهن ، وأفعمت قلوبهم غبطة وامتنانا ، ثم تركوا ديارهم مهطعين صوب شاطئ النيل ، يشهدون أول موجة حاملة للخير والبركة . وردد جو مصر الهادئ صوت كاهن الرب سوتيس ، وإذا عالبشرى إلى الجيوب ، للاحتفال بعيد النيل المقدس . فحزموا أمتعتهم ، ونشطوا خفافا وثقالا من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخمونو ، يولون وجوههم شطر أبو العاصمة ، فتهبت العجلات الوادى ، ونحرت السفن عباب الماء ..

كانت أبو عاصمة مصر ، يقوم بنيانها الشااخ على دعائم من الصوان ، تؤلف بينها الكتبان الرملية ، وقد غشاها النيل بطبقات من طمية الساحر ، بثت فيها الخصب والخير العميم ، وأنبتت أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم ، وكست سطحها البقول والخضروات والبرسيم ، ونشرت فيه الكروم والمراعى والجنان تجرى من تحتها الأنهار ، وترعاها القطعان ، يطير في سمائها الحمام والطير ،

ويتضوع نسيمها بشذا العطر والأزهار ، وتتجاوب في جوها أغاريد البلابل والأطيار .

فما هي إلا أيام معدودات ، حتى ضاقت أبو وجزيرتاها : ببيعة وببلاق ، بالنازحين ، فامتألت البيوت بالنازلين ، وازدحمت الميادين بالحيام ، وغصت الطرق بالغادين والرائحين ، وانتشرت حلقات اللاعبين والمغنين والراقصين ، وزخرت الأسواق بالعارضين والبائعين ، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام وأغصان الزيتون ، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة ببلاق بشابها الزركشة وسيوفها الطويلة ، وهرعت جموع القانتين المؤمنين إلى معبدى سوتيس والنيل ، يوفون بالنذر ، ويقدمون القرابين ، واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين .. وشاع في جو أبو الرزين فرح راقص ، وطرب حار بهيج ..

وجاء يوم العيد الموعود ، وقصدت هاتيك الخلائق جميعا إلى هدف واحد ، هو الطريق الطويل الممتد ما بين القصر الفرعونى والهضبة القائم عليها معبد النيل ، فسخن الهواء بأنفاسهم الحارة ، وناءت الأرض بحملهم ، ويثس قوم لا عداد لهم من الأرض ، فهبطوا إلى السفن ، وأطلقوا الشرع ، وطافوا بهضبة المعبد ينشدون أغاني النيل على أنغام المزمار والقيثار ، ويرقصون على توقيع الدفوف .. ووقف الجنود صفين على جانبي الطريق العظيم شاهرى الرماح ، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعى للملك الأسرة السادسة ، آباء فرعون وأجداده ، فرأى الأقربون تماثيل الفراعين ، أسركرى ، وتيتى الأول ، وبببى الأول ، ومحتمساوف الأول ، وبببى الثانى .

وكان الجو يضح بأصوات القوم المختلفة ، فيضيع تمييزها كما تضيع الأمواج في المحيط المصطخب ، ولا يبقى منها إلا دوى هائل شامل . ولكن كانت تعلو أحيانا أصوات جهيرة ، تخرق الضوضاء ، وتبلغ الآذان ، يهتف بعضها قائلا : « مجدوا الرب سوتيس الذى بشرنا بالخير » . ويصيح صوت آخر : « مجدوا النيل الرب

المقدس الذى يجلب إلى أرضنا الحياة والخصب . وبين هذا وذاك ، ترتفع أصوات منادية على خمر مريوط ، وأنبذة آبو ، داعية إلى السرور والنسيان .. وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويخلصون نجيا ، تبدو على وجوههم آى النبل والنعيم ، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه متأملا متعجبا :

— كم من فرعون اطلع على هذه الجموع الحاشدة ، وشاهد هذا اليوم العظيم !.. ثم ذهبوا جميعا كأنهم لم يكونوا ملء الصدور ، ملء الأبصار والأفئدة !.

فقال آخر :

— نعم ذهبوا ليحكموا عالما أجل من هذا العالم ، كما سذهب جميعا .. انظر إلى هذا المكان الذى أشغل .. كم من البشر سوف يشغله فى الأجيال المقبلة ، ويجدد الآمال والأفراح التى تحفق فى صدورنا الآن .. ترى هل يذكروننا كما نذكرهم ؟

— إننا أكثر من أن يذكرونا مذكر .. ألا ليت الموت لم يكن ..

— وهل كان يمكن أن يسع الوادى تلك الأجيال التى ذهبت ؟. إن الموت طبيعى كالحياة .. وما قيمة الخلود مادامنا نشبع بعد الجوع ، ونشيخ بعد الشباب ، ونسأم بعد المسرة ؟..

— فكيف يعيشون فى عالم أوزوريس ؟..

— انتظر ستعلم ذلك بعد حين ..

وقال آخر باهتمام :

— هذه أول مرة يسعدنى الرب برؤية فرعون .

فقال له صاحبه :

— أما أنا فقد رأيته يوم التنويح العظيم منذ أشهر فى نفس المكان .

— انظر إلى تماثيل أجداده الأماجد .

— سترى أنه قريب الشبه بجده محتمساوف الأول .

- ما أجمل هذا .
- أجل .. أجل .. إن فرعون شاب جميل ، لا نظير له في طوله الفارع ، وحسنه الجاهر ..
- وتساءل أحد المتحدثين قائلاً :
- ترى ماذا يخلف حكمه ؟ .. أمسلات ومعابد ، أم ذكريات غزو في الشمال والجنوب ؟
- إن صدق حدسى فهى الثانية ..
- ولة ؟
- إنه شاب عظيم البأس .
- فهز الآخر رأسه بحذر وقال :
- يقال إن شبابه من نوع جامع ، وإن جلالته ذو أهواء عنيفة ، يغرم بالحلب ، ويهوى الإسراف والبذخ ، ويندفع في سبيله كالريح العاصفة ..
- فضحك المستمع ضحكة خافتة ، وهمس قائلاً :
- وهل في ذاك ما يدعو إلى العجب ؟ . ما أكثر المصريين الذين يغرمون بالحلب ويهونون الإسراف والبذخ .. فما بالك بفرعون .
- صه .. صه .. أنت لا تدري من الأمر شيئاً ، ألم تعلم بأنه اصطدم برجال الكهنوت منذ اليوم الأول لتوليته العرش ؟ . إنه يريد المال ليتفقه في تشييد القصور ، وغرس البساتين ، والكهنة يطالبون بنصيب الآلهة والمعابد كاملاً . لقد منحهم آباء الملك نفوذاً وثراء ، والملك الشاب ينظر إلى هذا بعين الطمع .
- حقا إنه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام .
- أجل .. ولا تنس أن خنوم حطب ، رئيس الوزراء والكاهن الأكبر ، رجل حديدى الإرادة ، شديد المراس . وهناك أيضاً كاهن منف ، تلك المدينة المجيدة التى لحقها الأفول على عهد هذه الأسرة الجليلة .
- فارتاع الرجل لهذه الأخبار التى تصك أذنيه لأول مرة ، وقال :

— إذا فلندع الأرباب جميعا أن تلهم الرجال الحكمة والأناة والرأى
السديد .

فقال الآخرون بإخلاص صادر من الأعماق :
— آمين .. آمين .

ولاحث من أحد الواقفين التفاتة إلى النيل ، فلكز صاحبه بمرفقه قائلا :
— انظر أيها الصديق إلى النهر .. لمن يا ترى هذه السفينة الجميلة الآتية من
جزيرة بيجة ، كأنها الشمس صاعدة من الأفق الشرق ؟..
فعطف صاحبه رأسه نحو النهر ، فرأى سفينة عجيبة ، لا بالكبيرة ولا
بالصغيرة ، خضراء اللون كأنها جزيرة معشوشبة تطفو على سطح الماء ، تبدو
مقصورتها على البعد متعالية ، وإن قصرت العين عن رؤية ما بداخلها ، ولاح في
أعلى صاريها شراع متموج عظيم ، وانتظمت جانبيها حركة مجاديف بديعة
تنبعث من مئات الأيدي .. فاستولت الخيرة على الرجل ، وقال :

— عسى أن تكون لموسر من أهل بيجة ..

وأصغى إلى حوارهما رجل قريب ، فحدجهما بنظرة إنكار ، وقال لهما :
— أراهن أيها السيدان أنكما ضيفان .
فضحك الرجلان معا . وقال ثانيهما :

— صدقت ياسيدى المحترم ، فنحن من طيبة ، واثنان من الآلاف التي ناداها
العيد المجيد فلبت هارعة إلى العاصمة من جميع البلدان .. هل تكون هذه السفينة
الجميلة لكبير من رجالكم البارزين ؟.

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، وقال وهو يشير لهما بأصبعه محذرا :

— طيبما نفسا أيها السيدان الكريمان ، ليست هذه السفينة لرجل من
رجالنا ، ولكنها امرأة .. أجل هي سفينة غانية حسناء يعرفها حق المعرفة جميع
أهل آبو ، وجزيرتها بيجة ويلاق ..

— ومن عسى أن تكون هذه الحسناء ؟..

— رادوبيس .. رادوبيس الفاتنة ، ملكة النفوس والأهواء جميعا .

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة ، واستدرك :

— وهي تقيم هناك في قصرها الأبيض الساحر .. هدف العشاق والمعجبين ، حيث يستبقون إلى نيل عطفها ، واستدرا رحمتها .. وعسى أن يسعفكم الحظ برؤيتها ، صانت الأرباب قلوبكما عن التلف ..

وانتهجت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين إلى السفينة مرة أخرى ، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد . وكانت السفينة تدنو من الشاطئ ، رويدا رويدا ، والزوارق توسع لها طريقها على عجل ، وكلما عبرت ذراعا اختفت شيئا فشيئا وراء الهضبة المقام عليها معبد النيل ، ومضى يغيب عن الأبصار مقدمها ، ثم مقصورتها ، فلما أن اطمأنت إلى المرفأ لم يكن يرى منها سوى أعلى صاريها وقمة شراعها المتموج ، كأنه علم الحب يظل القلوب والنفوس ..

ومضت فترة وجيزة ، ثم رُئى أربعة من النوبيين قادمين من الشاطئ يوسعون في البحر المتلاطم طريقا ، يسير في أثرهم أربعة آخرون يحملون على الأكتاف هودجا جميلا فاخرا ، لا يحوزه إلا الأمراء والنبلاء ، جلست فيه عادة حسناء ، تستند في طرأة إلى وسادة ، وتتكى على عنق ، يساعد بض ، وتمسك في ينها بمروحة من ريش النعام ، تلوح في عينيها الجميلتين نظرة ناعسة حاملة ، تصوبها إلى الأفق البعيد في كبرياء سامية ، تقتحم الخلق أجمعين .

وكان الركب الصغير يسير على مهل ، ترمقه العيون من كل صوب ، حتى بلغ الصف الأول من المشاهدين ، وهناك مالت المرأة إلى الأمام قليلا بجيد كالغزال ، وثثرت من فمها الوردى كلمات تاقث نفوس إلى سماعها : فتوقف العبيد عن السير ، ولزموا أماكنهم كأنهم تماثيل من البرنز ، وارتدت المرأة إلى جلستها الأولى ، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام ، ولبثت تنتظر الموكب الفرعوى الذى لا شك جاءت لمشاهدته .

وكان ما يرى منها نصفها الأعلى . فاستطاع المجدودون أن يشاهدوا شعرها

الأسود الحالك السواد ، ينتظم على رأسها الصغير في أسلاك من الحرير اللامع ، ويهبط على كتفها في هالة من الليل كأنه تاج إلهي ، ينبلج في وسطه وجه مشرق مستدير ، عانقت فيه أشعة خدين كالورد الينع ، وفما رقيقا مفترا كأنه زهرة من الياسمين في الشمس في خاتم من القرنفل ، وعينين دعجاوين صافيتين ناعستين ، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحب معرفة المخلوق لخالقه ، فما رأت وجه قبل هذا اختاره الجمال سكنا ومستقرا .

وقد فتن الناس منظرها كافة ، وحرك قلوب الشيوخ الفانية ، فصوبت إليها من جميع الجهات نظرات نارية ، لو عثرت في طريقها بصوان لأذابته . ورمقتها أعين النساء شررا ومقتا ، وسرى الهمس بين المحيطين بها ، وانتقل الحوار من فم إلى فم .

— يا لها من امرأة فاتنة ..

— رادوبيس .. يسمونها ربة الجزيرة !.

— هذا جمال قهار ، لا يمكن أن يعصاه قلب .

— هو اليأس لمن يرى .

— صدقت ، فما وقعت عليها عيناى حتى قامت في نفسى ثورة جامحة ، ونؤت بأعباء ظلم فادح ، وأحسست بتمرد شيطاني ، وصدت نفسى عما بين يدي ، وغلبني على أمرى الخذلان والحزى الأبدى .

— هذا أمر محزن .. لكأني بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة .

— هي شر وبيل !.

— نحن أضعف من أن نختمل مثل هذا الحسن القاهر .

— ألا رحمة للعاشقين ..

— ألا تعلم أن عشاقها هم صفوة رجال المملكة ؟.

— حقا ؟.

— إن حبها فرض على علية القوم ، كأنه واجب وطني .

— ١٢ —

— لقد شيد المعمار النابغة هنى قصرها الأبيض .
 — وأثمه بآيات منف وطيبة آتى حاكم جزيرة بيعة .
 — مرحى .. مرحى ..
 — وصنع تماثيله ، ونحت جذرانه ، المثل النابغة هنفر .
 — نعم ، وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو ، رئيس الحرس الفرعوى .
 — إذا كان جميع هؤلاء يتنافسون فى حبها فمن السعيد الذى تستخلصه
 لنفسها ؟ .

— سل عن السعيد فى هذه المدينة الشقية ..
 — لا أظن أن هذه المرأة تعشق أبدا .
 — من أدراك ؟ .. عسى أن تعشق عبدا أو حيوانا .
 — كلا .. إن جمالها هو القوة الجبارة .. وما حاجة القوة إلى الحب ؟ .
 — انظر إلى نظرة عينها الرفيعة القاسية .. إنها لم تذق الحب بعد .
 — وكانت امرأة تصغى إلى هذا الحديث ، فضاق صدرها .
 وقالت بجفاء :
 — ما هى إلا راقصة .. تربت فى بؤر الفساد والمجون . ووهبت نفسها منذ
 طفولة للخلاعة والغواية ، وأجادت فن المساحيق ، فتبدت فى هذا المظهر
 الخلاب الكاذب .

فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال :
 — معاذ الرب يا سيدى ، ألم تعلمى بعد أن جمالها الرائع ليس كل ما وهبتها
 الآلهة من ثراء ؟ .. وأن توت لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان ؟ .
 — بخ .. بخ .. من أين لها بالحكمة والعرفان ، وهى تنفق عمرها فى إغواء
 الرجال ؟

— قصرها يستقبل كل مساء جماعة ممتازة من الساسة والحكماء والفنانين ،
 فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها من أعمق الناس فهما للحكمة ، وأدراهم

- بالسياسة وأذوقهم للفن .
 وسأل سائل :
 — كم عمرها ؟..
 — يقولون إنها بنت ثلاثين .
 — لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين .
 — ليكن عمرها ما تشاء ، فهذا الحسن يانع قاهر ، يقسم أن لن يلحقه
 الذبول أبدا ..
 وعاد السائل يسأل باهتمام :
 — ما منشؤها ، وما أصلها ؟..
 — علم هذا عند الأرباب .. وكأني بها وجدت منذ الأزل في قصرها الأبيض
 بجزيرة بيجة !.

* * *

وشقت الصفوف المتراصة بغنة امرأة غريبة ، كانت منحنية الظهر
 كالقوس ، تتوكأ على عصا غليظة ، منفوشة الشعر بيضاء ، طويلة الأنياب
 صفراءها ، مقوسة الأنف . حادة البصر ، يشع من عينيها نور مخيف يرسل من
 تحت حاجبين كثيفين أشبيين ، وكانت ترتدى جلبابا واسعا طويلا ، يضيق عند
 وسطها بمنطقة من الكتان .. وصاح الذين رأوها :
 — ضام .. الساحرة ضام ..

فلم تباهم ، وسارت بقدميها الهزليتين . كانت تدعى الإطلاع على الغيب ،
 وكشف الستار عن المستقبل ، وكانت تسخر قوتها الحارقة لقاء قطعة من
 الفضة ، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهمك بها . والتقت الساحرة في
 طريقها بشاب حدث ، فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب ، ولم يمانع
 الشاب ، وكان في الحقيقة ثملا يترنح في سيره ، لا تكاد تحمله ساقاه ، فدفع لها
 بقطعة من الفضة ، وهو يرنو إليها بعينين نصف نائميتين ، وسأله بصوتها

الأجش :

— كم عمرك يا غلام ؟

فأجابها ، وهو لا يعي ما يقول :

— اثنتا عشرة كأسا ..

وعلا ضحك الساخرين ، فاهتاجت المرأة غضبا ، ورمته بالقطعة التي نفحها بها ، واستأنفت مسيرها الذي لا ينتهى . واعترض سبيلها شاب ساخر وسألها بقحة :

— ماذا ينتظرني من الحادثات يا امرأة ؟

فنظرت إليه مليا ، وهى مغيظة محتقة ، ثم قالت له :

— أبشر .. ستخونك امرأتك للمرة الثالثة .

وضحك الناس وصفقوا لها ، وانزوى الشاب خجلا ، وقد رد السهم إلى صدره . وسارت الساحرة حتى بلغت هودج الغانية ، وطمعت فى سخائها فتوقفت بإزائه ، وصاحت تحدث صاحبتة وهى تبتسم ابتسامة كريمة :

— أيتها السيدة المخروسة بالعناية . هل أقرأ لك الطالع ؟

ولم يبد على الغانية أنها سمعت صوت الساحرة ، فصرخت العجوز :

— مولاتى !

وانتهت إليها رادوييس فيما يشبه الذعر ، ثم عطففت عنها رأسها سريعا وقد لمسها الغضب ، وقالت لها العجوز :

— صدقيني ما من إنسان فى هذا الجمع الحاشد يحتاج إلى اليوم حاجتك ! .

فتقدم منها أحد العبيد ، وحال بينها وبين الهودج . وكاد الحادث على تفاهته يثير اهتمام القرينين ، ولكن سمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء ، ووضع على أثره الجند المصطفون على جانبي الطريق الأبواق فى أفواههم ، ونفخوا فيها نفخا طويلا متصلا ، فعلم الناس جميعا أن الركب الفرعونى بدأ تحركه ، وأنه عما قليل يغادر فرعون القصر فى طريقه إلى معبد النيل ، فنسى الجميع ما كانوا فيه

وشخصوا إلى الطريق بأعناق مشرئبة ، وحواس مرهفة .
 ومضت دقائق طويلة ثم بدأت طلائع الجيش تسير صفوفا متراسة على أنعام
 الموسيقى الحربية تتقدمها حامية ييلاق بعددها المتنوعة ، تسير وراء علمها المتوج
 بصورة الباز ، فكانت الجنود تقابل في كل مكان بالهتاف والتصفيق ..
 وفتتها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملي الرايح والتروس ، تتأثر موسيقاها ،
 وعلمها المزدان بصورة الرب حورس ، وقد استقامت الرايح في صورة هندسية
 دقيقة ، فرسمت في الهواء خطوطا متوازية طولاً وعرضاً .
 وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملي القسي والسهام . واستغرق مسيرها فترة
 طويلة من الزمن ، يتقدمها علمها الموسوم بصولجان العرش .
 ثم سمع من بعيد دوى وصلصلة وصهيل خيل ، ولاحت للأنظار فرقة
 العجلات تنطلق عشرة عشرة في صفوف متوازية دقيقة كأثمار سميت بالقلم ، يجر
 العجلة جوادان مطهمان ، ويقوم على ظهرها فارسان ، سائق مزود بالسيف
 والمزراق ، ورام مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد ، فذكر المشاهدون
 لمرآها غزور النوبة وطور سيناء ، وخالوا أنهم يرونها تنتشر في السهول والوديان
 كالنسور المنقضة ، والعدو يتشتت أمامها ، وقد أذهله الرعب ، وأحاط به
 الهلاك ، فاشتعل الحماس في عروقهم نارا ، وشق هتافهم السماوات .
 وبدا للناظرين الموكب الفرعوني المهيب ، تتقدمه العجلة الفرعونية ،
 وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسي خماسي ، تحمل الأمراء والوزراء وكبار
 رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم ، واختتم
 الموكب بذيل من الحرس الفرعوني على رأسه القائد طاهو ..
 ووقف فرعون في عجلته منتصب القامة ، مهيب الطلعة كأنه تمثال من
 الجرانيت لا يميل بمئة ولا يسرة ، ويصوب بصره إلى الأفق البعيد غير ملتفت إلى
 الخلق جميعا ، ولا إلى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب .
 وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج ، ويقبض بيد على السوط الملكي ،

وبالأخرى على العصا المعقوفة ، وقد ارتدى فوق لباسه الملكي كساء من جلد الثمر احتفالاً بالعيد الدينى .

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة ، فتعالى الهتاف ، فكاد لشدته أن يفزع الطير المحلق فى السماء . وأثار الحماس رادوييس نفسها فدبت بها حياة فجائية ، وأضاء وجهها بنور بهيج ، وصفقت يداها الرخصتان ..

وأقلت من بين الأصوات الهاتفة صوت يصيح على عجل : « ليحيى صاحب القداسة خنوم حتب » ، فردد هتافه عشرات الأصوات ، وأحدث هتافه انزعاجا وأهياج ضجة شديدة ، وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذى هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع من فرعون الشاب ، والجماعة التى ناصرت هذا التحدى العجيب ! ..

ولم يترك الهتاف أثرا ظاهرا ، ولم يبد على أحد من حاشية الملك أدنى تأثير ، وتابع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبد ، فتوقفت العجلات جميعا ، وتقدم إلى عملة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبي ، فترجل الملك عليها . ونفخ فى الصور ، فأدى الجند التحية العسكرية ، وصدحت موسيقى الحرس بنشيد النيل المعبود ، وصعد فرعون درجات الهضبة فى تودة وجلال ، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكام . ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة فى استقباله سجدا . ولما أعلن كبير الحجاب سوفخاتب وصول الملك ، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره ، وأخفى عينيه يديه ، وقال فى صوت خافت :

— يتشرف خادم الرب المعبود النيل ، بإزجاء تحية العبودية والإخلاص إلى مولاي سيد القطرين ، ابن رع ورب المشرقين .

فأعطاه فرعون العصا المعقوفة ، فقبلها الكاهن فى إجلال عميق ، وقام الكهنة واصطفوا صفين موسعين لفرعون ، فسار تتبعه حاشيته إلى ساحة المذبح المحاطة بالأعمدة الشاهقة من كل جانب ، وطاقوا بالمذبح ، وكان الكهنة

يحرقون البخور ، فينتشر أريجُه في جو المعبد ، وتتنفسه الرعوس المنعكسة إجلالا وقنوتا . وأحضر بعض الحجاب ثورا ذبيحا ، ووضعوه على المذبح قربانا وزلفى ، ثم تلا فرعون هذه الكلمات التقليدية :

مثلت في رحابك أيها الإله المقدس بعد أن طهرت
نفسى . وقدمت القربان زلفى إليك ، فامنن بالخير
على أرض هذا الوادى الطيب ، وأهله الأمنين .

ورددت الكهنة الدعاء في صوت عال مؤثر ، يفيض بالإيمان والتقوى ، رافعين رعوسهم إلى السماء ، باسطين أيديهم في الهواء . وردد الحاضرون جميعا الدعاء ، وسرى الصوت إلى خارج المعبد ، فسارع الناس في ترديده ، وماهى إلا هنيهة حتى لم يبق لسان لم يلهج بدعاء النيل المقدس . ثم سار الملك وفى معيته كاهن المعبد ، ويتبعهما رجال المملكة إلى بهو الأعمدة ذى الصحن الثلاثة المتوازية ، ووقفوا صفين بينهما الملك وخادم الرب ، ثم رتلوا نشيد النيل المعبود بأصوات متهدجة ، تحتلج بخفقات القلوب ، فيرن صداها في جو المكان القائم المهيب .

وصعد الكاهن الدرجات المؤدية إلى البهو الخالد ، واقترب من باب قدس الأقداس ، وأبرز المفتاح المقدس . وفتح الباب العظيم وانتحى جانبا ، وركع ساجدا يصلى . وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدسة حيث يرقد تمثال النيل فى السفينة الإلهية ، وأغلق الباب ، وكان المكان واسعا ، شاهق السقف ، شديد الظلمة ، قوى الأثر ، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الآلهة أقيدت الشموع على مناضد من الذهب الوهاج . ونفذت هيئة المكان إلى قلب الملك الكبير ، فوهنت حواسه ، وتقدم فى إجلال إلى الستار المقدس وأزاحه بيده ، وأحنى ظهره الذى لا ينحنى أبدا ، وسجد على ركبته اليمنى ولثم قدم التمثال . وكان ما يزال مهيبا ، ولكن غابت عن وجهه آى مجد الدنيا وكبريائها ، واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى .. وصلى فرعون صلاة

طويلة ، واستغرق في العبادة ناسيا مجده التالد وعظمته الدنيوية .
ولما بلغ النهاية لثم القدم المقدسة مرة أخرى ، وقام واقفا وأسدل الستار
الكريم ، وانسحب إلى الباب ووجهه إلى الرب ، حتى تنفس هواء البهو
الخارجي ثم أغلق الباب .

وحيا القوم فرعون بالدعاء ، وساروا وراءه إلى بهو المذبح ، وتبعوه إلى
خارج المعبد ، وعرجوا جميعا إلى حافة المضبة المطلة على النيل . ورآهم الأهليون
المتجمعون فوق أسطح السفن ، فتعالت أصواتهم بالهتاف ، ولوحوا بالأعلام
والغصون .

ودعى رئيس الكهنة إلى إلقاء الخطبة التقليدية ، فنشر بين يديه ورقة طويلة
من أوراق البردى ، وتلا بصوت قوى النبرات :

« السلام عليك أيها النيل ، يا من يعم فيضه الوادي مبشرا بالحياة والسعادة .
إنك لتسكن الغياهب أشهرا ، فإذا أصخت إلى توسلات عبادك ، ولأن قلبك
الكبير رحمة بهم ، خرجت من الظلمات إلى النور ، وانسبت في بطن الوادي
راخرا ، فبعثت في الأرض الحياة ، وسرعان ما تتهز البساتين طربا ، وتفرض
الصحراء تحت بساط سندس ، وتزدهر البساتين ، وتغنى المغارس ، وتصيح
الطيور ، وتهتف القلوب بنشوة الفرح ، فيكسى العارى ، ويطعم الجائع ، ويروى
الصدى ، ويتزوج الأعزب ، وتتلفع أرض مصر بالسعادة والمجد .. تعاليت
والمجد لك .. تعاليت والمجد لك .. »

ورتل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيثارة والمزمار والنأى ، وعلى توقيع
الدفوف في الحان عذبة وأنغام شجية .

ولما أن ضاعت الأنغام في تضاعيف الفضاء ، تقدم الأمير ناي من فرعون
وأسلم إليه قرساطا مختوما من البردى ، يشتمل على دعاء النيل المعبود ، فأخذه
الملك ورفعاه إلى جبينه ، ثم تركه يهوى إلى النيل فحملته أمواجه المتدافعة في
صخب صوب الشمال ..

— ١٩ —

وهبط فرعون أدراج الهضبة ، وركب عجلته ، ورجع الموكب كما أتى تحف
به العظمة ويحوطه المجد ، وتهتف له قلوب الملايين من الرعايا المخلصين ، وقد
أهاجهم الحماس ، وأسكرتهم نشوة الطرب .

الصندل

عاد الموكب الملكي إلى السراى الفرعونية ، وظل الملك يحافظ على جلاله وهدوئه ، إلى أن خلا إلى نفسه ، فتبدى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشية ، وجبت لها قلوب الجوارى اللأئى يخلعن ثيابه ، فانتفخت أوداجه وتصلبت عضلات جسمه ، وكان سريع الانفعال شديد الغضب ، لا تطمئن نفسه حتى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها ، وكان يدوى فى أذنيه الهتاف الأخرق ، فيظنه إنذارا جريئا موجهها إلى رغباته ، فيشتد به الغضب وينذر بالويل والثبور ..

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة ، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين ، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك فى عيد النيل ، ولكنه لم يستطع صبرا ، فهرع كالريخ الهوج إلى جناح الملكة ، واقتحم بابها بعنف . وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها ، تلوح فى عينيها الصافيتين آى السلام والطمأنينة ، فلما رأى الوصيفات الملك ، وشاهدن الغضب يصرخ فى وجهه ، وقفن مرتبكات مضطربات ، وانحنين له وللملكة ، وانسحبن مسرعات لا يلوين على شئ .. ولبثت الملكة جالسة هنيئة ، ترمقه بعينين هادئتين ، ثم قامت فى جلال ، ودنت منه ، ثم شبت على أطراف قدميها وقبلت كتفه وقالت :

— أغاضب أيضا يا مولاي ؟

كان يحس بالحاجة القصوى إلى إنسان يطلعه على النار الموقدة فى دمائه ، فارتاح إلى سؤالها وقال بشدة :

— كما ترين يا نيتوقريس !

وكانت الملكة تشعر شعورا قويا بعد درايتها بأخلاقه ، بأن واجبها الأول هو

أن تذهب عنه حدة الغضب إذا أهاجه ، فقالت بهدوء وهي تبسم إليه :
— الحلم أحرى بالملك .

ولكنه هز كتفيه العريضين استخفافا وقال :

— أتوصيني بالحلم أيها الملكة ؟ إنه لثوب زائف يتقنع به الضعفاء .
فقالت الملكة في تألم ظاهر ..

— مولاي .. لماذا تضيق بالفضائل ذرعا ؟

— أحقا أنا فرعون ؟ .. وهل حقا أتمتع بشبابي وقوتي ؟ .. فكيف إذا أريد ،
ولا أستطيع نيل ما أريد ؟ .. كيف تنظر عيناى إلى أراضى مملكتى فيتصدى لى
عبد ويقول : لن يكون هذا لك ؟ .

فوضعت يدها على ذراعه ، وأرادت أن تجذبه إلى الديوان ، ولكنه تخلص
منها ، ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهابا . غاضبا ساخطا ، فقالت بلهجة تنم على
الأسف العميق :

— لا تصور الأمور لنفسك على هذا النحو .. واذكر دائما أن الكهنة رعاياك
المخلصون ، وأن أراضى المعابد كانت منحنا تنازل عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت
صفة الحقوق الكاملة ، وأنت تريد يا مولاي أن تستردها ، فمن الطبيعى أن
يقلقوا ..

قال الملك الشاب بحدة :

— أريد أن أشيد قصورا ومقابر ، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية ، ولا يقف فى
سبيل رغباتى إلا أن نصف أراضى المملكة فى أيدى أولئك الكهنة .. أيجوز أن
تعذبنى رغباتى كالفقراء ؟ . ألا سحقا لهذه الحكمة الفارغة ، أو تعلمين ماذا
حدث اليوم ؟ .. لقد هتف نفر منهم فى أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم
حطب .. أرأيت أيها الملكة ؟ .. إنهم يتحدثون فرعون عينا لعين !

فاستولت الدهشة على الملكة ، واصفر وجهها الوديع ، وتمتمت بكلمات
غير مسموعة ، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة :

— ماذا دهاك أيتها الملكة ؟

أحسنت بلا شك بانزعاج واستياء ، ولولا أن الملك غاضب إلى حد الثورة لما حاولت أن تخفى غضبها ، ولكنها تسلطت على انفعالاتها بإرادة من حديد ، وقالت بهدوء :

— دع هذا الحديث إلى وقت آخر ، فإنك على وشك استقبال رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب ، وينبغي أن تقابلهم المقابلة الرسمية الكاملة .. فنظر فرعون إليها نظرة غامضة ، وقال بسكينة مخيفة :

— إني أعرف ما أريد ، وما ينبغي أن أفعل .

وفي الوقت المحدد ، استقبل الملك رجال مملكته في البهو الرسمي العظيم ، واستمع إلى خطب الكهنة ، وآراء حكام الأقاليم ، ولاحظ كثيرون أن الملك « لم يكن راضيا » ، وحين تفرق الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختلى به زمنا غير يسير ، وملكت الحيرة النفوس ، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل ، ثم ظهر رئيس الوزراء ، وحاول كثيرون أن يقرعوا صفحة وجهه ، لعلمهم يعثرون على بينة ، ولكن وجهه كان جامدا كالصخر لا يبين .

وأمر الملك مستشاريه المقربين ، سوفخاتب كبير الحجاب وطاهو رئيس الحراس ، أن يسبقاه إلى موضع سمرهم على شاطئ بركة الحديقة ، ودار في الممرات المعشوشبة ، يبدو على وجهه الأسمر ارتياح ، كأنه أرضى الغضب العنيف الذى طالبه بالتأثر منذ حين قليل ، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيب الذى تبعث إليه به الأشجار تحية وسلاما ، وينقل نظريه بين الأزهار والثمار ، ثم اتخذ سبيله إلى البركة الغناء ، فوجد رجله في انتظاره : سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل ، ورأسه الأشيب ، وطاهو بجسمه القوى الفولاذى الذى ترى على متون الخيل والعجلات .

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بإمعان ليستكنه باطنه ويطمئن على السياسة التى يشير باتباعها نحو الكهنة ، وكانا سمعا الهتاف الجريء

الذى عد في جميع الدوائر تحديا لسلطة فرعون ، وكانا يتوقعان له رجعا شديدا في نفس الملك الشاب ، وعلما بعد ذلك باستيقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريفات ، فحقق قلباهما ، وأشفق سوقخاب من عواقب غضبة الملك ، لأنه كان ينصح دائما بالتؤدة والأناة والصبر ، وبمعالجة مشكلة الأراضي بمتى الاعتدال ، أما طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك إلى الانضمام إلى رأيه ، فيصدر أمره بنزع أملاك المعابد وينذر الكهنة إنذارا نهائيا ..

وجعل الرجلان المخلصان ينظران إلى وجه مولاهما ، يرجوان ، ويكابدان قلقا أيما ، ولكن فرعون كتم عواطفه ، وطالعهما بوجه كأبى الهول . وكان يعلم بما تضطرم به نفسيهما ، وكأنه رغب في أن يدلهما جبل الوسوس ، فجلس على أريكة في هدوء ، وأمرهما بالجلوس ، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجد والاهتمام ، فقال :

— يحق لي اليوم أن أغضب وأن أتألم .

وفهم الرجلان ما يعنى ، ورن في أذنيهما الهتاف الجريء مرة أخرى . فرفع سوفخاب يديه تألما وإشفاقا ، وقال بصوت متهدج :

— تعالى مولاي عن دواعي الألم والغضب !

وقال طاهو بقوة :

— لا يجوز أن يألم مولاي وفي المملكة سلاح لا يثلم ، ورجال يفتدونهم بالأرواح ، حقا أن هؤلاء الكهنة على علمهم وخبرتهم ، يتكبدون سبيل الرشاد ، ويركبون رعوسهم ، ويعرضون أنفسهم إلى تهلكة لا قبل لهم بها ..

فأحنى الملك رأسه ناظرا إلى ما تحت قدميه ، وقال :

— إني أتساءل ، هل قوبل أحد من آبائي وأجدادي طوال عهد حكمه بمثل ما

قوبلت به اليوم من هتاف ، وما مضى على جلوسى سوى بضعة أشهر ؟ ..

فالتفت عينا طاهو بنور خاطف مخيف ، وقال ييقين :

— القوة يا مولاي .. القوة يا مولاي .. كان أجدادك المقدسون أقوياء ،

يحققون إرادتهم بعزيمة كالجبال ، وسيف كالقضاء ، كن مثلهم يا مولاي ، لا تتردد ولا تركز إلى الحلم ، واضرب إذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة ، تذهل الجبار عن نفسه ، وتحنق في صدره أوهى الأمل .

ولم يرق هذا الكلام في عيني الشيخ الحكيم سوفخاتب ، وذعر من حماس قائله ، وأشفق من عواقبه ، فقال :

— مولاي .. إن الكهنة منبثون في أقطار المملكة كالدم في الجسم ، منهم : الولاة والقضاة والكتاب والمربون ، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم ، وليس لدينا من قوة حربية سوى الحرس الفرعوى وحاميه بلاق ، فالضربة القاسية قد تأتي بعواقب غير محمودة ..

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوة ، فقال :

— وما عسى أن نفعل أيها المشير الحكيم ؟ .. أنستوصى بالصبر حتى يقتحمنا عدونا ، ونرد في عينيه إلى الهوان ؟

— ليس الكهنة بأعداء لفرعون ، ومعاذ الرب أن يوجد لفرعون من شعبه عدو ، فالكهنة طائفة مخلصنة أمينة . وما نأخذ عليهم إلا أن امتيازاتهم أكثر مما يقتضى الحال ، وأقسم أنى ما يمتست يوما من إيجاد الحل الموفق الذى يحقق رغبة مولاي ، ويحفظ للكهنة حقوقهم .

وكان الملك يستمع إليهما فى هدوء ، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة ، فلما أتم سوفخاتب كلامه ، قال بهدوء وهو يرمقهما بعينين ساخرتين :

— أريحا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان ، فقد أطلقت سهمي .

واستولت الدهشة على الرجلين ، ونظرا إلى الملك فى إشفاق وأمل وخوف . وكان طاهو أدنى إلى الأمل ، أما سوفخاتب فامتقع وجهه وعض على شفتيه ، وانتظر صامتا سماع الكلمة الفاصلة . وقال الملك بلهجة نمت عن الزهو والتشفي :

— تعلمان أنى استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعا ، ولما أن خلا

المكان ابتدرته قائلا : إن الهتاف باسمه تجت سمعى وبصرى عمل حقير خئون ، وأكدت له أنى لا أعدم الهاتفين من شعبى النبيل الأمين ، قرأته يضطرب ويهت ، ويحنى رأسه الكبير على صدره الضيق ، وفتح فمه ليتكلم ، ولعله كان يريد أن يعتذر بصوته الهادئ البارد ..

وقطب الملك جبينه ، وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلا بعنف :
— ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه بإشارة من يدى ، وصارحته بكلام صارم ، مؤكدا له أنه من تفاهة العقل أن يظن مثل ذلك الهتاف يردنى عن رأى اعترفته ، ثم أخبرته بأن نيتى انتهت إلى ضم أملاك المعابد إلى أراضى التاج ، وأنه لن يترك للمعابد منذ اليوم إلا ما يقوم بحاجتها من الأراضى والنذور ..
وكان الرجلان يصغيان بكل حواسهما إلى حديث الملك ، أما سوفخاتب فكان ممتقع اللون ، منكفى الوجه ، يعانى مرارة الحمية ؛ وأما طاهو فكان متهللا فرحا ، كأنه يستمع إلى لحن جميل ، يتغنى بمجده وعظمته ، واستدرك الملك قائلا :

— لا شك أن قرارى أذهل خنوم حتب ، وأخرجته عن طوره ، فبدا عليه الجزع ، توسل إلى قائلا : إن أراضى المعابد هى أراضى الأرباب ، وإن خيراتها تعود فى الغالب إلى الشعب والفقراء ، وينفق فى وجوه التعليم والتربية الخلقية ، وحاول أن يفيض ، ولكنى أوقفته بإشارة من يدى ، وقلت له : إن هذه هى إرادتى ، وأن عليه تنفيذها دون إبطاء ، وآذنته بانتهاء المقابلة .

فلم يتالك طاهو أن صباح فرحا :

— باركتك الأرباب جميعا يا مولاي !

فابتسم الملك ارتياحا ، ولاحت منه نظرة إلى وجه سوفخاتب فى ساعة خذلانه ، فأحس نحوه بعطف وقال :

— أنت رجل مخلص يا سوفخاتب ، ومشير نصوح .. فلا يحزنك أن تخولف رأيك .

فقال الراجل :

— لست يا مولاي من قوم مغرورين ، يفضبون أشد الغضب إذا خولفت نصيحتهم ، لا خوفا من العواقب ، ولكن ذودا عن كرامتهم ، حتى ليبلغ الغرور بأحدهم أن يتمنى لو يقع شر كان أنذر به ، ليعرف من لا يعرف قدره .. أعود بالرب من شر الغرور ، فما يدفعني إلى محض النصيحة سوى الإخلاص وما يحزنني حين مخالفتها سوى الإشفاق من صدق حدسي ، وما أتمنى على الرب من شيء إلا أن يكذب رأيي ، ليطمئن قلبي ..
وكأن فرعون أراد أن يطمئنه ، فقال :

— لقد نلت بغيتي ، ولن ينالوا شيئا مني ، فمصر تعبد فرعون ، ولا ترضى عنه بدلا ..

فأمن الرجلان على قول مولاها بإخلاص ، ولكن كان سوفخاتب مضطربا ، يحاول عبثا أن يقلل من خطورة الأمر الذي أصدره فرعون ، ويذكر في ضيق صدر أن الكهنة سيتلقون الأمر الشديد وهم مجتمعون في آبو ، فيتسع لهم المقام لتبادل الرأي ، وتباث الشكوى ، فيعودون إلى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم على النذر والحزن ، وإنه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو نفوذهم على القلوب والعقول .. ولكنه لم يبين عن آرائه ، لأنه وجد الملك فرحا راضيا ضاحك الثغر ، فأشفق من تعكير صفوه ، وبسط صفحة وجهه ، ورسم على شفتيه ابتسامة راضية .

وقال الملك بسرور :

— لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذي انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوب النوبة في حياة أوى ، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد .
وجاءت الجوارى بإبريق من خمر مريوط وكتوس ذهبية ، وصبين الخمر ، وقدمن كتوسا مترعات إلى الملك والرجلين المخلصين ، فشربوا في صفاء وهناء ، وعلوا في نشوة ، وجعل سوفخاتب يذب عن قلبه الخواطر المقلقة ، ليركز

حواسه فى رحيق مريوط ، ويشارك الملك والقائد سعادتهما ، وكانوا جلوسا صامتين يتبادل أعينهم المودة والصفاء ، والبركة من تحتهم يستحم فى مائها الطرب شعاع الشمس المائل ، والأشجار من حولهم ترقص أغصانها على شدة الأغاريد ، وتنشق الأزهار من بين أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيابات النفوس .. واستسلموا إلى يقظة ناعسة زمنة غير يسير حتى انتبهوا على حادثة غريبة انتزعتهم من أحلامهم بعنف ، إذ سقط شيء فى حجر الملك من عل ، فانفض واقفا ، وتبعه الرجلان ، فسقط الشيء عند قدميه ، وإذا به صندل ذهبى ، ونظروا إلى أعلى دهشين ، فرأوا نسرا هائلا يحلق فى سماء الحديقة فوق رؤوسهم ويبحث فى الفضاء صرصرة مخيفة ، ويصلبهم نظرات ملتبة من عينين متقدتين ، ثم ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلق بها فى آفاق بعيدة .. وعادوا بالنظر إلى الصندل ، والتقطه الملك بيده ، وجلس يتأمله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما آى الدهشة . ونظر الرجلان إلى الصندل بغرابة ، وتبادلا نظرات الإنكار والدهشة والارتباب .

ومضى الملك فى تأمله ، ثم غمغم قائلا :

— هذا صندل امرأة بلا ريب ، ما أجمله وما أئمه !.

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل :

— ترى هل خطفه النسر ؟

فابتسم الملك قائلا :

— لا يوجد فى حديقتى شجر يتساقط منه نبت طيب كهذا .

وقال سوفخاتب :

— يعتقد العامة يا مولاي أن النسر يتعشق الحسان ، وأنه يخطف من العذارى

من تهوى إليها نفسه ، ويطيّر بها إلى قمم الجبال ، ففعل هذا النسر عاشق هبط

منف وابتاع الصندل لحبيته ، ثم خانه الحظ فأفلت من بين مخالبه ، وسقط عند

قدمي مولاي .

وجعل الملك يتأمله مسرورا منفعلا ، ويقول :

— ترى كيف خطفه ؟ .. أخشى أن يكون لإحدى ساكنات السماء ..

فعاد سوفخاتب يقول باهتمام :

— أو لإحدى ساكنات الأرض يا مولاي ، خلعت مع ثيابها على شاطئ

بركة ، وتعرت تستحم ، فجاء النسر وخطفه .

— ورمى به إلى حجرى .. يا للعجب ، لكأنى به يعلم يحبى للحسان ! ..

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى ، وقال :

— أسعدت الآلهة أيامك يا مولاي .

وتبدت الأحلام فى عيني الملك ، وابتسمت أساريره ، ولان جبينه ،

وتوردت وجنتاه ، وكان ينظر إلى الصندل لا تفارقه عيناه ، ويسائل نفسه ترى

من صاحبتة ؟ وما صورتها ؟ وهل هى جميلة كصندلها ؟ وكيف لا تدرى أن

صندلها سقط فى حجر الملك وما شأن الأقدار التى نصبتة هدفاله ؟ . وعثر بصره

بصورة منقوشة على باطنه ، فقال وهو يشير إليها :

— ما أجمل هذه الصورة .. إنه فارس وسيم ، يقدم قلبه هدية على يده

المبسوطة .

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد فاتمعت أعينهما

بنور خاطف ، وتطلعا إلى الصندل باهتمام عظيم ، وقال سوفخاتب :

— هل يتنازل مولاي عن الصندل لحظة ؟

فأعطاها ، ونظر إليه كبير الحجاب ، كما نظر إليه طاهو ، ثم رده الرجل إلى

الملك وهو يقول ::

— صدق حدسى يا مولاي .. هذا صندل رادويس غانية بيعة الشهيرة .

فتساءل الملك قائلا :

— رادويس .. يا له من اسم جميل .. من عسى أن تكون صاحبتة ؟ .. !

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال :

— هي راقصة يا مولاي يعرفها أهل الجنوب جميعا .
 فابتسم فرعون وقال :
 — ألسنا من أهل الجنوب ؟. حقا أن الملوك قد تخرق أعينها سجف الأفق
 القصي ، وتعمى عما يقع عليه ظلها .
 واشتد القلق بطاهو ، فقال وقد امتنع لونه :
 — إنها امرأة يا مولاي قد طرق بابها رجال آبو ويبيجة وبلاق .
 وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من الخواف ، فقال وهو يبتسم
 ابتسامة غامضة مأكرة :
 — على أية حال هي صورة أنثوية يا مولاي ، جعلتها الآلهة آية على قدرتها
 وإعجازها .

فردد الملك ناظريه بين الرجلين وقال مبتسما :
 — وحق الرب سوتيس إنكما لأنخبر أهل الجنوب بها .
 فقال سوفخاتب بهلوء :
 — إن بهو استقبلها يا مولاي ملتقى أهل الرأي والفن والسياسة .
 — حقا إن الجمال عالم ساحر ، يطالعنا كل يوم بالمعجزات ، هل هي أجمل
 من رأيت ؟
 فقال سوفخاتب باطمئنان :

— هي الجمال عينه يا مولاي ، هي فتنة قهارة ، وعاطفة لا تقاوم . لقد
 صدق الفيلسوف هوف وهو من أصدقائها المقربين إذ قال يوما : إنه من أخطر
 الأمور في حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادويس .
 وتهد طاهو يائسا ، وحجج كبير الحجاب بنظرة خاطفة فهم معناها ، ثم
 قال :

— إن جمالها يا مولاي جمال شيطاني رخيص ، لا تضن به على طالب !
 فضحك الملك بصوت عال ، وقال :

— كلا كما يغربني وصفه .

فقال سوفخاتب :

— ألا فلتروك سماء مصر بأجمل ما تظلم من السعادة يا مولاي .
ونزع خيال الملك به إلى النسر ، فتولاه عجب ساحر ، أضفى عليه ما سمعه
نسيجا رقيقا من الفتنة والأحلام . فتساءل وكأنه يحدث نفسه :

— ترى أحسن النسر في اختيارنا هدفا له أم أساء ؟
واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكب على ما بين يديه ، وقال في
حيرة :

— ما هي إلا مصادفة يا مولاي . وما يؤسفني إلا أن أرى هذا الصندل
الملوث بين يدي مولاي المعبودتين .

ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفية ، وقال بهدوء :
— مصادفة ؟ .. إن هذه الكلمة يا مولاي مهضومة الحق ، يظن بها التخبط
والعمى ، ومع هذا فهي المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجل الكوارث ،
فلم يبق للآلهة إلا القليل النادر من حوادث المنطق ، كلا يا مولاي ، إن كل
حادثة في هذا العالم لا شك موكلة بإرادة رب من الأرباب ، ولا يجوز أن تخلق
الآلهة الحادثات — جلت أو تفهت — عبثا أو لهما .

فجن جنون طاهو ، وكظم بقوة تيار غضب جنوني كاد أن يجرف هدوءه في
حضرة الملك ، وقال لسوفخاتب بلهجة تنم على اللوم والتعنيف :
— أتريد أيها المعظم سوفخاتب أن تشغل بال مولاي ، في هذه الساعة
الجليلة ، بأمثال هذه الأوهام ؟

فقال سوفخاتب بهدوء :

— إن الحياة جد ولهو ، كما أن اليوم نهار وليل ، والرجل الحكيم من لا يذكر
في أوقات جده أسباب لهو ، ولا يعكر صفو لهو بأموال جده . فمن أدراك أيها
القائد ، ففعل الآلهة لسابق علمها بحب مولانا الجمال ، أرسلت إليه هذا الصندل

على يد النسر العجيب .

وقلب الملك عينيه في وجهيهما واستضحك قائلاً :

— أداثما على اختلاف أيها الرجلان ، كما تشاءان . ولكن كان ينبغي أن أجد في طاهو الرجل مغربا بالهوى ، وفي سوفخاتب الشتيخ زاجرا عنه ، وعلى أية حال لا مندوحة لي من الميل مع رأى سوفخاتب في الحب ، كما ملت إلى رأى طاهو في السياسة .

وقام الملك واقفا ، فقام الرجلان ، وألقى نظرة على الحديقة الواسعة وهي تودع الشمس المائلة نحو الأفق الغربى ، وقال وهو يهم بالمسير :

— أمانا ليلة عمل شاقة . فإلى الغد ، ولسوف نرى .

وذهب فرعون والصندل في يده ، فانحنى الرجلان في إجلال .

ووجدا نفسيهما منفردين مرة أخرى فوقف كل منهما بإزاء صاحبه : طاهو بجسمه الطويل وصدرة العريض وعضلاته الفولاذية ، وسوفخاتب بجسمه الدقيق النحيل وعينه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة العظيمة .

وكان كل منهما يحس بما اختلج في صدر صاحبه ، فيبتسم سوفخاتب ، ويقطب طاهو جبينه . ولم يستطع القائد أن يودع الحاجب بغير قول ينفس به عن صدره الكظيم ، فقال :

— غدرت بى أيها الصديق سوفخاتب ، بعد أن لم تطق منازلتى وجها لوجه ..

فرفع سوفخاتب حاجبيه إنكارا ، وقال :

— يا له من كلام بعيد عن الحق أيها القائد ، ما لى أنا والحب ؟ ألم تعلم بأنى شيخ فان ، وأن حفيدى سنب طالب فى جامعة أون ؟

— ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق ، ولكن الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم .. ألم يمل قلبك الفتى يوما إلى رادويس ؟ ألم يسؤك أن تهبنى عطفًا لم تظهر به أنت ؟

— ٣٢ —

- رفع الشيخ يديه يستعيز من كلام القائد ، وقال :
- إن خيالك لا يقل عن عضلات ساعدك الأيمن ، والحق أنه إذا كان قلبى مال إلى هذه الغانية يوما ، فعلى طريقة الحكماء المبرأة من الطمع !
- أما كان يجمل بك ألا تفتن خيال مولانا بحسنها إكراما لى ؟
- فبدت الدهشة على سوفخاتب ، وقال باهتمام وأسف صادق :
- أحقا أنك تجد فى الأمر جدا ؟.. أم أنك ضقت بدعابتى ذرعا ؟..
- فقال طاهو بسرعة :
- لا هذا ولا ذاك أيها المعظم ، ولكن يسوءنى فقط أن نختلف دائما .
- فابتسم كبير الحجاب ، وقال بهدوئه الطبيعى :
- لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الإخلاص لصاحب العرش !

قصر بيجة

غاب الموكب الفرعوني من الأنظار ، ورفعت تماثيل ملوك الأسرة السادسة ، فاندفع الناس من جانبي الطريق ، فتلطمت أمواجهم ، واختلطت أنفاسهم ، كأنهم بحر موسى الذى انشق له طوعا ، وانقض على أعدائه كاسرا . فأمرت رادوييس عبيدها بالعودة إلى السفينة . وكانت نشوة الحماس التى انبعثت فى قلبها لدى ظهور فرعون ما تزال تلهب فى قلبها نارا وتندفع إلى أطرافها دما حارا . وكانت صورته لا تفارق مخيلتها لشبابه الغض ، ونظراته المتعالية ، وقده الرشيق ، وعضلاته المفتولة .

وكانت رآته قبل ذلك فى يوم التتويج العظيم منذ شهور قلائل ، وكان يقف فى عجلته كما وقف اليوم فارع الطول جاهر الجمال ، مرسلا بناظريه إلى الأفق البعيد ، وقد تمت يوم ذاك كما تمت اليوم لو عطف إليها عينيه . ترى لماذا ؟ .. لأنها تطمع فى أن يفوز جمالها بما هو أهله من التكريم ؟ أم لأنها تود فى أعماقها لو تراه فى هيئة البشر بعد أن رآته فى قداسة الأرباب المعبودة ؟ كيف السبيل إلى فهم هذا التمنى ؟ .. على أنه مهما كانت حقيقته ، فقد تمت صداقة ، وتمت مخلصه مشوقة .

لبث الغانية مستغرقة فى غمرات أحلامها ، فلم تعن بالالتفات إلى الطريق المزدهم الذى يجتازه ركبها الصغير بشق الأنفس ، ولم تلق أدنى انتباه إلى الآلاف من الخلق الذين يكادون أن يلتهموها ، بنهم وشراسة . وصعد بها إلى السفينة ونزلت من الهودج فى المقصورة ، واطمأنت إلى عرشها الصغير ، وهى فى شبه غيبوبة تسمع ولا تعى ، وتنظر ولا ترى .. وانسابت بها تشق وجه النيل الرزين ، حتى رست إلى سلم حديقة قصرها الأبيض ، عروس جزيرة بيجة .
(رادوييس)

وكان القصر يرى عن بعد في نهاية الحديقة الياقة التي تنتهى معارجها إلى سيف النيل ، تحوط به أشجار الجميز ، ويحنو عليه النخيل ، كأنه زهرة بيضاء نبتت في أحضان تلك الجنة الوارفة . فهبطت أدراج السفينة ، ووضعت قدمها على أولى درجات الحديقة ، وصعدت سلما من الممر المصقول ، يمتد بين سورين من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلات عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب ، إلى أن بلغت أرض الحديقة السندسية .

واجتازت بوابة من الحجر الجيري نقش اسمها على واجهتها باللغة المقدسة ، وقام في وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعي ، نحته هنفر ، وأفنى فيه دهرا جميلا من أسعد أيام حياته ، يمثلها جالسة على عرشها الجميل الذي تستقبل عليه المقربين ، ويكشف في روعة فنية رائعة عن جمال الوجه ، وتكعب الثديين ، ورشاقة القدمين . ثم خلصت إلى ممر وسيط اصطفقت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالي أغصانها ، فظلت عليه سقفا من الأزهار والأوراق الخضراء ، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب ، وكانت توازيه عرضا من اليمين والشمال ممرات جانبية قادت على نفس الصورة ، تنتهى ذات اليمين إلى سور الحديقة الجنوبي ، وذات الشمال إلى سورها الشمالى . وكان هذا الممر ينتهى إلى الكرمة المتفرعة المتسلقة على أعراس من عمد رخامية ، تنبسط إلى يمينها غابة من الجميز ، وتمتد إلى يسارها غابة من النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزال ، وانتشرت في جنباتها المترامية التماثيل والمسلات .

وانتهت بها قدمها إلى بركة واسعة من ماء غير آسن ، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس ، ويسبح على سطحها الأوز والبط وتغنى في جوها الأطياف ، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغردت البلابل .

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة ، فصارت أمام الحجرة الصيفية ، ووجدت في استقبالها جماعة من الجوارى انحنين لها لإجلالا ، ثم وقفن ينتظرن أوامرها ، وأسلمت الغانية نفسها إلى أريكة مظلمة تستريح .. ولم يطل بها المقام

فانتفضت واقفة ، وقالت لجواربها :

— كم ضايقتى أنفاس القوم الحارة .. وكم أرهقنى الحر .. اخلعن ثيابى ،
فقد تقى إلى مياه البركة الباردة .

فدنت الجارية الأولى من سيدتها ، ورفعت بخفة خمارها الموشى بالذهب
نسيج منف الخالدة .

ثم تقدمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية ، فكشفتا عن قميص شفاف انحسر
عما فوق النهدين وما تحت الركبتين ، ثم تبعتهما جارتان فسحبتا بيدين رقيقتين
القميص السعيد ، وروعتا الدنيا بمجد طليق ، خلقتة الآلهة جميعا ، وادعاه كل
لقدرته وفنه !

واقتربت جارية أخرى وحلت عقدة شعرها الفاحم ، فانساب على
جسدها ، وغشاه من الجيد إلى الرسغين ، وانحنت على قدميها وخلعت صندلها
الذهبي ووضعت على حافة البركة . ومشت الغانية تهادى ، وهبطت درجات
البركة المرمرية على مهل ، ومضى الماء يغمر القدمين ، فالساقين ، فالفخذين ، ثم
ألقت بجسمها فى الماء الهادئ يأخذ منه عطرا ويعطيه بردا وسلاما . واستسلمت
لمداعبة الماء فى رخاوة ، ولعبت فيه ما شاء لها الهوى والمرح ، وسبحت طويلا
تارة على بطنها ، وتارة على ظهرها ، وثالثة على أحد جانبيها .

وما كانت لتعبر شيئا اهتماما لولا أن صك أذنيها صراخ فزع يرسله جواربها ،
فتوقفت عن السباحة ، والتفت إليهن ، فراعها أن رأت نسرا هائلا يخلق من علو
قريب من شاطئ البركة ، ويرف بجناحيه ، ففرت من بين شفتيها صرخة فزع ،
وغاصت فى الماء تنتفض فزعاً ورعباً ، وتصبرت بجهد جهيد ، وحبت أنفاسها
طويلا حتى أحست بالاختناق ، ونفدت قدرتها فرفعت رأسها فى خوف
وحذر ، ونظرت فيما حولها وهى تخشى ، فلم تر شيئا . فنظرت إلى السماء
فوجدت النسر يولى بعيدا يوشك أن يلج باب الأفق ، فسبحت إلى الشاطئ على
عجل ، وصعدت الأدراج مسرعة مضطربة ، ووضعت قدمها فى إحدى

زوجى صندلها ، ولكنها لم تجد الأخرى ، وبحثت عنها طويلا ثم سألت :

— أين الأخرى ؟

فأجابها الجوارى فى قلق :

— خطفها النسر !

وتبدى الأسف على وجهها ، ولكنها لم تجد متسعا من الوقت لإعلان
سخطها ، فدلقت إلى الحجرة الصيفية ، والجوارى من حولها وبين يديها يجفون
جسدها الغض ، تنحدر عليه نقط الماء كأنها لؤلؤ ينتشر على أديم عاج .

يلدى الغروب تأهبت لاستقبال الضيوف ، وما أكثرهم فى أيام العيد التى
تجذب الناس إلى الجنوب من كل صوب ، فارتدت أجمل ثيابها ، وازينت بأفخر
حليها ، ثم تركت المرأة إلى بهو الاستقبال ، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم .
وكان البهو آية من آيات الفن والعمارة ، بناه المعمار هنى ، وجعل صورته
على هيئة يضاوية ، وشيد جدرانه من الجرانيت كبيوت الأرباب ، وكساه
بطبقة من الصوان ذات ألوان تسر الناظرين ، وكان سقفه مقببا تزينه الصور
والتماويل ، وتمتدلى منه المصابيح المكففة بالذهب والفضة .

وزخرف الجدران المثل هنفر ، وتنافس العشاق فى تأنيثه بإهداء المقاعد
الوثيرة والدواوين الفاخرة ، والرياش الجميلة . وكان عرش الغانية أهدع هذه
التحف جميعا ، فهو من العاج الثمين على قوائم من سن الفيل ، وقاعدته من
الذهب الخالص المحلى بالزمرد والياقوت ، وقد أهدها إياها حاكم جزيرة بيجة .
ولم يطل انتظار الغانية ، فدخل عبد من عبيدها ، وأعلن قدوم السيد عانن
تاجر سن الفيل . ودخل الرجل على الأثر يهرول فى ثيابه القفضافضة ، ويزهو
بشعره المستعار ، يتبعه عبد يحمل صندوقا من العاج المطعم بالذهب ، وضعه
على كئب من كرسى الغانية ، ورجع من حيث أتى . وانحنى التاجر على يد
رادوبيس ، ولثم أناملها ، فابتسمت له ، وقالت بصوتها الحلو :

— أهلا بك أيها السيد عانن . كيف حالك ؟. أهكذا لا نراك إلا كل دهر

طويل !

فضحك الرجل سعيدا مسرورا ، وقال :

— ماذا أصنع يا مولاتي !.. هي حياتي التي اخترتها أو التي فرضتها الأقدار على ، أن أكون أخا سفر ، جواب أرض ، تتقاذفني البلدان ، فأقضي نصف عامي في بلاد النوبة ، ونصفه الثاني ما بين الجنوب والشمال ، أشتري وأبيع ، وأبيع وأشتري ، لا أعرف لحياي مستقرا !!.

فنتظرت إلى الصندوق العاجي وهي لا تزال تبتسم وسألته :

— وما هذا الصندوق الجميل ؟ إخال أنه هدية من هداياك النفيسة !.

— ليس الصندوق بالذات ، ولكن ما فيه .. هو سن فيل مفترس ، أقسم التاجر النوبى الذى ابتعته منه أن صيده كلفه أربعة من رجاله الأشداء ، فحفظته في مكان أمين ، ولم أعرضه على الطالبين . ولما ألقيت عصا الترحال في تنيس ، دفعت به إلى أيدي صانعيها المهرة ، فبطنوه بقشرة من خالص الذهب ، وطلوه من الخارج ، فصار كأسا لا يشرب منها إلا الملوك .. وقلت لنفسى : أخرى بتلك الكأس التي كلفت نفوسا غالية ، أن تهدى إلى من تبذل في سبيلها النفوس العزيزة رخيصة . وهي راضية .

فضحكت رادوييس ضحكة رقيقة ، وقالت :

— شكرا لك أيها السيد عانن .. إن هديتك على نفاستها لا تعدل بجمال

حديثك !

فطرب أيما طرب ، ورنأ إليها بعين ناطقة بالإعجاب والتوسل ، وقال بصوت

خافت :

— ما أجملك .. ما أفتنك .. كلما عدت من سفر طويل أجذك أجمل وأفتن ما

تركك ، وكأني بالزمان ولا عمل له إلا السمو بمحسنتك الفاتن .

وكانت تصغى إلى إطراء حسننها ، كمن يصغى إلى نعمة معادة ، فطاب لها أن

تتهكم به فسألته :

— كيف حال أبنائك ١٩.

فأحس بشيء من الخيبة ، وصمت لحظة ، ثم انحنى على الصندوق ورفع غطاءه ، فبدا الكأس نائما على جانبه ، ثم قال وهو يرفع رأسه إليها :
— ما ألدع سخريتك يا سيدتى . ومع هذا فلن تجدى شعرة بيضاء برأسى ، وهل يستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحتفظ في قلبه بأدنى حرارة لامرأة سواك ١.

فلم تجبه ، وما تزال تبتسم ، ثم دعت للجلوس فجلس قريبا منها . واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجار وكبار المزارعين ، منهم من يتردد على قصرها كل مساء ، ومنهم من لا تراه إلا في الأعياد والمناسبات ، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة ، ثم رأت المثال هنفر يلج باب البهو بقامته الرشيق ، وحنجرته الناتئة ، وشعره المفلفل ، وأنفه الأفطس ، وكان من الرجال الذين تستخف ظلهم . فأعطته يدها ، ولثمتها الرجل في حب عميق . وقالت تداعبه :
— أيها الفنان الكسول .

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال :

— لقد انتهيت من عملى فى زمن قصير .

— والحجرة الصيفية ؟

— هى الباقية بلا زخرف ، وإنه ليؤسفنى أن أقول لك بأنى لن أزخرفها بنفسى .

فبدا التساؤل على وجه رادويس ، فقال الرجل :

— سأرتحل بعد غد إلى بلاد النوبة ، لأن أمى مريضة ، وقد بعثت إلى رسولا

يلغنى رغبتها فى رؤيتى ، فلم أر بدا من السفر .

— خففت الأرباب عنها وعنك .

فشكرها هنفر وقال :

— لا تظنى أنى نسيت الحجرة الصيفية ، ففى الغد يأتيك أنبغ تلاميذى بنامون بن بسار ، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه ، إنى أثق به ثقتى بنفسى ، ولعلك ترحبين به وتشجعينه .

فشكرته على عنايته بها ، ووعدته خيرا .

واطرديت القاديين ، فجاء المعمارهنى ، وقفاه أنى حاكم الجزيرة ، وتبعهما بعد حين قليل الشاعر رامون حتب . وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف ، الذى كان فى يوم من الأيام أستاذ جامعة أون الأكبر . وقد عاد أخيرا إلى أبو مسقط رأسه ، بعد أن نيف على السبعين من عمره ، وكانت رادوييس لا تفتأ تداعبه ، فقالت له وهى تستقبله :

— مالى إذا رأيتك أشتى أن أقبلك ؟

فقال الرجل بهدوء :

— لعلك يا مولاتى من هواة التحف القديمة .

ودخلت جماعة من الجوارى يحملن أوانى من الفضة ملئت طيبا ، وباقات من أزهار اللوتس ، فذهبن رعوس الحاضرين وأيديهم وصدورهم بالطيب ، وأهدين إلى كل منهم زهرة من اللوتس .

وقالت رادوييس بصوت عال :

— ألم تعلموا بما حدث لى اليوم ؟

فتطلع إليها الجميع بانتباه ، وساد الصمت ، فقالت باسمه :

— نزلت أستحم ظهر اليوم فى البركة ، فهبط نسر بغتة وخطف فردة

صندلى الذهبى ، وطار بها .

فبدت الدهشة والابتسامة على الوجوه ، وقال الشاعر رامون حتب :

— إن رؤيتك فى الماء عارية تهيج الطيور الكاسرة !

وقال عانن بحماس :

— أقسم بالرب سوتيس على أن النسر كان يتمنى لو يخطف صاحبة الصندل .

فقلت رادوبيس آسفة :

— كم كان عزيزا لدى .

فقال هنفر المثال :

— من الحزن حقا أن يضيع شيء تتمتع بلمسك أياما وأسابيع ، وما مصيره في النهاية إلا السقوط ، وقد يسقط في حقل ناء فتطوّه قدم ريفية بسيطة !
فقلت رادوبيس بحزن :

— مهما يكن مصيره ، فلن يعود إلى ..

وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل تافه ، فقال يعزيها :

— على أية حال إن خطف النسر لصندلك فأل حسن ، فلا تحزنى .

فسأله أحد الأعيان المبرزين :

— وماذا ينقص رادوبيس من السعادة ، وجميع هذه الوجوه من عشاقها ؟
فرد عليه الفيلسوف قائلا ، وهو يحججه بنظرة ساخرة .

— ينقصها أن تتخلص من بعضهم !

ودخلت جماعة أخرى من الجوارى يحملن أباريق الخمر وكؤوس الشراب الذهبية ، ودرن بها على الحاضرين كلما لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة ، تطفئ الظمأ في الفم ، وتوقد النار في القلوب . وقامت رادوبيس على مهل ، وسارت إلى الصندوق العاجي ، ورفعت الكأس العجيبة ، ومدت بها يديها إلى الساقية وهي تقول :

— لنشرب نخب السيد عائن لهديته الجميلة ، وعودته السالمة .

فشربوا جميعا هنيئا ، وشرب عائن كأسه حتى الثمالة ، وأرسل إلى الغانية نظرة امتنان وشكران ، ثم التفت إلى صاحب له وقال :

— أليس من كبريات النعم أن يجرى ذكر اسمي على لسان رادوبيس ؟
فأمن الرجل على قوله ، وتنبه عند ذاك الحاكم آنى إلى وجود السيد عانن ،
وكان يعرفه ، ويعلم بأنه كان في رحلة في الجنوب ، فقال له :
— عود سعيد يا عانن ، كيف كانت سفرتك هذه المرة ؟
فأحنى الرجل رأسه احتراماً ، وقال :

— حفظتك الآلهة من كل سوء أيها الحاكم الجليل ، لم أتوغل هذه المرة فيما
وراء إقليم الواوايو ، وكانت رحلة موفقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب .

— وكيف حال صاحب السمو كارفرو حاكم الجنوب ؟
— الحق أن سموه يلقى متاعب جمّة بسبب تمرد قبائل المعصايو ، فهم
يضمرون الكراهية للمصريين ، ويتربصون لهم ، فإذا وقعوا على قافلة هاجموا
بلا رحمة ، وقتلوا رجالها ، ونهبوا تجارتها ، ولأدوا بالفرار أن تبلغهم القوات
المصرية .

فبدأ الاستياء على وجه الحاكم ، وسأل التاجر باهتمام :

— ولماذا لا يسير سموه إليهم بقوة تأديبية ؟
— إن سموه لا ينفك يرسل قواته في أعقابهم ، ولكنهم لا يواجهون القوات
الحرية ، ويفرون في الصحارى والغابات . فتضطر القوات إلى العودة بعد نفاذ
المؤن . ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل .

وكان الفيلسوف هوف يصغى بانتباه إلى كلام عانن ، وكانت له خبرة ببلاد
النوبة ، وكان على علم واف بقضية المعصايو ، فسأل التاجر قائلاً :

— لماذا يصير المعصايو دائماً على العصيان !.. إن البلاد المشمولة بحكم مصر
تتمتع في ظلّه بالطمأنينة والرفاهية ، ونحن لا نتعرض لعقائد غيرنا ، فلماذا
يناصبوننا العداوة ؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب ، وظن أن نفاسة التجارة هي التي تغري
القوم بالانقضاض عليها ، ولكن الحاكم آنى كان متبحراً في هذه المسائل ، فقال

للفيلسوف :

— الحق يا سيدى الأستاذ أن المعصايو لا يرجع إلى أسباب سياسية أو دينية .
وحقيقة المسألة أن القوم قبائل رحالة ، يعيشون فى أرض جدداء ، ويهددهم
الجوع فى كل حين ، وبين أيديهم كنوز من الذهب والفضة لا تغنى ولا تشبع من
جوع . فإذا انبرى المصريون لاستثمارها ، هاجمهم ونهبوا قوافلهم .

فقال هوف :

— إذا كان الأمر كذلك ، فالحملات التأديبية عديمة الجدوى ، وإنى أذكر يا
سيدى الحاكم أن الوزير أونا — تقدست روحه فى عالم أوزوريس — منى نفسه
يوما بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة ، فيمدهم بالغذاء فى مقابل أن
يؤمنوا له طرق القوافل .. هى فكرة ثابتة أليس كذلك ؟

فهز الحاكم رأسه دلالة على الموافقة ، وقال :

— لقد أحيار رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا ، وعقد المعاهدة قبل
عيد النيل بأيام ، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل ، والمتفائلون كثيرون ..
وكان الحاضرون ملوا سريعا حديث السياسة ، فانقسموا حلقات ، ومنهم
عائن ، وشتمهم شجون الحديث ، وحاولت كل حلقة أن تجذب رادوبيس إليها ،
ولكن الغانية جذبها اسم خنوم حتب ، وذكر الهتاف الذى دوى باسمه فى أثناء
سير الركب الفرعونى ، فعاودها استياء غمرها وقتذاك وأحست بلقحة
غضب ، فدلقت إلى حيث يجلس آنى ، وهوف ، وهنفر ، وهنى ، ورامون
حتب ، وقالت بصوت خافت :

— ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب ؟

وكان زوار القصر الأبيض إخوة ، لا تقوم بينهم كلفة ، ولا يعقل ألسنتهم
خوف ، وكانت أحاديثهم تتناول كل شئ فى حرية مطلقة ، وطمانينة كاملة .
وقد سمع هوف مرات ينتقد سياسة الوزراء ، كما سمع رامون حتب وهو يبدى
شكوكه ومخاوفه من تعاليم اللاهوت ، ويعلن عن إيمانه باللذة ويدعو إلى متاع

الدنيا .

وتناول المعمار هنى جرعة من كأسه ، وقال وهو ينظر إلى وجه رادويس الجميل :

— إنه هتاف جرىء لم يسمع بمثله من قبل فى وادى النيل .

فقال هنفر :

— نعم ولا شك فى أنه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشاب فى أول عهده بالحكم .

وقال هوف بهدوء :

— لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم إنسان ما مهما كانت مكانته ، فى حضرة فرعون ! .

فقالت رادويس بلهجة دلت نبراتها على الغضب :

— ولكنهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة .. لماذا أقدموا على ذلك أيها السيد آلى ؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين ، وقال :

— أراك تسألين عما يتحدث عنه الناس فى الطرقات .. فكثير من العامة يعلم الآن أن فرعون يرغب فى أن يضم كثيرا من أملاك المعابد إلى أملاك التاج ، وأن يسترد المنح الواسعة التى أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت .

وقال الشاعر رامون حب بلهجة لم تخل من عنف :

— كان الكهنة دائما موضع عطف الفراعنة ، يقطعونهم الأراضى ، ويهبونهم الأموال ، حتى صاروا يملكون ثلث الأراضى المزروعة ، وتغلغل نفوذهم فى الأقاليم ، وبسط على الرقاب ، ولا شك أن هناك وجوها من المنافع أحق بالمال من المعابد ..

فقال هوف :

— يزعم الكهنة أنهم يصرفون ريع الأراضى على أعمال الإحسان والبر ،

ويصرحون دائما يتنازلون عن أملاكهم عن طيب خاطر إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

— وما هذه الضرورة ؟

— أن تشتبك المملكة في حرب مثلا تحتاج للإنفاق الكثير .

ففكرت الغانية قليلا ، ثم قالت :

— لا يجوز على أى حال أن يناهضوا رغبة الملك .

فقال الحاكم آتى :

— لقد تورطوا في خطأ بالغ ، وفوق ذلك فهم يثنون دعائهم في الأقاليم ، ويدخلون في روع الفلاحين أنهم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة ..

فتساءلت رادويس دهشة :

— كيف تواتهم شجاعتهم ؟

فقال آتى :

— البلاد في سلام ، والحرس الفرعوى هو القوة المسلحة الوحيدة التى يعتد بها ، والكهنة تواتهم شجاعتهم إذا أيقنوا أن قوة فرعون غير كافية !

فتضايقت رادويس وقالت بحق :

— يا لهم من أوغاد !

فابتسم الفيلسوف هوف ، ولم يكن يرضى أن يجبس رأيا فقال :

— إذا أردت الحق فالكهنة طائفة مطهرة ، تسهر على دين هذه الأمة وآدابها وتقاليدها الخالدة ، أما الطمع فى السلطان فداء قديم .

فحدج الشاعر رامون حتب بنظرة تحد ، وكان مغرما بإثارة الزوابع ، وسأله فى اقتضاب :

— وخنوم حتب ؟

فهز هوف كتفيه استهانة وقال بهدوئه الغريب :

— هو كاهن كما يتبغى ، وسياسى نافع ، وليس من ينكر عليه قوة الإرادة ،

ونفاد البصرة .

وتحمل الحاكم آتى . وهز رأسه بشيء من العنف ، وقال :

— لم يثبت إلى الآن إخلاصه للعرش !

فقال رادوييس بحدة :

— بل أعلن غير ذلك !

ولم يكن الفيلسوف يوافقهما ، فقال :

— أنا أعرف خنوم حتب جيدا ، وهو بلا شك مخلص لمولاه ولوطنه .

فقال آتى بغرابة :

— لم يبق إلا أن تصرح بأن فرعون مخطئ ..

— كلا .. إن فرعون شاب سامى الآمال ، يرغب فى أن يكسو بلاده حلة من

البهاء ، ولن يأتى ذلك إلا بالاستعانة بجانب من موارد الكهنة .

فتساءل رامون حتب فى حيرة شديدة :

— فمن المخطئ إذا ؟!

فقال هوف :

— عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق !

ولكن رادوييس لم ترتح إلى تفسير الفيلسوف ، ولم ترض عن الموازنة التى

يجريها بين فرعون ووزيره ، كأنهما ندان . وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة ، وهى أن

فرعون سيد البلاد دون منازع ، وأنه لا تجوز مخالفته بأى حال ولأى سبب ،

ونفر قلبها من كل رأى يخالف عقيدتها هذه ، وصرحت برأىها لأصحابها ،

وختمت كلامها بقولها :

— إني أعجب متى آمنت بهذا الرأى ؟!

فقال رامون حتب مداعبا :

— حين وقعت عيناك على فرعون لأول مرة .. لا تفرطى فى العجب

فالجمال مقنع كالخق سواء بسواء .

وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع :
 — أدرن الكئوس أيتها الجوارى .. وهلمى أيتها الغانية رادوييس أسمعينا لحنا
 شجيا ، أو متعى أعيننا بحركة من الرقص الرشيق ، فإن نفوسنا التى أسكرتها خمر
 مريوط ، وهياها العيد للفرح والمسرة ، لتتوق إلى نشوة الطرب ولذعة المجون .
 فضربت عنه صفحا ، وأرادت أن تسترسل فى حديثها ، ولكن لاحت منها
 التفاتة إلى التاجر عانن ، فرأته كالنائم ، وكان منفردا بعيدا عن الجماعات
 فتذكرت أنها أطالت المكث فى حلقة آلى ، فانسحبت من بينهم وسارت إلى
 التاجر ، وصرخت فى وجهه : « اصبح » فانتبه الرجل فزعا ، ولكن سرعان ما
 أشرق وجهه لرؤيتها ، فجلست إلى جانبه وسألته :

— أكنت نائما ؟

— بل كنت أحلم .

— آه .. فيمن ؟

— فى ليالى بيحة السعيدة ، وكنت أسائل نفسى حيران ترى هل أفوز اليوم
 بإحدى هاتيك الليالى الخالدات ؟! أيمكن أن أظفر الآن بمجرد وعد ا
 فهزت رأسها أن لا ، فجزع ، وسألها بخوف وإشفاق :
 — ليه ؟

— قد تطلبك نفسى ، وقد تطلب غيرك ، فلم أقيدها بوعده خائن ؟!
 وتركنه إلى جماعة أخرى كانت منهمكة فى الحديث والشراب ، فرحبوا بها
 فيما يشبه الصياح ، وأحاطوا بها من كل جانب ، وقال واحد منهم يدعى
 شامة :

— ألا تشتركين معنا فى الحديث ؟

— وفيم تتحدثون ؟

— يتساءل بعضنا عما إذا كان الفنانون أهلا للتكريم الذى يحبوهم به الفراغنة

والوزراء .

— وهل أجمعتم على رأى ؟

— نعم يا مولاتي . على أنهم لا يستحقون شيئا .

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبال شيئا ، فنظرت رادوييس إلى حيث يجلس الفنانون : رامون حتب ، وهنفر ، وهنى ، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فاتن ساحر ، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنانين :

— ينبغي أن يكون هذا الحديث عاما ، ألا تسمعون أيها السادة ما يقال عنكم .. يقال هنا إن الفن عرض تافه ، وأن الفنانين غير أهل للتكريم .. فما رأيكم !؟

وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة ، أما الفنانون فقد نظروا إلى الجماعة التي تستهين بهم نظرة متعالية ، وابتسم هنفر ابتسامة هزء ، أما رامون حتب فاصفر وجهه غضبا ، لأنه كان شديد التأثر ، وكان شامة متعجبا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عال قائلا :

— إني رجل عمل وجد ، أضرب الأرض بيد من حديد ، فتذل وتبذل لى خيراتها من الأنعم السابغة ، فأفيد ويفيد معى الآلاف من المحتاجين ، كل هذا دون حاجة إلى قول موزون أو لون براق ..

وأدلى كل من الرجال بدلوه ، إما للتفيس عن حقد طال حفظه أو لمجرد الثرثرة والإعلان عن النفس ، فقال أحد الكبار يدعى رام :

— من الذى يحكم ويسوس الناس ؟.. من الذى يفتح البلدان ويغزو المعازل ؟.. من الذى يجلب الثروة والخيرات ؟.. أناس غير الفنانين بلا ريب .. وقال عانن وكان سريع التلية للخمر :

— إن الرجال يهيمنون بحب النساء ، ويهدون بذكرهن فى خلواتهن ، أما الشعراء فيسقطون هذيانهم فى كلام موزون ، وإلى هنا لا يجد المعازل ما يؤاخذهم عليه إلا أنهم يضيعون وقتهم فيما لا طائل تحته ، ولكن السخافة والحماقة أن يطلبوا لهذيانهم ثمنا من المجد والخلود .

وقال شامة مرة أخرى :

— ويكذب آخرون كذبا طويلا منظما ، ويهيمون في وديان بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام ، يزعمون أنهم رسل وحى كريم .. والأطفال تكذب كذبتهم ، وكثير من العامة ، ولكنهم لا يزعمون شيئا .

فضحكت رادوييس طويلا ، وانتقلت من مجلسها إلى قريب من هنفر ، وقالت هازقة :

— ويحك أيها الرجل .. لماذا إذا تسير مختالا فخورا كأنك بلغت الجبال طويلا ؟

فابتسم المثال ابتسامة صفراء ، ولكنه لازم الصمت كصاحبيه تعاليا منهم عن الرد على « المتهمجين بغير علم » ، وإن انطوى كل منهم على غضب شديد ، وكرهت رادوييس أن تنتهى المعركة عند ذاك ، فالتفت إلى الفيلسوف هموف . ووجهت إليه هذا السؤال :

— وما رأيك أنت أيها الفيلسوف فى الفن والفنانين ؟

— الفن هو ولعب ، والفنانون لاعبون مهرة .

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبتهم ، فلم يملك الحاكم آتى نفسه من الضحك . وتصايح التجار والملاك فرحين .

وصاح رامون حثب بغضب :

— أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جدا خالصة ؟

فهز الشيخ رأسه فى هدوء ، وقال والابتسامة لا تفارق شفثيه :

— كلا ، ما إلى هذا قصدت ، فاللعب ضرورة ، ولكن ينبغى أن تذكر أنه لعب .

فسأله هنفر بتحد :

— هل الإبداع الملهم لعب ؟

فقال الفيلسوف باستهانة :

— أنت تسميه الإلهام والإبداع ، أما أنا فأعلم أنه لعب الخيال .
ونظرت رادوبيس إلى المعمار هنى تحته على خوض المعركة ، وتحاول أن
تخرجه عن صمته الطبيعى . ولكن الرجل لم يلب إغراءها ، لا استهانة منه
بالموضوع الذى يثير النقاش ، ولكن اعتقادا منه — إن حقا كان أو وهما — أن
هوف لا يعنى ما يقول وأنه يداعب هنفر ورامون حتب — على الأخص —
بأسلوبه القاسى . أما الشاعر فاشتد به الغضب ، ونسى أنه فى قصر بيجة ، وسأل
الفيلسوف بلهجة حاقدة :

— إذا كان الفن لعب خيال ، فلماذا يكلف أهله ما لا طاقة لهم به ؟
— لأنه يتقاضاهم إغفال ما تعودوا عليه من الفكر والمنطق ، واللياذ بعالم
الطفولة والخيال !

فهز الشاعر كتفيه استهانة ، وقال :
— إن هذا الكلام لا يستحق الرد عليه ..
وأمن على قوله هنفر ، وابتسم هنى موافقا ، ولكن رامون حتب لم يستطع
صبرا ، ولم يطق غضبه السكوت . فجال بناظره فى الوجوه الساخرة ، وقال
بحدة :

— أليس يخلق الفن لكم لذة وجمالا ؟
فقال له عانن ، وهو لا يكاد يدرى ما يقول لأن الخمر كانت لعبت برأسه :
— ما أتفه هذا .

فاحتد الشاعر ، وترك زهرة اللوتس تقع من يده وقال فى عنف :
— ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معنى . أيجوز أن أذكر اللذة
والجمال ، فيقال لى إنها شىء تافه .. وهل توجد غاية فى الدنيا وراء الجمال
واللذة ؟!

وطرب هنفر لقول رفيقه ، وأخذته نشوة حماس ، فمال برأسه ناحية أذن
الغانية ، وقال :

(رادوبيس)

— صدق وحق جمالك يا رادوبيس ، إن الحياة تمضى كحلم سريع الزوال ، فأنا أذكر مثلاً أنى حزنتم لموت أى حزننا بالغاً وبكيتته مر البكاء ، ولكنى الآن إذا عاودتنى ذكره أسائل نفسى : أحقا عاش ذلك الإنسان على الأرض ؟ أم أنه وهم خادع يترأى لى فى غبش الظلام ١٢ . هكذا الحياة . فماذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا فيها من قوة ؟ وماذا نال العاملون مما أنتجوا من مال وثراء ؟ وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا . وما ساسوا ١٣ هباء فى هباء .. قد تكون القوة حماقة ، والحكمة خطأ ، والثروة غروراً . أما اللذة فهى لذة ، ولا يمكن أن تكون غير ذلك . فكل ما خلا الجمال باطل !

فبدا الجدل على وجه رادوبيس الفاتن ، وقالت له وقد لاحت فى عينها الأحلام :

— ومن يدريك يا هنفر ، فلعل الجمال واللذة من الأباطيل أيضاً ؟. ألا ترائى أمضى العمر فى دعة وانتهاج لذة ، وتلقى الحسن والجمال ؟. ومع هذا فكم يطاردنى الملل والسأم ..!

ووجدت رادوبيس أن رامون حتب فى حالة سيئة ، وطالعت الاستياء فى وجه هنفر ، وصمت هنى ، فأشفقت من إيلاهم ، وعدت نفسها مسئولة عما أصابهم ، فقالت تغير مجرى الحديث :

— حسبكم أيها السادة .. فمهما قلتم فلن تنفكوا تطلبون الفن والفنانين ، كم تحبون يا هؤلاء الخصام . إنكم لتجعلون السعادة نفسها موضوعاً للجدل والخصام ..!

ضاق الحاكم آنى بالحديث ذرعاً ، فقال لها بتوسل :

— اطردى الخصام بلحن من أغانيك السعيدة .

وكان الجميع يتوقون للسماع والطرب ، فضموا توسلاتهم إلى الحاكم ، ووافقت رادوبيس ، وكانت شبتت من الكلام ، واستولى عليها قلق غريب تردد عليها مرات فى يومها ، وظلت أن الغناء أو الرقص يزيله ، فقامت إلى

عرشها وأمرت بالعاذلات فجئن بالدفوف والقيثارة والنأى والونج والصفارة ووقطن وراءها صفا .

ثم أشارت بيدها العاجية ، فأخذن جميعا فى التوقيع الجميل والنقر الرشيق ، يهيهن لصوتها الرخيم جوا فاتنا من الموسيقى والطرب . ثم مضت تخفت أنغام آلاتهن حتى صارت كهمس العاشقين الداهلين ، وأنشأت رادوييس تغنى قصيدة رامون حتب :

يا من تسمعون إلى وعظ الحكماء ، أعيرونى آذانكم
لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم
الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر فى رأس الحالم
وقد شيعت ضحكا من وعدهم ووعيدهم ، فأين
الفراعنة ، أين الساسة ، أين الغزاة ، هل حقا
القبر عتبة الخلود ، ولكن لم يأت من القبر رسول
يطمئن قلوبنا ، فلا يفوتكم طرب ، ولا تفوتكم لذة !
لصوت الساق أبلغ حكمة من صراخ الواعظ !

أنشدت الغانية اللحن بصوت إلهى حنون ، أطلق الأرواح من قيود
الأجسام ، فهامت فى سماوات الجمال والسعادة ، وذهلت عن متاعب الأرض
وهيوم الدنيا . وشاركت فى التجلى الأعلى ، وظل القوم بعد إمساكها نشاوى
يتهدلون فرحا وحزنا ولذة وألما ..

وطرد الحب من صدورهم كل عاطفة إله ، فاستبقوا إلى الشراب ، وهدفوا
بأعينهم إلى الغانية تنتقل بين الجالسين ، وتداعبهم ، وتماجنهم ، وتشاربهم ، ولما
دنت من آتى همس فى أذنها :

— أسعدتك الأرباب يا رادوييس .. جئتك شبحا مثقلا بالتعبات وإخال
نفسى الآن طيرا يخلق فى السماء .

فابتسمت إليه وانتقلت إلى جانب رامون حتب ، وأهدته زهرة لوتس عوضا

عما فقد ، فقال لها :

— يقول هذا الشيخ إن الفن لعب خيال ، ألا سحقاً لرأيه .. إنه ومضة إلهية
تشع من عينيك ، وتدور مع وجيب قلبي ، ثم تأتي بالأعاجيب ..
فقلت له ضاحكة :

— أخرج مني شيء يأتي بالأعاجيب ، وأنا أعجز من الرضيع ؟
ثم هرعت إلى حيث يجلس هوف ، وجلست إلى جانبه ، ولم يكن ذاق خمرا ،
فمدجته بنظرة فاتنة ، فضحك الرجل ، وقال متهمكا :

— يا سوء ما اخترت جليسا .

— ألا تحبني كهؤلاء ؟

— ليتني أستطيع .. ولكني أجد فيك ما يجده المفلت في المدفأة .

— إذا انصحتني ماذا أصنع بحياتي لأني اليوم أشكو ؟

— أتشكين حقا .. أنعيم وثرأ وشكوى ؟

— كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم ؟

— الجميع يشكو يا رادوبيس ، طالما استمعت إلى شكاة الفقراء والبائسين
الذين يتلهفون على كسرة خبز ، وطالما استمعت إلى شكاة السادة وهم يئنون
تحت عبء التبعات الجسام ، وطالما استمعت إلى شكاة الأغنياء السادرين وقد
برموا بالدعة والسعادة فالجميع يشكو ، وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعي
بما قسم لك .

— وهل يشكو الناس في عالم أوزوريس ؟

فابتسم الشيخ وقال :

— آه .. إن صاحبك رامون حنّب يهزأ بهذا العالم الخطير . أما الكهنة العالمون
فيقولون إنه عالم الأبدية ، فصبرا أيتها الحسنة ، إنك ما زلت قليلة التجارب .
فعاودتها موجة المجون والسخرية ، وأرادت أن تداعب الفيلسوف ، فقالت
بلهجة جدية منصّعة :

— أحقا أنى قليلة التجارب .. إنك لم تر مما رأيت شيئا ؟

— وماذا رأيت مما لم أر ؟

فأشارت بينانها إلى القوم اللاهين وقالت ضاحكة :

— رأيت هؤلاء الرجال المبرزين ، وصفوة مصر سيدة الدنيا ، يسجدون عند قدمي ، وقد ردوا إلى الوحشية ، ونسوا حكمتهم ووقارهم ، كأنهم كلاب أو كأنهم قردة !

ثم ضحكت ضحكة رقيقة ، وجرت في خفة الغزلان إلى وسط البهو ، وأشارت إلى العازفات فلعبت أناملهن بالأوتار ، ورقصت الغانية رقصة من رقصاتها المختارة التي يبدع فيها جسمها اللدن ، ويأتى بالمعجز من الخفة والتشي ، وغلب الطرب القوم على أنفسهم ، فاشتركوا بكفهم مع الدفوف ، واتقدت في الأعين أنوار خاطفة ، وختمت رقصتها ، ثم طارت كالحمامة إلى عرشها ، وجالت بعينها في أوجه القوم الجشعة ، فرأت ما أضحكها قهرا ، وقالت :

— لكأني بين الذئاب .

وأعجب عانن الشمل بالتشبيه ، وتمنى لو كان ذئبا ليقتنص الشاة الجميلة ، وحققت له الخمر ما تمنى ، وظن نفسه ذئبا حقا ، فعوى بصوت عال ضج له السادة ضحكا ، ولكنه ثابر على العواء ، وانكب على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم العاصف ، حتى صار منها على قيد شبر ، ثم قال لها :

— اجعلي هذه الليلة من نصيبي ..

ولكنها لم ترد عليه ، والتفتت إلى الحاكم آتى ، وقد جاء يحياها تحية الوداع ، فأعطته يدها ، ثم تلاه الفيلسوف هوف ، وقد سأله ضاحكة :

— ألا ترغب في أن أجعل هذه الليلة من نصيبك ؟

فهز رأسه ضاحكا وقال :

— أيسر على أن أسخر مع الأسرى في مناجم فقط !

ورجا كل أن تكون الليلة له ، وألحف في الرجاء ، وتنافسوا في ذلك تنافسا

شديدا حتى حرج الأمر . وانبرى هنفر لإيجاد حل له فقال :
 — ليكتب كل منكم اسمه في ورقة ، ولنضع الأسماء جميعا في صندوق عائن
 العاجي ، ثم تمد رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظ ..
 واضطر الجميع إلى الموافقة وبادروا إلى كتابة أسمائهم ، إلا عائن خشى أن
 تفلت الليلة من بين يديه فقال بهتضرع :

— مولاتي .. أنا رجل سفر ، اليوم بين يديك ، وغدا في بلد بعيد لا أبلغه إلا
 بشق الأنفس ، وإن فاتتني الليلة فقد أخسرها إلى الأبد ..
 ولكن أثار دفاعه ثائرة القوم ، وردوا عليه هازئين . وكانت رادوبيس صامنة
 .. تشاهد عشاقها بعينين جامدتين ، وقد عاودها القلق الغريب ، فأحست برغبة
 في الفرار والانفراد . وضجرت من الصراخ ، فأشارت لهم بيدها فكلموا وهم بين
 الأمل والخوف ، فقالت :

— لا تتبعوا أنفسكم أيها السادة ، فلن أكون الليلة لإنسان !
 وجمدت أفواههم ونظروا إليها منكرين ، لا يصدقون أذانهم ، ثم لم يلبثوا أن
 ضجوا بالاحتجاج ، وجأروا بالشكوى . فوجدت ألا فائدة ترجى من توجيه
 الكلام إليهم ، فقامت واقفة ، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم وقالت :
 — إلى تعبتي .. دعوني أستريح ! ..

ولوحث لهم بيدها البضة وولتهم ظهرها ، وغادرت المكان على عجل ..
 وصعدت إلى مخدعها مسرورة لما فعلت ، سعيدة بخلاصها تلك الليلة ، وما
 تزال تظن بأذنيها تأوهات القوم الحارة .. وشخصت إلى النافذة رأسا وأزاحت
 عنها الستارة ، ونظرت إلى الطريق المظلم ، فرأت على البعد أشباح عجلات
 وهوادج تحمل النشاوى البائين بالحسرة والحذلان ، فلذ لها منظرهم وارتسمت
 على شفيتها ابتسامة ساخرة قاسية .

كيف فعلت ما فعلت ؟ .. لا تدري ! ولكنها تشعر باضطراب وقلق ..
 واما .. ماذا وراء هذه الحياة الراتبة ؟ لقد حاووا الجواب ، ولم يرو غلتها

الحكيم هوف نفسه ، ثم استلقت على سريرها الوثير ، واستسلمت للأحلام ،
فمرت بصفحة خيالها حوادث اليوم العجيبة واحدة في إثر الأخرى : فرأت
جموع المصريين المحتشدة .. ورأت عيني الساحرة المتقدتين اللتين جذبتاها إليها
بقوة قاهرة ، وسمعت صوتها البشع الذى يبعث الرعدة فى المفاصل .. ثم
شاهدت فرعون الشاب فى حالة المجد والجمال ، ثم ذلك النسر الهصور الذى
انقض على فردة صندلها وطار بها إلى السماء . حقا كان يوما حافلا . ولعل هذا
أيقظ عواطفها ، وشرد خيالها ، ووزع نفسها أشتاتا ، مما ذهب ضحية له
العشاق البائسون ، إن قلبها يخفق خفقانا شديدا ، ونفسها تضطرم بلهيب
غامض ، وخيالها يتيه بها فى وديان غريبة . وكأنها تود أن تنتقل من حال إلى
حال ، ولكن أى حال هذه ؟ إنها حيرى لا تدرى شيئا ، فهل يكون ما بها نفثة
سحر أصابتها بها تلك الساحرة الملعونة ؟
إن ما بها لسحرا مبيئا ، فإن لم يكن سحر ساحر ، فهو سحر الأقدار المسيطرة
على المصائر .

طاهو

كانت قلقة مبلبله موزعة النفس ، فيعست من النوم . وغادرت السرير مرة أخرى ، ودلفت إلى نافذة تطل على الحديقة ، وفتحتها على مصراعها ووقفت وراءها كاتمثال ، ثم حلت عقدة شعرها ، فانساب في خصلات مرتعشة على عنقها ومنكبيها ، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق ، وملأت رثتها بهواء الليل الرطب ، ثم وضعت مرفقيها على حافة النافذة ، وأسندت ذقنها إلى كفها . وتاهت عيناها في الفضاء الشامل للحديقة . والنيل الجارى وراءها . كانت ليلة ظلماء معتدلة الجو ، يهب نسيمها متقطعا خفيفا ضعيفا فيراقص الغصون والأوراق رقصار حيمارقيقا ، وكان النيل يرى عن بعد كقطعة من الظلماء . أما السماء فمزدانة بالنجوم اللوامع ، ترسل شعاعا باهتا ما أن يقترب من الأرض حتى يغرق في بحار الظلمة .

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقيها على رأسها القلق ظلا من السكينة والطمأنينة ؟ . هيات .. وبلغ بها اليأس من الطمأنينة منتهاه ، فأتت بوسادة ووضعتها على حافة النافذة ، وأسلمت إليها خدها الأيمن ، وأغمضت عينيها .

وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف : « فالجميع يشكو ، وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعى بما قسم لك » . وتهدت من أعماق قلبها ، وتساءلت في حزن . أما من فائدة ترجى من التغيير حقا ؟ .. أحقا أن الشكوى تلاحق الإنسان أبدا ؟ .. ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بهذا إيمانا صادقا يصرف قلبها عن طلب التغيير ؟ إن ما بقلبها ثورة جامحة ، تود لو تدمر بها حاضرها وماضيها ، وتفر خالصة إلى آفاق غامضة مجهولة . فكيف تجد الراحة والقناعة ؟

إنها تحلم بحالة تبطل فيها الشكوى ، ولكنها جزعة برمة بكل شيء .
ولم تترك لأفكارها وأحلامها ، إذ سمعت طرقا خفيفا على باب مخدعها ،
فأرهفت أذنيها دهشة ، ونادت قائلة وهي ترفع رأسها :

— من ؟

فأجاب صوت تعرفه حق المعرفة :

— أنا يا مولاتي .. أسمحين لى بالدخول ؟.

فقالت :

— تعالى يا شيث ..

ودخلت الجارية على أطراف أصابعها ، ودهشت لوقوف سيدتها ، وأن
سريها لم يمس ، وعاجلتها الغانية قائلة :

— ماذا وراءك يا شيث ؟

— ورأى رجل ينتظر الإذن بالدخول .

فقطبت جبينها ، وقالت بصوت ينطوى على الغضب :

— أى رجل .. اطرديه دون تردد .

— كيف يا مولاتي .. إنه رجل لا يغلق دونه باب هذا القصر .

— طاهو .

— هو بعينه .

— وما الذى جاء به فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

فلاحت فى عيني الجارية نظرة مأكرة ، وقالت :

— هذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتي .

فأشارت لها بيدها أن تدعوه ، وغابت الجارية ، لحظات ، ثم لم يلبث أن ملأ
فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض . وحياها بانحناء من رأسه ووقف
أمامها ينظر إلى وجهها بارتباك . ولم يخف عليها شحوب لونه ، وتجعد جبينه ،
وظلمة عينيه ، فأنكرته ، وسارت إلى الديوان ، وجلست عليه وسأته :

— ٥٨ —

— أراك متعبا .. هل أجهدك العمل ؟

فهرز رأسه بالنفى ، وقال باقتضاب :

— كلا .

— لست كعهدي بك .

— حقا ! .

— لا شك أنك تعلم هذا .. ماذا بك ؟

هو يعلم كل شيء بلا ريب ، وستعلمه بعد حين سواء أداها إليها بنفسه أم لم يؤده . وهو يشفق من الإقدام على الكلام لأنه يغامر بسعادته ، ويخشى أن تفلت من يده إلى الأبد . ولو أنه كان يستطيع أن يتسلط على إرادتها لكان كل شيء ، ولكنه يكاد أن يئأس من هذا ، فاستولى عليه ألم ممض وقال لها :

— آه يا رادوييس ! لو كنت تبادليني الحب لأمكن أن أتوسل إليك باسم حبنا .

ترى ما حاجته إلى التوسل ؟ .. عهدا به رجلا عنيها يكره التوسل والرجاء ، وطالما قنع بفتنة جسمها ، فما الذى أفرعه ؟! . وخفضت عينيها وقالت :

— هذا حديث قديم معاد .

فأغضبه قولها على صدقه ، واحتد قائلا :

— أعلم ذلك .. ولكننى أعيده لدواع حاضرة .. آه .. لكأن قلبك غار

أجوف فى قاع نهر بارد ..

كانت ألقت أمثال هذا المقال ، ولكنها قالت متململة :

— هل منعك شيئا تشتهي ؟

— كلا يا رادوييس . لقد وهبتى جسمك الفاتن الذى خلق عذابا للبشر .

ولكن طالما طمعت فى قلبك . ياله من قلب يا رادوييس .. إنه يقف وسط زوابع الشهوات جامدا كأنه ليس منك ، ولطالما ساءلت نفسى متحيرا مغیظا ، ماذا

يعينى ؟. ألسـت رجـلا هـل أنا رجـولة كامـلة . والحقيـقة أنك بدون قلب ..
وازداد إنكارها له ، ليست هذه المرة الأولى التى تسمع فيها هذا الكلام ؛
ولكنه كان يقوله ساخرا أو غاضبا غضبا خفيفا .. أما فى هذه الساعة المتأخرة من
الليل ، فإنه يتكلم بصوت متهدج ويتميز غيظا وحنقا . فما الذى أهاجه ؟
وكأنها أرادت أن تستحـثه فسألته :

— أجهت فى هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد على أذى هذا الحديث ؟
— كلا لم أجيء من أجل هذا الحديث .. ولكننى جئت من أجل أمر
خطير .. إن لم يسعـفنى الحب فيه ، فلتسـعـفنى حريـتك التى تحرصين عليها .
فـنظرت إليه فى اهتمام شديد ، وانتظرت أن يتكلم ، وبلغ به الضيق أشده ،
فـعزم على أن يخلص إلى غرضه بلا لف ولا دوران ، فقال لها بهدوء وحزم وهو
يصوب عينيه إلى عينيها :

— ينبغى أن تهجـرى قصر يـبـجة ، وأن تفرى من الجزيرة فرارا فى أقرب
وقت .. قبل أن ينبـلج الصـباح .

فارتاعت المرأة لقوله ، ونظرت إليه بعينين لا تصدقانه وسألته :

— ما هذا الذى تقوله يا طاهو ؟

— أقول إنه ينبغى أن تخـتـفى .. أو تفقـدى حريـتك .

— وماذا يهدد حريتى فى يـبـجة ؟

فأصر على أسنانه ، وسألها بدوره :

— ألم تفقـدى شيـئا ثـمينا ؟

فـقالت داهـشة :

— بلى . فقـدت فرـدة صـنـدى الذهبى الذى أهـديتـه .

— كيف ؟.

— خـطفـه النـسر وأنا أسـتـحم فى بـركة الحـديـقة .. ولكنى لا أدري أى علاقة

توجد بين حريتى المهـددة وصـنـدى المـفقـود ؟

— مهلا يا رادوبيس .. لقد خطفه النسر حقا ، ولكن ألا تدرين أين سقط ؟

وجدته يتكلم بلهجة العارف ، فاستولى عليها العجب وتمتعت قائلة :
— من أين لى بهذا يا طاهو ؟
فتنهده قائلا :

— سقط فى حجر فرعون .

وقرعت هذه الكلمة أذنيها فى هالة من دوى هائل ، ملأ حواسها جميعا ، وأذهلها عن كل شيء . فنظرت إلى طاهو بعينين حائرتين ، ولم تستطع أن تخرج عن صمتها ، وكان القائد يتفرس وجهها بعينين قلقتين مرتابتين ، ويتساءل : ترى ما وقع الخبر فى نفسها ؟ وما الإحساس الذى يعتلج فى صدرها ؟ وضاق ذرعا . فسألها بصوت خافت :

— ألم أكن محقا فى طلبى ؟

ولكنها لم ترد عليه ، ولم يبد عليها أنها كانت تصغى إليه . كانت غارقة فى لجج تلتطم فى قلبها الحائر ، فهاله جمودها ، وكبرت عليه حيرتها ، ورأى فى ذلك آية نفر منها قلبه ، فذهب صبره ، واستنفره الغضب ، فغشى بصره ، وصاح بها بصوت أجش شديد :

— فى أى واد تنهين يا هذه ؟ .. ألم يفزعك هذا الخبر الهائل ؟

فارتجف جسمها من شدة صوته .. والتهب الغضب بقلبها ، وحدجته بنظرة حقد شديدة ، ولكنها كظمت ما بنفسها لتحصل منه على ما يريد ، وسألته ببرود :

— أترى أنه كذلك ؟

— أرى أنك تتغايين يا رادوبيس .

— كم أنك ظالم .. هب أن الصندل سقط فى حجر فرعون ، فهل تراه قاتلى لذلك ؟

— كلا ، ولكنه قلب الصندل بين يديه ، وتساءل عمن عسى أن تكون صاحبه ؟

فخفق قلب الغائبة بشدة وسألته :

— وهل وجد الجواب ؟

فأظلمت عيناه ، وقال بصوت متهدج :

— كان هناك إنسان بتريص لى ، جعلته الأقدار صديقا عدوا وعدوا صديقا ، فانهز الفرصة السانحة ، وطعننى طعنة نجلاء ، فذكرك عند فرعون ذكرا جميلا مغريا ، قدح الرغبة فى قلبه ، وأهاج الشهوة فى صدره .

— سوف خائب لى ؟

— هو بعينه ذاك الصديق العدو ، وقد عبث الإغراء بقلب الملك الشاب .

— وماذا يريد ؟

فعمد طاهو ذراعيه على صدره ، وقال بشدة :

— ليس فرعون بالإنسان الذى يرغب فى شىء ، ويعز عليه ، وهو إذا هوى شيئا يعرف كيف يستأثر به .

وساد الصمت مرة أخرى ، ووقعت المرأة فريسة عواطف مضطربة ، وجثم الكابوس على صدر الرجل ، واشتد به الخنق لصمتها ، ولأنها لم تفزع ولم ترتعب ، فقال لها بغیظ :

— ألا ترين أن حريتك مهددة بالأسر ؟ حريتك يا رادوبيس التى تحرصين عليها ، ولا تفترطين فيها . حريتك التى دمرت قلوبا وأهلكت نفوسا ، وجعلت اللوعة والحسرة واليأس أويئة تفتك بأهل بيعة جميعا ، لماذا لا تفزعين إلى الفرار بها ؟

واستاءت لوصفه هذا لحريتها ، وقالت له بسخط :

— أتقذفنى بهذا الوصف الذى تقشعر منه الأبدان ، وكل ذنبى أنى لم أستبح نفسى للرياء ، وأقول لإنسان كذبا إلى أحبه ؟

— ولماذا لا تحبين يا رادوييس ؟ لقد أحب طاهو الجندى الجبار الذى خاض غمار الحرب فى الجنوب والشمال ، وترى على ظهور العجلات . فلماذا لا تحبين أنت ١٢..

فابتسمت ابتسامة غامضة ، وتساءلت :

— ترى هل أملك جوابا على سؤالك ؟

— لست أبالى هذا الآن ، فما لهذا جئت .. أسألك ماذا أنت فاعلة ؟.

فقالته بهدوء ، واستسلام عجيب :

— لست أدرى .

فاضطربت عيناه كجمرتين ، والتمتهاها بحنى ، وأحس برغبة جنونية فى تحطيم رأسها . وحدث أن نظرت إليه فتنفس تنفسا عميقا ، وقال :

— حسبك أشد حماسا لحريتك .

— وما عسى أن أفعل ؟

فضرب يدا بيد ، وقال :

— تفرين يا رادوييس ! تفرين قبل أن تحملى إلى قصر الحاكم جارية من الجوارى ، وتودعين حجرة من حجراته التى لا عداد لها ، ثم تعيشين هنالك فى وحدة وعبودية ، تنتظرين نوبتك مرة كل عام ، تعيشين ما بقى من حياتك فى جنة حزينة يطوف بها سجن كتيب .. هل خلقت رادوييس لمثل هذه الحياة ١٢ واثارت ثأرتها غضبا لكرامتها وكبرائها . ترى من الممكن أن يكون حظها ونصيبها مثل هذه الحياة البائسة ؟

أيقدر لها فى النهاية — هى التى يستبق إلى رضاها صفوة الرجال — أن تقاسم الجوارى قلب فرعون الشاب ، وأن تقنع من الدنيا بحجرة فى الحرم الفرعونى ؟ أنهوى إلى الظلمات بعد النور ، وتلفع بالهوان بعد العزة ، وتقنع بالعبودية بعد السيادة الجبارة الكاملة ؟.. أواه .. ما أبشع التصور وأغرب الخيال .. ولكن هل تفر كما يريد طاهو ؟.. أترضى بالفرار ؟. رادوييس المعبودة التى لم يحظ بحسنها

وجه ، ولم يشحن بسحرها جسم ، تفر من العبودية ؟ .. فمن إذا التي تطمع في
السيادة والاستئثار بالقلوب ؟!

ودنا منها خطوة ، وقال لها بتوسل :

— رادوييس .. ماذا تقولين ؟

فاعاودها الغضب ، وقالت بسخرية :

— ألا يسوءك أيها القائد أن تغريني بالهرب من وجه مولاك ؟

وأصابتها سخرتها في صميم قلبه ، فترنخ من هول الصدمة ، وقال بسرعة ،
وقد أحس بمראה في فمه :

— لم يرك مولاي بعد يارادوييس . أما أنا فمسلوب القلب منذ أمد بعيد . أنا
أسير لهوى جامع لا يعرف الرحمة ، يوردني موارد الهلاك ، ويطوئني بقدم الذل
والعذاب ، إن صدرى أتون من عذاب ملتهب ، وقد اشتد لهيبه اندلاعا حين
أشفق من فقدك إلى الأبد . فأنا إن أغريتك بالهرب أدافع عن حبي ، ولا أخون
مولاي المعبود قط .

لم تلق بالآ إلى شكواه ، ولا إلى دفاعه عن إخلاصه لمولاه ، كانت ما تزال تتور
لكبريائها ، ولذلك حين سأها الرجل عما تنوى عمله ، هزت رأسها بعنف كأنما
تريد أن تنفض عنها الوسوس الحقة وقالت بصوت بارد مليء بالثقة :

— لن أفر يا طاهو .

وسهم الرجل في ذهول ويأس ، وسأها :

— هل رضيت بالهوان وأسلمت للذل ؟

فقال ، وعلى فمها ابتسامة :

— لن تذوق رادوييس الذل أبدا .

فاستشاط غضبا ، وقال :

— آه لقد فهمت . تحرك شيطانك القديم ، شيطان الغرور والكبر والقوة ،
ذلك الشيطان يحتمى ببرودة قلبك الأبدية ، ويلتذ بمشاهدة عذاب الآخرين

والتحكم فى المصائر ، لقد لاح له اسم فرعون فتمرد ، وأراد أن يجرب قوته وسطوته ، ويمتحن سلطان هذا الجمال اللعين ، غير عائق بما يدوس فى سبيله الشيطانى من أشلاء القلوب ، وذوب النفوس ، وأنقاض الآمال .. آه .. لماذا لا أقضى على هذا الشر بطعنة من هذا الخنجر ؟

فنظرت إليه بعين مطمئنة ، وقالت :

— لم أمنعك شيئاً ، وطالما حذرتك من الإغراء !

— إن هذا الخنجر كفيل بتهدة نفسى .. كم تكون نهايه طبيعىة

لرادويس ؟

فقالته بهدوء :

— وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنى طاهو !

فنظر إليها طويلا بعينين جامدتين ، وكان يشعر فى تلك اللحظة الفاصلة بياس مميت وقنوط خائق ، ولكن غضبه لم ينفجر ، وقال بلهجة باردة قاسية :

— ما أقبحك يارادويس .. أنت صورة بشعة مشوهة ، ومن يحسبك جميلة أعمى لا يبصر . إن صورتك قبيحة لأنها صورة ميتة ، ولا جمال بلا حياة ، لم تنبض الحياة بصدرك قط ، ولم تدق قلبك أبدا . أنت جثة وسيمة القسمات ، ولكنها جثة . لم يد الحنان فى عينيك ، ولا انفرجت شفتاك عن ألم ، ولا خفق قلبك بالعطف . نظرتك جامدة وقلبك قد من ححر .. أنت جثة ملعونة ، وينبغى أن أكرهك ، وأن أكرهك ما حييت .. وأنا أعلم أنك ستطغين كيف شاء لك شيطانك ، ولكنك ستصرعين يوما محطمة النفس ، وهذه نهاية كل شر .. لماذا أقتلك إذا .. لماذا أحمل تبعة قتل جثة ميتة ؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ثم ذهب .

ولبث رادويس تنصت إلى وقع قدميه الثقيلتين ، حتى غمرها سكون الليل ..

— ٦٥ —

ثم رجعت إلى النافذة . كان الظلام شاملا ، والنجوم ساهرة في مأدبتها
الأبدية ، والسكون مخيما رهيبا ، فخالته أنها تستطيع أن تسمع خلجات قلبها
الدفينة .
كان ما بها قويا عنيفا بالحرارة والقلق ، يقسم أن جسمها جسم نابض
بالحياة ، لا جثة هامدة ..

(رادوييس)

فرعون

وفتحت عينها فرأت ظلمة . ترى أما يزال الليل جائئا ، وكم ساعة استطاعت أن تغلد فيها إلى السكينة والنوم ؟. ولبت دقائق لا تعي شيئا مطلقا ولا تذكر شيئا ، كأنها جهلت الماضي كما تجهل المستقبل ، وكأنما ابتلعت شخصيتها ظلمة الليل الحالكة . وأحست هنيئة بذهول وضيق ، ثم ألقت عينها الظلمة فبهتت ونخفت وطأتها ، واستطاعت أن ترى ضوءا خفيفا يشع من خصائص النوافذ فتبينت أثاث المخدع ، ورأت المصباح المدلى المكفت بالذهب ، وولج الشعور حواسها ، فذكرت أنها ظلت يقظة لا يذوق جفניה نوم حتى غمرها الفجر بموجه الأزرق الهادئ ، وأنها ارتمت عند ذاك على السرير ، فاختلسها النوم من عواطفها وأفكارها ، وعلى ذلك تكون في نهار اليوم الثاني ، أو في مساءه .

وذكرت حوادث الليلة الماضية ، وعادت إلى مخيلتها صورة طاهو وهو يرغى ويزيد ، ويئن من اليأس ويتوعد بالمقت ، ياله من رجل عفيف ! إنه لرجل جبار شديد الغضب ، وحشى الغرام ، ولا عيب فيه إلا أن حبه عنيد مثابر ، شديد التغلغل . وتمنت صادقة لو ينساها أو يمقتها ، إنها لا تجنى من الحب سوى المشقة . الكل يتلهف على قلبها ، وقلبا زاهدا نافر ، كحيوان غير أليف . وكم اضطرت إلى خوض مواقف مؤثرة ومآسى أليمة ، وهى كارهة . ولكن المآسى كانت تتبعها كظلها ، وتحوم حولها كخواطرها ، فلوئت حياتها بالقسوة والآلام .

ثم ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشاب من أنه يرغب في رؤية صاحبة الصندل ، وأنه سيدعوها حتما إلى حريمه العامر .. آه .. إن فرعون شاب ملتهب الدماء ، جنونى الشباب . كما قيل لها ، فليس عجيبا أن يقول طاهو ما قال ، ولا مستحيلا أن تصدق أقواله ، ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرى جديدا ، إن

- ثقتها بنفسها لا حد لها .
- وسمعت طرقا على الباب ، فقالت بصوت متكاسل :
- شيث .. ادخلى .
- وفتحت الجارية الباب ، ودخلت تسير فى خفتها المعهودة وهى تقول :
- حمدا للرب الذى يسر لك النوم بعد طول السهاد .
- وارحمته لك يا مولاتى ، لا بد أن الجوع نال منك كل منال .
- وفتحت النافذة ، فانبعث منها نور مكلل بسمرة ، وقالت ضاحكة :
- غابت شمس اليوم دون أن تراك ، فباعت من زيارتها للأرض بالخسران .
- وسألتها رادوييس وهى تتمطى وتشاءب :
- أأتى المساء ؟.
- نعم يا مولاتى ، والآن هل تذهين إلى الماء المعطر أم تتناولين الطعام ؟..
- وأسفاه أنا أعلم بما سهد جفنيك بالأمس !
- فسألته باهتمام :
- ما هو يا شيث ؟
- إنك لم تدفنى الفراش برجل :
- خسعت يا مأكرة .
- فقالت الجارية وهى تغمز بعينها :
- الرجال عادة مستبدة يا مولاتى ، ولولا هذا ما احتملت غرورهم .
- حسبك ثرثرة يا شيث .
- وشكت من ثقل رأسها ، فقالت لها الجارية :
- هلمى بنا إلى الحمام .. فالعشاق يتقاطرون على بهو الاستقبال ، ويؤلمهم
- أن يروه خاليا منك .
- هل جاعوا حقا ؟.
- وهل خلا بهو استقبالك منهم قط فى هذه الساعة ؟

— لن أرى منهم أحدا .

فبهتت شيث ، ونظرت إلى سيدتها بارتياح ، وبالت .

— خيبت بالأمس آمالهم .. فماذا نقولن اليوم ؟ .. آه . لو تعلمين يا مولاتى كم جزعوا لتأخر حضورك .

— آذنيهم بأى تعة .

وترددت الجارية ، وهمت بالاعتراض ، ولكنها صاحت بها بعنف :

— اصدعى بما أمرت .

فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدري بما غير مولاتها .

وارتاحت الغانية لما فعلت ، وقالت إن هذا ليس وقتهم ، فهى لا تستطيع أن تجمع شتيت أفكارها لتصفى إلى إنسان ، ولا أن تنحصر خواطرها فى حديث فضلا عن أن ترقص أو تغنى .. فليذهبوا جميعا .. وخشيت أن تعود شيث بتوسلات القوم ، فقامت من السرير وهولت إلى الحمام ..

وتساءلت فى وحدتها : ترى هل يرسل فرعون فى طلبها هذا المساء ؟ آه أهى لهذا تضطرب وتقلق ؟ أهى تخشى ؟ كلا .. إن هذا الحسن الذى لم تحظ بمثله امرأة من قبل حقيق بأن يملأها ثقة بنفسها لا حد لها ، وإنما لكذلك .. ولن يقاوم جمالها إنسان ، ولن يذل حسننها مخلوق ، ولو كان فرعون نفسه ، ولكن لماذا إذا هى مضطربة قلقة ! لقد عاودها ذاك الشعور الغريب الذى تلبسها مساء الأمس ، والذى نبض بقلبها أول ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشاب الواقف على ظهر عجلته كالتمثال . يا عجباً .. أتراها حائرة لأنها حيال لغز غامض ! واسم جبار هائل ! ورب معبود !، أترى أنها تود لو تراه فى نشوة البشر بعد أن رآته فى جلال الآلهة ؟ ! أتراها قلقة لأنها تريد أن تطمئن إلى قوتها بإزاء هذا الحصن النيع !.

وطرقت شيث باب الحمام ، وقالت إن السيد عانن أرسل معها كتابا إلى مولاتها ، فغضبت الغانية ، وقالت بعنف « مزقه إربا » ، وخشيت الجارية أن

تثير غضب مولاتها عليها ، فذهبت تتعثر في الارتباك . وغادرت رادوييس الحمام إلى مخدعها في أجمل صورة وأكمل هيئة ، وتناولت الطعام وشربت كأساً مترعة من خمر مربوط . ولم تكد تطمئن إلى الديوان حتى دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان ، فقلقتها بنظرة تحذير ووعيد ، وقالت الجارية في خوف :
— في البهو رجل غريب يلح في مقابلتك .

فاستولى الغضب على الغانية ، وصاحت بها :
— هل أصابك مس من الجنون يا شيث ؟ أتخالفين أولئك القوم المزعجين على ؟!

فقال الجارية وهي تلهث :
— صبرا يا مولاتي .. لقد دفعت الزوار جميعا ، أما هذا الرجل فغريب لم تره عيني من قبل .. التقيت بغته به في الردهة المؤدية إلى البهو ، ولا أدري من أين أتى .. وحاولت أن أعترض سبيله ، ولكنه سار بغير مبالاة ، وأمرني أن أبلغك رجاءه .

فسهمت الغانية إلى الجارية هنيئة ، وسألته باهتمام :
— هل هو من ضباط الحرس الفرعوني ؟
— كلا يا سيدتي .. إنه لا يرتدى زي الضباط .. وقد سألته أن يعلن لي عن شخصيته ، فhez منكبيه باستخفاف ، فأكدت له أنك لا تقابلين أحدا اليوم .. ولكنه استهان بكلامي ، وأمرني أن آذنك بانتظاره .. أو اه يا مولاتي .. إني أحرص على رضاك ، ولكني لم أجد وسيلة إلى دفع هذا الثقل الجريء .
وتساءلت أليكون هو رسول الملك ؟ وخفق قلبها لهذه الفكرة خفقة شديدة ارتج لها صدرها .. وجرت إلى المرأة ، وألقت على صورتها نظرة فاحصة ، ثم دارت دورة كاملة على أطراف أصابعها ووجهها ثابت في المرأة ، وسألت الجارية :

— ماذا ترين يا شيث ؟

فقلت الجارية ، وهى تدهش لتبدل حال مولاتها :

— أرى رادوبيس يا مولاتى !

وغادرت الغانية المخدع ، تاركة جاريتهما فى دهشتها وحيرتها ، وانتقلت
كالحمامة من حجرة إلى حجرة ، ثم هبطت أدراج السلم المفروشة بفاحر
السجاد ، وتريث قليلا عند مدخل البهو .. رأت رجلا يوليها ظهره ، ووجهه إلى
جدار البهو يطالع شعرا لرامون حتب .. ترى من هو ؟ كان فى مثل طول طاهو
ولكنه أميل إلى التحافة والدقة ، عريض المنكبين ، جميل الساقين ، على ظهره
وشاح مرصع بالجواهر يصل ما بين منكببيه ومنطقة وزرته ، وعلى رأسه قلنسوة
جميلة ذات شكل هرمى لا تشبه قلنسوات الكهنة ، ترى من يكون ؟ إنه لا
يشعر بها لأنها تتقدم بخفة على سجاد غليظ .. ولما صارت منه على قيد خطوات
قالت بصوت خفيض :

— سيدى !

فالتفت الرجل الغريب إليها .

رباه ! وجدت نفسها وجها لوجه أمام فرعون . فرعون نفسه بعزته
وجلاله ، مرنع الثانى دون غيره من الخلق !
رباه لقد زعزعت المفاجأة كيائها ، فأخذت قهرا ، وغلبت على أمرها . ترى
أهى فى حلم من الأحلام ! ولكنها تعرف حق المعرفة هذا الوجه الأسمر ، والأنف
الأشم الطويل . إنها لا يمكن أن تنساه أبدا ، لقد رأته مرتين ، فنفذ إلى ذاكرتها
بقوة ، وحفر صفحتها حفرا عميقا لا يزول . ولكنها لم تحسب حساب هذا
اللقاء ، ولا أخذت أهبتها له ، لم ترسم له خطة من خططها البارعة . وهل كانت
رادوبيس تلقى فرعون لقاء ارنجاليا ، وهى التى تعد العدة للقاء تجار النوبة ١٩ .
أخذت على غرة ، فقهرت قهرا ! ومنيت بالهزيمة الساحقة ، ويادرت تنحنى
لأول مرة فى حياتها ، وتقول بصوت متهدج : « مولاي » .
وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة ، فتستقر على وجهها الجميل ، وكان

يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذة غريبة ، ويشاهد السحر الذى تنفثه قسماها بنشوة فاتنة ، فلما حितه قال لها بصوته ذى النبرات الواضحة واللهجة العالية :

— أتعرفيننى ؟

فقال بصوتها العذب الموسيقى :

— نعم يا مولاي .. هكذا شاء حظى السعيد أمس .

وكان لا يشبع من النظر إلى وجهها . وأخذ يحس بتخدير عام يعتور حواسه وعقله ، فلم يعد يأبه لإرادته ، واندفع قائلاً :

— إن الملوك قوامون على الناس ، يسهرون على أرواحهم ، وعلى أموالمهم ، ولهذا جئت إليك لأرد لك أمانة ثمينة .

ولم يبال الملك أن يدس يده تحت وشاحه ، فيخرج فردة الصندل ويقدمها لها وهو يقول :

— أليس هذا صندلك ؟

وتبعت عيناها يد فرعون ، وشاهدت فردة الصندل تبرز من تحت وشاحه بعينين مرتاعتين لا تكادان تصدقان مما تريان شيئاً ، وتمتمت بانفعال شديد :

— صندلى !

فضحك الملك ضحكة عذبة ، وقال وعيناه لا تتحولان عنها :

— بعينه يا رادوبيس ، أليس هذا اسمك ؟

فأحنت رأسها ، وتمتمت قائلة « نعم يا مولاي » وكانت مضطربة فلم تزد ، أما الملك فاستدرك :

— إنه لصندل جميل ، وأعجب ما فيه هذه الصورة المنقوشة على باطنه ، وكنت أحسها زخرفاً جميلاً حتى وقعت عليك عيناى ، فعلمت أنها حقيقة رهيبة ، وعلمت حقيقة أجل ، وهى أن الجمال كالقضاء يباغت الإنسان بما لا يقع له فى حسابان .

فشبكت كفها ، وقالت :

— مولای .. ما كنت أحلم قط أن تشرف قصرى بذاتك ، أما أن تحمل صندلى .. رباه ماذا أقول ؟.. لقد فقدت جنانى . غفرانك يا مولای ! ويحى نسيت نفسى يا مولای ، وتركتك واقفا .
وهرعت إلى عرشها وأشارت إليه ، ثم انحنت باحترام . ولكنه اختار ديوانا وثيرا ، وجلس عليه ، وقال لها :

— ادنى منى يا رادوييس . اجلسى ها هنا ..

فدنت الغانية حتى سارت على بعد قريب ، ووقفت تغالب اضطرابها وذوولها . فأجلسها بيده ، وأمسك بمعصمها — وكانت أول لمسة — وأجلسها إلى جانبه .. وكان قلبها يخفق بشدة ، فوضعت الصندل جانبا ، وخفضت عينها ، ونسيت أنها رادوييس المعبودة ، التى تعبت بالقلوب والرجال كيف شاء لها العبت . غلبتها المفاجأة ، وهز نفسها الشخص المعبود ، كأنه ضوء متوهج سلط على عينها بغتة ، فانكششت كعذراء تتصدى لرجلها أول مرة .. إلا أن جماها الرائع خاض المعركة — بغير علم منها — ثابت الجنان ، عظيم الثقة ، وسلط شعاعه السحرى على عيني الملك الداهشتين كما تسلط الشمس شعاعها الفضى على نائم النبت ، فيصحو ويرف رفيقا فاتنا . كان جمال رادوييس قاهرا نفاذا ، يحرق من يدنو منه ، ويعت في نفسه الجنون ، ويملا صدره برغبة لا تروى ولا تشبع ..

كانا فى تلك الليلة الخالدة — رادوييس المتعثرة فى ارتباكها والملك التائه فى الحسن — أحوج بشرين إلى رحمة الآلهة .

وأحب الملك أن يسمع صوتها فسألها :

— كيف لا تسأليننى عن وقوع صندلك بين يدى ؟

فساورها القلق ، وقالت :

— نسيت أمورا أجل يا مولای .

فايتسم وسألها :

— كيف ضاع منك ؟

وهدأت رقة صوته من انفعالها ، فقالت :

— خطفه النسر ، وأنا أستحم .

وتهدد الملك ورفع رأسه كأنه ينظر إلى تهاويل السقف ، وأغمض عينيه يتخيل ذلك المنظر الفاتن ، إذ رادوييس تلعب في الماء بجسمها العارى ، والنسر يهوى من عل فيخطف صندلها . وسمعت الغانية رفيف أنفاسه ، وأحست بها تلفح خدها ، وعاد إلى النظر إلى وجهها ، وقال بوجد :

— خطفه النسر وطار به إلى . يا للقصة الفاتنة ! . ولكنى أتساءل منكرا :

أكنت أحرم من رؤيتك لو لم يقيض إلى الرب هذا النسر الكريم ؟ .. يا له من فرض محزن ! ومع هذا فإني أحس في أعماقي بأنه كبر على النسر ألا أعرفك وأنت على قيد ذراع منى ، فرماني بالصندل لأنتبه من غفلتى .

فقالبت كالدهشة :

— هل رمى النسر بالصندل بين يديك يا مولاي ؟

— نعم يا رادوييس .. هذه هي القصة الفاتنة .

— يا لها من مصادفة كالسحر !

— أتقولين مصادفة يا رادوييس .. وما المصادفة ؟ .. إنها قضاء مقنع ! .

فتنهدت وقالت :

— صدقت يا مولاي .. إنها كالعقل المتغاي .

— سأعلن رغبتى على الملأ ألا يعرض إنسان من شعبي لنسر بسوء ! .

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة ، ومضت في ثغرها كتمويذة سحرية .

وأحس الملك بهيام يملك قلبه ، ولم يكن من عادته أن يقاوم عاطفة فاستسلم في وجد بين ، وقال وهو يتنهد :

— إنه هو المخلوق الوحيد الذى أدين له بأتمن ما فى حياتى .. رادوييس ! كم

أنت جميلة ! هذا حسن يزرى بأحلامى جميعا .

وسرت المرأة لقوله ، كأنها تسمعه لأول مرة في حياتها ، فرنت إليه بنظرة صافية حلوة زادته هياما ، فقال وكأنه يضرع ويشكو :

— كأن سوطا تشتعل به النيران يلهب قلبي .

ثم أدنى وجهه من وجهها المشرق ، وهمس :

— رادوبيس .. أريد أن أنغمر في أنفاسك .

فبسطت له وجهها ، وأسبلت جفניה . وجعل يهوى بوجهه حتى مس أنفه أنفها الرقيق ، وداعب أهدابها الطويلة بأنامله ، وسها إلى عينيها السوداوين حتى صارت الدنيا ظلاما ، وأذهله الهوى ، فاستولى عليه تخدير ساحر ، حتى تنبه على تنهدا العميق ، فاعتدل قليلا ، وهمس في أذنها قائلا :

— رادوبيس ! إلى أقرأ أحيانا مصيرى ، سيكون الجنون منذ الساعة

شعارى .

وأسندت رأسها إلى كفها لإعياء ، وكان قلبها يخفق ، فجلسا ساعة صامتتين يسعد كلاهما بحديث نفسه ، وما يحدث — وهو لا يدرى — إلا صاحبه ، وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة ، وقالت له :

— هلا اتبعتنى يا مولاي لتشاهد قصرى ؟

كانت دعوة سعيدة .. ولكنها ذكرت به أمور كاد أن ينساها ، فوجد نفسه مضطرا إلى الاعتذار .. وما يضره لو أجل اللقاء ساعة . والقصر وما فيه ملك يمينه .. فقال بأسف :

— ليس الليلة يا رادوبيس .

ونظرت إليه بإنكار ، وسألته :

— ولم يا مولاي ؟

— هناك قوم ينتظروننى منذ ساعات في القصر .

— أى قوم يا مولاي ؟

فضحك الملك ، وقال باستهانة :

— كان ينبغي أن أكون مجتمعا برئيس الوزراء الآن ، والحق يا رادوبيس أنتى منذ حادثة النسر فريسة للعمل الشاق ، وكنت أبيت نية زيارة قصر ك ، ولكن لا أجد فرصة مؤاتية ، ولما رأيت هذا المساء يكاد يلحق بالذى سبقه . أجلت اجتماعا هاما ريثما أشاهد صاحبة الصندل الذهبى .

واستولت الدهشة على رادوبيس ، وتمتعت قائلة « مولاي » . وكانت تعجب من استهتاره الذى دفعه إلى تأجيل اجتماع هام من الاجتماعات التى تهرم فيها مصائر المملكة ، لكى يشاهد امرأة شغل قلبه بها ساعة .. ووجدت عمله جميلا ساحرا لا نظير له بين أعمال العشاق ولا شعر الشعراء .

أما الملك فقام بدوره وقال لها :

— أنا ذاهب الآن يا رادوبيس .. واما .. إن القصر خائق .. إنه سجن مسور بالتقاليد ، ولكننى أرق منها مروق السهم .. سأترك الآن وجهها حبيبا لألقى وجهها بغیضا ، فهل رأيت أغرب من هذا ؟ .. إلى الغد يا رادوبيس الحبيبة . بل إلى الأبد .

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب بروعته ، وشبابه ، جنونه .

الحب

ارتد بصرها عن الباب الذى غيبه ، فقالت وهى تنهد : « ذهب .. » ، ولكنه فى الحقيقة لم يذهب ، لو كان ذهب حقاً لما استولى عليها ذلك التخدير الغريب الذى جعلها بين النوم واليقظة ، تذكر وتحلم ، والصورتما أمام مخيلتها فى نزاحم وتسابق وجنون .

حق لها أن تسعد ، لأنها بلغت منتهى المجد ، وتسمنت ذروة البهاء وتذوقت من آى العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض . زارها فرعون بذاته المعبودة وسحرته بأنفاسها الزكية ، وصاح بين يديها أن سوطاً من اللهب يلهب قلبه الفتى ، فتوجت بهيامه ملكة على عرشى المجد والجمال . وحق لها أن تسعد .. على أنها كانت تسعد سعادة المجد ! . ومال رأسها قليلاً ، فوقع بصرها على فردة الصندل فخفق قلبها وأدنت رأسها حتى مست شفتائها فارسة ..

ولم تنفرد بأحلامها طويلاً إذ دخلت شيث . وقالت :
— مولانى .. أتتوئين أن تنامى هنا ؟

ولم ترد عليها .. وحملت الصندل ، وقامت فى كسل وسارت تهادى صوب مخدعها . وتشجعت شيث بسكرتها ، فقالت بلهجة حزينة :

— وأأسفاه يا مولاتى .. إن هذا البهو الجميل الذى ألف الطرب واللهو ، يقفر الليلة لأول مرة من السمار والعشاق .. ولعله يتحير مثلى سائلاً : « أين الغناء ؟ أين الرقص ؟ أين الحب .. هـى مشيتك يا مولاتى .. » .

ولم تبالها الغائبة ، وصعدت أدراج السلم فى صمت وسكون ، فظنت شيث أن حديثها ظفر باهتمام سيدتها ، فقالت بحماس :

— لشد ما وجها وأسفوا لما آذنتهم باعتذارك .. وتبادلوا نظرات الحسرة

والحزن العميق ، وتراجعوا في ثقل يسحبون وراءهم ذيول اليأس .
ولازمت المرأة الصمت ، ودخلت إلى مخدعها الجميل ، وهرعت إلى مرآتها
وألقت نظرة على صورتها ، ثم ابتسمت بارتياح وغبطة وقالت لنفسها : « إذا
كان ما حدث الليلة معجزة ، فهذه الصورة معجزة أيضا » وغمرتها نشوة
سعادة ، فالتفتت إلى شيث وسألتها :

— من حسبت الرجل الذى جاء لمقابلتى ؟
— من هو يا مولاتى ؟. إننى لم أراه قبل اليوم . هو شاب غريب ، ولكن لا
جدال أنه من النبلاء ، مليح رهيب جسور ، يندفع كالريح مجلجلا ، ولقدميه وقع
شديد ، ولصوته هبة الأمر ، ولولا خوفى لقلت : إنه لا يخلو من ..
— من ماذا ؟.

— من جنون ..
— حذار ..
— مولاتى .. مهما يكن ثراؤه فلا يمكن أن يرجح العشاق جميعا الذين
طردتهم اليوم .

— حاذرى أن تندمى حيث لا ينفع الندم .
فقال شيث داهشة :
— هل يفوق غناه القائد طاهو أو الحاكم آتى ؟
فقال بزهو :

— إنه فرعون يا حمقاء ..
وحملت المرأة في وجه مولاتها . وتدلّت شفتها السفلى ، ولم تنطق .
فقال الغانية ضاحكة :

— هو فرعون يا شيث .. فرعون ، فرعون بذاته دون سواه ، إياك
والثرثرة .. اذهبى الآن ، اغرى عن وجهى . فإنى أريد أن أخلو بنفسى ..
وأغلقت الباب ودلفت إلى النافذة المطلة على الحديقة ، وكان الليل جثم في

مجشمه وأرخی على الكون جناحيه ، وبدت طلائع النجوم فى كبد السماء ،
 وأنوار المصابيح المعلقة بأغصان الأشجار فى الحديقة ، وتبدى الليل فاتنا ،
 فتذوقت جماله وأحسست لأول مرة بأن انفرادها فيه عذب ، بل أعذب من
 اجتماعها بالعشاق جميعا .. وأصغت فى سكونه إلى ذات نفسها وهمسات قلبها ..
 وبعثت الذكريات ، فرجع خيالها إلى عهد منطو بعيد ، خفق فيه قلبها خفقة
 طائشة ، قبل أن تتوج ملكة للقلوب على عرش بيجة ، وتغدو للأنفس قضاء لا
 يرد . كانت ريفية حسناء ، برزت من بين أوراق الريف المخضلة ، كما تبرز
 الوردة الياض ، وكان نوتيا عذب الصوت نحاسى الساقين ، ولا تذكر أنها
 سلمت لإنسان بداعى قلبها سواه ، وشهدت شواطئ بيجة مشهدا لم تسعد بمثله
 فى الأرض . ودعاها إلى سفينة قلبت دعاءه ، وحملتها الأمواج من بيجة إلى أقصى
 الجنوب ، وانقطعت من يومها صلاتها بالريف وأهلها جميعا . واختفى النوى
 من حياتها فجأة ، ولم تدر إن كان ضل ، أو فر ، أو مات ، ووجدت نفسها
 وحيدة . كلاً لم تكن وحيدة ، كان معها جمالها فلم تتشرد ، والتقطها كهل ذو
 لحية طويلة ، وقلب ضعيف . وطابت لها الحياة وأثرت بموته ، وتوهج نورها
 فخطف الأبصار ، فانجذبوا إليها كالفراش المجنون ، وألقوا تحت قدميها
 الصغيرتين قلوبا فتية ، وأموالا لا تعد ، وبايعوها ملكة للقلوب فى قصر بيجة ،
 فكانت رادوبيس .. يا للذكريات !

كيف مات قلبها بعد ذلك ؟ .. هل أماته الحزن ، أم الغرور ، أم المجد ؟ ..
 كانت تصغى إلى حديث الحب بأذن صماء ، وقلب مغلق ، فكان منتهى ما
 يطمع فيه عاشق مدله مثل طاهر أن تهبه جسدها البارد .
 استسلمت للذكريات طويلا ، وكأنما استدعتها لتربطها بأعجب أيام
 حياتها ، وأسعد أيامها !

ومضى الوقت وهى لا تحس به إن كانت كانت ساعات أم دقائق ، حتى انتهت على
 وقع أقدام ، فالتفت منزعة ، فرأت بابها يفتح ، ودخلت شيث لاهثة

وقالت :

— مولاي .. إنه يتبعني .. ها هو ذا .

ورأته يدخل مطمئنا كأنه يدخل مخدعه الخاص ، فغمرتها دهشة ممزوجة
بفرح وصاحت :

— مولاي ..

وانسلت شيث خارجا ، وأغلقت الباب ، وألقى الملك نظرة على المخدع
الجميل ، وقال ضاحكا :

— هل أطلب المغفرة لتهجى هذا ؟.

فابتسمت ابتسامة سعيدة ، وقالت :

— المخدع وصاحبه لك يا مولاي .

فضحك ضحكته الفاتنة . كانت ضحكة رنانة فتية تنبض بالحياة الدافقة ،
وأمسك بمرققها ، وسار بها إلى الديوان وأجلسها ، وجلس إلى جانبها ، وقال :

— كنت أخشى أن يسبقنى النوم إليك .

— النوم .. النوم لا يهتدى إلى أمثال هذه الليلة ، يحسبها من فرط نور السعادة

نهارا .

فتبدى الجدد على وجهه وقال :

— إذا احترقنا معا ..

لم تحس بهذه السعادة من قبل ، ولم تعهد قلبها في مثل هذه اللحظة والحياة ، ولم
تشعر بلذة الاستسلام إلا أمام هذا الإنسان البديع ، فقد صدق ، إنها تحترق ،
ولكنها لم تقل شيئا ، وقنعت بأن رفعت إليه عينين ناطقتين يجرى فيهما الصفاء
والمودة .. ثم قالت :

— لم يدر بخلدى أنك تعود هذه الليلة ..

— ولا دار لى بخلد ، ولكنى رأيت الاجتماع ثقيلا مرهقا ، وأعياني تركيز

فكرى ، واستخفنى الجزع ، وعرض على الرجل مراسيم كثيرة ، فأمضيت

عددا يسيرا ، وأصغيت إليه بعقل مشنت ، ثم ضقت بكل شيء ذرعا ، فقلت له إلى الغد ، ولم أكن أفكر في العودة ، ولكنى رغبت في أن أخلو بنفسى للحديث والمناجاة .. فلما خلوت إلى نفسى وجدت الوحدة ثقيلة ، والليل موحشا لا يحتمل . هنالك لمت نفسى قائلا : لماذا أصبر إلى الغد ؟ .. وليس من عادتي أن أقاوم عاطفة ، فما عمت أن وجدتني ها هنا بين يديك ..

يا لها من عادة سعيدة .. إنها تجنني أشهى ثمارها ، وتحس جواره بفرح عجيب .. وكان يضطرب حياة ونشوة ، فقال :

— رادوييس .. ما أجمل هذا الاسم ، فإن له وقع الموسيقى في أذني ومعنى الحب في قلبي . وهذا الحب شيء عجب ، كيف يصرع رجلا تعم ليااليه الحسان من كل لون وطعم ؟ .. إنه حقا عجيب ، ترى ما هو هذا الحب ؟ إنه قلق معذب يسكن في قلبي ، وأنشودة إلهية ترتل في أسمى مكان من روحي . إنه حنين موجه — إنه أنت . أنت حالة في كل آية من آيات الدنيا والنفس ، انظري إلى هيكل هذا الشديد ، إنه يشعر بالحاجة إليك شعور الغريق بالحاجة إلى التنفس والهواء .. إنها تبادل هذا الشعور ، وتحس بصدقه ، فقد تكلم ليصف قلبا ، فوصف قلبين ، إنها تسمع مثله الأنشودة الإلهية ، وتشاهد صورته في آيات الدنيا والنفس ، وكان جفناها يثقلان بالأحلام والنشوة ، فما عتم أن تماست أهدابهما ، فسألها برقة :

— لماذا لا تتكلمين يا رادوييس ؟

وفتحت عينيها الجميلتين ، ونظرت إليه بوجد وحنان ، وقالت :

— ما حاجتي إلى الكلام يا مولاي ؟ . فطالما كان الكلام يتدفق على لساني ، قلبي ميت ، أما الآن ، فقلبي يبعث حيا ، ويمتص كلامك كما تمتص الأرض حرارة الشمس ، وتحيا بها .

فابتسم إليها سعيدا ، وقال :

— اختطفني هذا الحب من وسط دنيا عامرة بالنساء .

- فقلت وهى تبادل له الابتسام :
- واختطفنى من وسط دنيا عامرة بالرجال .
- كنت أتحبط فى دنياى كالحائر ، وأنت منى على بعد ذراع ، وأأسفاه ..
- كان ينبغى أن أعرفك من أعوام .
- كان كلاتنا ينتظر النسر ليسفر بيننا .
- فشد على قبضة يده بحماس ، وقال :
- نعم يا رادويس ، كانت الأقدار تنتظر ظهور النسر بأفقنا لتسطر فى لوحها أجمل قصة حب ، وما أشك فى أنه كبر على النسر أن يؤخر حبنا لأجل بعيد ، وما ينبغى لنا بعد اليوم أن نفرق . فأجمل ما فى الدنيا أن نرى معا .
- فتهدت من أعماق قلبها ، وقالت :
- نعم يا مولاي ، فلا ينبغى أن نفرق بعد اليوم ، وهاك صدرى حقلًا ناضرا ارتع فيه أنى شئت .
- فبسط كفها بين يديه ، وضغط عليها بحنو ، وقال :
- تعالى إلى يا رادويس ، ليخلق هذا القصر على الماضى الغادر ، فلإى أحس بأن كل يوم ضاع من حياتى قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوبت إلى سعادتى .
- كانت كالخمورة ، ولكن ساورها القلق ، فسأته :
- أيريدنى مولاي على أن أنتقل إلى حريمه ؟
- فهرز رأسه قائلا :
- ستزلين بأعز مكان به ..
- فخفضت عينها ووجعت ، ولم تدر ما تقول فأنكر سكوتها ، ووضع أنامل يمينه تحت ذقنها الصغير ، ورفع وجهها إليه وسألها :
- مالك ؟
- فسأته بعد تردد :
- أأمر هو يا مولاي ؟ .

فانقبض صدره لذكر الأمر ، وقال :

— أمر ؟.. كلا يا رادوييس ، إن لغة الأمر لا تجدى مع الحب ، وإنى ما تمنيت قبل اليوم لو أجرد من شخصيتى !.. وأعود واحدا من البشر يشق طريقه بلا عون ، ويلقى حظه بغير محابة ، أنسى فرعون مليا ، وأخبرينى ألا ترغبين فى اللحاق بى ؟

وخشيت أن يسيء فهم وجومها وتردها ، فقالت بلهجة صادقة :

— أرغب فيك يا مولاي رغبتى فى الحياة ، بل الحقيقة أجمل من هذا . الحقيقة أنى لم أحب الحياة حبا صادقا إلا منذ أحببتك ، وأن قيمتها فى نظرى أنها تشعرنى بحبك ، وتسعد حواسى بوجودك ، أليس للمحبين غريزة تصدقهم القول ؟.. سلها عن قلب رادوييس يا مولاي تعد على أذنك ما جرى على لسانى ، ولكنى أتساءل حيرى : لماذا أغلق أبوابه إلى الأبد ؟.. إنه أنا بالذات يا مولاي ، فينبغى أن تحبه كما تحببى . لا يوجد فيه موضع يخلو من أثر لى ، إما صورق أو اسمى أو تمثال لى . كيف لى بهجره وقد هبط فيه النسر الذى طار إليك برسالة الحب الخالدة ؟.. كيف لى بهجره وقد خفق قلبى فيه بالحب لأول مرة ؟.. كيف لى بهجره يا مولاي وقد زرتنى فيه بذاتك العالية ؟.. حرى بأى مكان تطؤه قدماك أن يصير — كقلبى — لك وحدك ، ولا يغلق أبوابه أبدا .. كان يصغنى إليها بحواسه المرفهة ، وقلبه المشبوب الجامح ، فتؤمن نفسه بكل كلمة من كلماتها . ثم لمس بجنو جدائل شعرها الفاحم ، واحتواها بين ذراعيه ، وطبع على شفتيها قبلة رطبت برحيق عذب ، وقال لها :

— رادوييس .. أيتها الحب الممتزج بروحى .. لن يغلق هذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته ، سيقبى ما بقينا مهذا للحب ، وجنة للهوى ، وحديقة ناضرة تغرس فيها بذور الذكريات ، سأجعل منه محرابا للحب ، وأصير أرضه وجدرانه ذهباً مصفى .

فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة ، وقالت تناجيه :

— ٨٣ —

— لتكن مشيقتك يا مولاي ، وإنى أقسم بحبي لأذهبن الغداة إلى معبد الرب
سوتيس ، وأغسل جسدي بالزيت المقدس ، لأرحض نفسي من الماضي
الشقي ، وأعود إلى المحراب بقلب طاهر جديد كزهرة تشق الأكام وتتصدى
لشعاع الشمس .

فوضع يدها على قلبه ، ونظر إلى عينيها وقال :
— رادوبيس أنا اليوم سعيد ، وأشهد الدنيا والآلهة على سعادتي ، حياتي
وحسبي بها من حياة .. انظري إلي ، فسواد عينيك أشهى لقلبي من نور
الدنيا ..

في تلك الليلة نامت جزيرة بيجة ، وسهر الحب بقصرها الأبيض ، حتى
انحسر في ظلمة الليل الحالكة عن زرقة الفجر الحاملة ..

ظل الحب

استيقظت في الضحى ، وكان الجو حارا ، والشمس ترسل أشعتها المتوهجة ، فبث في الدنيا نورا ونارا ، وكان قميصها الرقيق يلتصق بجسدها اللدن ، وشعرها مبعثرا ، منه خصلات نائمة على صدرها ، وخصلات ملقاة على الوسادة .

طوى ليقظة تهيج في القلب أجمل الذكريات .. كان قلبها مرتعا للغبطة ، والجو من حولها معطرا بأريج الأزهار ، والدنيا تبسم عن السعادة والأفراح ، فأحست لتجدد مشاعرها كأنما تكشف عالما جديدا جميلا ، أو كأنها تبعث خلقا جديدا ..

ومالت في نومتها إلى جانبها ، ولاحت منها نظرة إلى الوسادة ، فرأت آثار رأسه عليها واضحا ، فاستل من عينيها متهى العطف والحنان ، وأدنت رأسها منه ولثمته ، وقد تمتعت بفرح : ما أجمل كل شيء .. وما أسعدنى بكل شيء .. ثم جلست في فراشها هنيهة وغادرته — كما كانت تغادره كل صباح — نشطة مرحة كملحة بارعة في نفس عامرة بالفكاهة ، واستحمت بالماء البارد ، وتعطرت بماء الزهر ، وارتدت ثيابها المبخرة ثم عادت إلى مائدة الطعام ، وتناولت إفطارها المكون من بيض وفطير ، وشربت كوبا من اللبن الحليب ، وكأسا من الجعة ..

واستقلت سفيتها إلى آبو ، وقصدت إلى معبد الرب سوتيس ، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع ، ونفس مفعمة بالرجاء والأمل ، وطافت بأرجائه ، وتبركت بجدراناه وعمده ذات النقوش المقدسة ، وأودعت صندوق النذور ما جادت به يداها ، وزارت حجرة الكاهنة الكبرى ، وسألته أن تغسلها بالزيت

المقدس لتطهرها من شوائب الحياة وأحزانها ، وترحض قلبها من الغنى والعنى .
وقد أحست ، وهى بين يدى الكاهنات المطهرات ، أنها تودع بلا رحمة قبر الفناء
جسد رادويس الغانية اللعوب ، التى كانت تعبت بالرجال وتهلك النفوس ،
وترقص على أشلاء الضحايا ، وذوب القلوب ، وأن دما جديدا يجرى فى
عروقها ، فينبض فى قلبها وحواسها الطمأنينة ، والسعادة ، والطهر ، ثم صلت
صلاة حارة ، جاثية على ركبتها مغرورة العينين ، وضربت فى الختام إلى الرب
أن يبارك حبها وحياتها الجديدة . وعادت إلى قصرها من فرط سعادتها كأنها طائر
يرف بجناحيه فى سماء صافية ، واستقبلتها شيث فرحة مثقلة ، تكاد تطير من
الفرح ، وقالت :

— مبارك هذا اليوم السعيد يا مولاتى . ألا تعلمين من أتى قصرنا فى
غيتك ..

فخفق قلبها باضطراب فرح ، وصاحت :

— من ؟ ..

فقال الجارية :

— أتى رجال من أمهر الصناعات بمصر مبعوثين من قبل فرعون ، فشاهدوا
الحجرات والأرواق والردهات ، وقاسوا ارتفاع النوافذ والجلران تمهيدا لصنع
أثاث جديد .

— حقا ..

— نعم يا مولاتى ، وسيغدو هذا القصر عما قليل أعجوبة الزمان ، فيألفها من
صفقة رابحة ! ..

وتحيرت رادويس فيما تعنيه المرأة ، ثم خطر لها خاطر ، فقطبت جبينها
وسألتها :

— أى صفقة تعنين يا شيث ؟

فغمرت المرأة بعينها ، وقالت :

— ٨٦ —

— صفقة الغرام الجديد ، وحق الأرباب إن مولاي ليزن أمة من الأغنياء ،
ولن آسف بعد اليوم على ضياع تجار منف وقواد الجنوب ..

وغضبت رادوبيس حتى تخضب وجهها بالاحمرار ، وصاحت بها :
— خست يا امرأة .. أنا لا أنجر الآن ..

— ويل لي .. لو كانت لدى شجاعة يا مولاتي لسألتك عما تفعلين إذا ؟
فتنهدت رادوبيس وقالت :

— أمسكى عن هذرك ، ألا ترين أنى أجد فى الأمر جدا ؟.

فحملت الجارية فى وجه مولاتها الجميل ، وصمتت دقيقة ثم قالت :
— باركتك الآلهة يا مولاتي .. إلى حائرة وأسائل نفسى : لماذا تجد مولاتي
جدا ؟..

فتنهدت رادوبيس مرة أخرى ، واستلقت على الديوان الوثير ، وقالت
بصوت خافت :

— أحبيت يا شيث ..

فضربت الجارية على صدرها بيدها ، وقالت بفزع ودهشة :
— أحبيت يا مولاتي !..

— نعم أحبيت ، مالك تدهشين ؟

— معذرة يا مولاتي ، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجرى لك على لسان من
قبل .. فكيف جاء ؟

فابتسمت رادوبيس وقالت كالحاملة :

— ما الداعى إلى العجب ؟ امرأة تحب ، يا لها من حقيقة مبتذلة .

فأشارت المرأة إلى قلب مولاتها ، وقالت :

— أما هنا فلا ، عهدى به حصنا منيعا ، فكيف أخذ ؟.. ألا بالله قولى لي ..

وبدت فى عينيها الأحلام ، وبعثت الذكرى فى نفسها شعورا فياضا ، فقالت

بصوت كالمس :

— أحبيت يا شيث ، والحب شيء عجب ، في أى دقيقة من الزمان طرق
الحب قلبي ؟ كيف تسلل إلى أعماق نفسي ؟ لا علم لى بذلك ، وإنه ليحيرنى
حيرة شديدة ، ولكنى عرفت الحقيقة بقلبي ، لقد خفق بشدة وعنف ، خفق
لرؤية وجهه ، وخفق لسماع صوته ، وما كان عهدى به أن يخفق لشيء من هذا ،
فوسوس لى صوت خفى بأن هذا الرجل صاحب هذا القلب دون منازع ،
فغمرنى إحساس قوى عنيف عذب ألیم ، وشعرت شعورا وثابا بأنه ينبغي أن
يكون لى كقلبي ، وأن أكون له كنفسه ، ولم أعد أتصور أن تطيب حياة ، ويلذ
وجود بغير هذا الامتزاز ..

فقال شيث لاهثة :

— يا للحيرة يا مولاتى ..

— نعم يا شيث ، طالما تمتعت بالحرية المطلقة ، كنت أتخذ مجلسى على ربوة
عالية وأسرح ناظرى فى عالم واسع غريب ، وأسامر عشرات الرجال ، وأتذوق
متع الأحاديث ، وأتملى آيات الفن ، وألغو بالمجون والغناء ، ولكن كان يرين على
صدرى سأم لا شفاء له ، وتغشى نفسى وحشة لا طمأنينة معها . الآن يا شيث
ضاققت أمالى ، وانحصرت فى رجل واحد هو مولائى ، وهو دنياى . ولكن دبت
حياة دافقة طردت من طريق حياتى السأم والوحشة ، وأفاضت عليه نورا
وبهجة ، فقدت نفسى فى الدنيا الواسعة ، ووجدتها فى رجلى الحبيب .. أرايت
ما هو الحب يا شيث ؟

فهزت الجارية رأسها فى حيرة ، وقالت :

— يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتى .. ولعله أعذب من الحياة
نفسها ! وإنى أسائل نفسى عما أحس به من الحب ، إن الحب كالجوع ، والرجل
كالطعام .. وإنى أحب من الرجال قدر ما أحب من الأطعمة دون حيرة ..
وحسبى هذا ..

فضحكت رادوييس ضحكة رقيقة كرنين الوتر ، ثم قامت واقفة ، وذهبت

إلى شرفة تطل على الحديقة ، وأمرت شيث أن تأتى لها بقيثارة ، فأحست برغبة إلى اللعب بالأوتار والغناء ، كيف لا والدنيا جميعا تنشد لحنا بهيجا .. وغابت شيث برهة ، ثم عادت حاملة القيثارة ، وأسلمتها بين يدي مولاتها ، وهى تقول :

— هل يزعجك أن تؤجلى اللهو إلى حين ؟
فسألتها ببساطة ، وهى تتناول القيثارة :
— وله ؟ ..

طلب إلى أحد العبيد أن أخبرك بأن إنسانا يطلب الإذن بمقابلتك .
فلاح الاستياء على وجهها ، وسألها بحفاء :
— ألا يعرف من هو ؟ ..

— يقول إنه .. يزعم أنه مرسل من قبل الرسام هنفر .
وتذكرت ما قاله لها الرسام هنفر أول أمس عن تلميذ أنابه عن نفسه لزخرفة الحجر الصيفية ، فقالت لشيث :
— إيتى به إلى ..

وأحست بمضايقة واستياء ، وأمسكت القيثارة بحدة ، ولعبت أناملها بالأوتار فى خفة وغضب ، لعبا لا وحدة بين أجزائه .
وعادت شيث يسير على أثرها شاب حديث العمر ، وقد أحنى رأسه فى إجلال ، وقال بصوت رقيق :
— أسعد الرب يومك يا سيدتى ..

فوضعت القيثارة جانبا ونظرت إليه من خلال أهدابها الطويلة ؛ كان غلاما معتدل القامة ، نحيف القد ، أسمر الوجه ، حسن القسمات ، واسع العينين إلى درجة تلفت النظر ، تلوح فيهما آى الصفاء والسذاجة . فأخبطتها حدائة سنه ، وصفاء عينيه ، وتساءلت متعجبة : هل يستطيع حقا أن يتم عمل المثال العظيم هنفر ؟ وقد أحست بارتياح إلى رؤيته ، أذهب عنها موجة الاستياء التى

اجتاحتها ، وسألته :

— أنت تلميذ المثال هنفر الذى اختارك لزخرفة الحجرة الصيفية ؟
فقال الشاب بارتباك ظاهر ، وكان بصره يتردد بين وجه رادوييس وأرض
الشرقة :

— نعم يا سيدتى .

— حسن ، وما اسمك ؟ ..

— بنامون .. بنامون بن بسار .

— بنامون .. كم تبلغ من العمر يا بنامون ، فأنى أراك صغيرا ؟ .

فتورد خدها وقال :

— أبلغ الثامنة عشرة فى مسرى القادم .

— أراك تبالغ فى التقدير .

فقال الشاب بإخلاص :

— كلا يا سيدتى إن ما أقول هو الحق .

— يا لك من طفل يا بامون ..

واختلجت عيناه الواسعتان العسليتان قلقا ، وكأنه خشى أن تعرض عنه
لخدائته سه . وقرأت مخاوفه ، فقالت مبتسمة :

— لا تقلق فأنى أعلم أن هبة المثال فى يده لا فى عمره .

فقال بحماس :

— لقد شهد لى أستاذى الفنان الكبير هنفر .

— هل سبق أن قمت بعمل هام ؟

— نعم يا سيدتى ، زخرفت جانبا من الحجرة الصيفية بقصر السيد آنى حاكم
بيجة .

فقالت :

— أنت طفل نابغ يا بنامون .

فتورد خداه ، ولعت عيناه بنور الفرح ، وغمرته سعادة دافقة ، ونادت رادوبيس شيث ، وأمرتها أن تذهب به إلى الحجرة الصيفية .. وتردد الشاب قليلا قبل أن يتبع الجارية ، وقال :

— ينبغي أن تفرغى لى كل يوم .. فى أى وقت تشائين .

فقال :

— لقد ألفت نفسى أمثال هذه الواجبات .. هل تنحت لى صورة كاملة ؟

— أو نصفية ، وربما اكتفيت بتصوير الوجه ، وعلى أية حال هذا يتبع الصورة العامة للزخرف .

قال ذلك ، وأحنى رأسه ، وسار على أثر شيث ، وذكرت المرأة المثال هنفر ، وقالت لنفسها فى سخرية : هل كان يدور له بخلد ، أن القصر الذى سألها أن تفتحه لتلميذه سيحرم عليه هو دخوله ؟ ..

وأحست بارتياح إلى الأثر الذى تركه الشاب الساذج فى نفسها ، ولعله أثار فى قلبها عاطفة جديدة لم تدب بها الحياة من قبل ، هى عاطفة الأمومة .. وسرعان ما أشفقت عليه من عينها وسحرهما الذى لم ينج منه إنسان ، ودعت الرب مخلصه أن يحفظ له طمأننته وصفاءه ، ويجعله بمنجاة من دواعى الألم واليأس ..

بنامون

وبرا بوعدها قصدت لدى ضحى اليوم الثانى إلى الحجرة الصيفية بالحديقة ،
ووجدت بنامون جالسا إلى منضدة ، باسطا على سطحها ورقة من البردى ،
يرسم عليها أشكالا مختلفة ويبدو عليه آى الانهماك والتفكير . ولما أحس
بوجودها ، وضع قلمه وقام واقفا وأحنى رأسه لها ، فحيته بابتسامة وقالت :
— سأجعل لك هذه الساعة من الصباح ، فهى التى أملكها من يومى
الطويل ..

فقال الشاب بصوته الخافت الخجول :
— شكرا يا سيدتى ، ولكنتالنبدا اليوم ، لأننى ما أزال أضع الفكرة العامة
للزخرف .
فقالت :

— آه لقد غررت لى يا غلام ..
— حاشاى يا سيدتى .. بل عنت لى فكرة رائعة .
فنظرت إلى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية ، وقالت :
— ترى هل يستطيع حقا هذا الرأس الصغير ، أن يبدع فكرة رائعة ؟ ..
فتخضب وجهه بالاحمرار ، وقال بارتباك وهو يشير إلى الجدار الأيمن :
— سأملأ هذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك .
— يا للهول .. أخشى أن يأتى بشعا مخيفا ..
— سيبدو جميلا كما هو .

نطق الشاب بهذه العبارة ببساطة وسذاجة ، فحدجته بنظرة فاحصة ، فسارع
الارتباك إليه ، وتحيرت عيناه الصافيتان ، وأشفقت عليه فنظرت إلى الأمام حتى

استقر بصرها على البركة خلال الباب الشرقى للحجرة .. يا له من شاب رقيق كالعذراء الساذجة ، إنه يهيج في صدرها حنانا غريبا ، ويوقظ الأمومة النائمة في سرايب نفسها ، والتفتت إليه ، فرأته منكبا على عمله ، ولكنه لم يكن متفرغا له ، وآية ذلك أنه كان ظاهر الارتباك مورد الخدين ، أليس ينبغي أن تتركه وتذهب إلى حال سبيلها ؟ ، ولكنها أحست برغبة في التحدث معه ، فأطاعت رغبته وسألته :

— أمن أهل الجنوب أنت ؟

فرفع الشاب رأسه ، وقد اكتسب وجهه بنور فرح بهيج . وقال :

— أنا من أمبوس يا سيدتي .

— أمبوس ؟ .. أنت من شمال الجنوب إذا ، ولكن ما الذى جمع بينك وبين

المثال هنفر ، وهو من أهل بلاق ؟

— كان والدى من أصدقاء المثال هنفر ، ولما رأى تعلقى بالفن أرسلنى إليه

ووصاه بى .

— وهل والدك من طائفة الفنانين ؟

فصمت الشاب هنيهة ، ثم قال :

— كلا .. كان والدى كبير أطباء أمبوس ، وكان نابغة في الكيمياء

والتحنيط ، وقد تعددت إكتشافاته في طرائق التحنيط وتركيبات السموم ..

ففهمت المرأة من سياق حديثه أن والده مات ، ولكنها عجبت لاكتشافه

تركيبات السموم ، وسألت الشاب :

— ولماذا كان يصنع السموم ؟ ..

فقال الشاب بلهجة حزينة :

— كان يستعملها كأدوية ناجعة ، ويأخذها الأطباء عنه ، ولكنها وأأسفاه

كانت السبب في القضاء على حياته .

فسألته باهتمام شديد :

— كيف كان ذلك يا بنامون ؟

— أذكر يا سيدى، أن الذى ركب سما عجيبا ، وكان يفاخر دائما بقوله :
 « إنه أفتك السموم جميعا ، وأنه يقضى على ضحيته فى ثوان معدودة » وسماه
 لذلك السم السعيد ، وفى ليلة أسيفة قضى الليل كله فى معمله يشتغل بلا
 انقطاع ، وفى الصباح وجد ممددا على مقعده فاقد الروح ، وإلى جانبه قارورة
 سم من ذاك السم الفاتك مفضوضة السداد ..
 — يا للغرابة .. هل أنتحر ؟

— من المحقق أنه تناول جرعة من السم الفاتك ، ولكن ما الذى دفعه إلى
 الهلاك ؟ .. لقد دفن سره معه ، واعتقدنا جميعا أن روحا شيطانيا تلبسه ، فأصلته
 الحكمة فأتى فعلته فى حالة إعياء وذهول وفجع أسرتنا جميعا ..
 واكتسى وجهه بحزن عميق وانحنى رأسه على صدره . فأسفت رادويس على
 إثارتها هذا الموضوع الأليم وسألته :
 — وهل أملك على قيد الحياة ؟

— نعم يا سيدى ، وهى تعيش بقصرنا فى أمبوس ؛ أما معمل والدى فلم يلج
 باباه إنسان منذ تلك الليلة ..
 وعادت المرأة ، وهى تفكر فى موت الطبيب بسار الغريب وفى سموه المودعة
 المعمل المغلق ..

وكان بنامون الإنسان الوحيد الغريب الذى يلوح فى أفقها الهادئ المنطوى
 على الحب والطمأنينة ؛ وكان الوحيد كذلك الذى ينتهب من وقتها الموهوب
 للحب ساعة كل صباح . على أنه لم يضايقها قط لأنه كان أرق من الطيف .
 ومضت الأيام وهى مغرقة فى الهوى وهو منكب على عمله ، وحياة الفن العالية
 تدب فى جدران الحجرة الصيفية .

وكان يسرها أن ترقب يده وهى تبث فى الحجرة روحا من جمالها الرائع . وقد
 اقتنعت بمقدرته الفائقة ، ووقر فى نفسها أنه سيخلف المثال هنفر فى مستقبل

— ٩٤ —

قريب . وقد سألته يوما وهى تهم بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة :

— ألا يلحقك التعب أو السأم ؟

فابتسم الغلام بفخار وقال :

— هيهات ..

— كأنك تندفع بقوة شيطان ..

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة ، وقال بهدوء وسذاجة :

— بل بقوة الحب ..

وارتجف قلبها لوقع هذه الكلمة التى توقظ فى قلبها أشهى الذكريات ، وتنادى

إلى مخيلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال ، ولم يكن يدرك شيئا مما يقوم فى نفسها .

فاستدرك قائلا :

— ألا تعلمين يا سيدتى أن الفن هوى ؟

— حقا ؟!

فأشار إلى أعلى جبينها الذى وضع رسمه على الجدران ، وقال :

— هاك نفسى خالصة ..

وكانت قد ملكت عواطفها ، فقالت بسخرية :

— يا لها من حجر أصم .

— كانت حجرا قبل أن تلمسها يداى ، أما اليوم فهى نفسى .

فضحكت قائلة :

— يا لك من مغرق فى حب نفسه ..

هكذا قالت وهى توليه ظهرها : ولكن وضع على أثر ذاك اليوم أن نفسه

ليست الشيء الوحيد الذى يجبه ، وكانت تسير فى الحديقة على غير هدى

كخاطر حائر فى دماغ حالم سعيد ، فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفية ، وساقها

ميل إلى التسلية إلى اعتلاء ربوة عالية فى غابة الجميز ، وإرسال النظر خلل نافذة

الحجرة وكان وجهها الآخذ في الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار المقابل، ورأت الفنان الشاب في أسفل الجدار، وكانت تظنه ينهك في عمله كعادته، ولكنها وجدته يجثو على ركبتيه، ويداه مشتبكتان على صدره، ورأسه متجه إلى أعلى كأنه مستغرق في صلاة، إلا أن رأسه كان متجها إلى ما تم نخته من رأسها وجبينها ..

ودفعها غريزتها إلى الاختفاء وراء فرع شجرة ومضت تراقبه خلسة دهشة مذعورة، ورأته يقوم واقفا كأنه ينفث من صلاته، ورأته يمسخ عينيه بطرف كفه الواسع .. فحفق قلبها، ولبثت برهة لا تبدى حراكا، والسكون مطبق من حولها. لا يسمع بين آونة وأخرى سوى رفرقة البط السابح على سطح الماء أو طنينه، ثم التفتت إلى الورا والمحدرت مسرعة في طريقها إلى القصر ..

وقع ما طالما أشفقت من وقوعه رحمة به، وكانت تطالع معناه في عينيه الصافيتين كلما رنا بهما إليها، وما كانت تستطيع دفع الشر، فهل تباعد بينه وبينها؟ هل تغلق باب القصر في وجهه بأبة علة تعتل بها عليه .. لكنها أشفقت من تعذيب نفسه الرفيعة وباتت في حيرة من أمرها .

على أن حيرتها لم تطل بها، ولم يكن شيء في الوجود بقادر على أن يستبد بوجودها أكثر من ساعة عابرة، لأن عواطفها وإحساساتها جميعا كانت نهب الحب، وملك يدي حبيب طموح لا يقنع من الحب بشيء .. كان يطير إلى قصرها الحالم هاجرا قصره ودنياه، غير آسف ولا مردد، فكانا يفران معا من الوجود ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحب، ويستسلمان لسحر الهوى وفتوته، ويصليان ناره، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار على روعته وجبروته. وكان أقصى ما يلقيان من أسباب الهموم في أيامهما تلك أن تكتشف رادويس في الضحى بعد توديعه لها، أنها لم تسأله أعينها يؤثر بالشوق أم شفتيها، أو أن يذكر وهو في طريقه إلى قصره أنه لم يقبل ساقها اليمنى مثلما فعل قبل اليسرى، وربما حمله أسفه على أن يكر راجعا لينفى عن حياته أنه أسباب الهموم.

كانت أياما لا نظير لها في الأيام .

خنوم حتب

وكان الزمن الذى يمنح قوما الصفاء والسعادة ، يتجههم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حتب . كان الرجل يقبع فى دار الحكومة يرقب الأمور بعينين متشائمتين ، ويستمع إلى ما يقال بأذان مرهقة وقلب حزين ، ثم يستوصى بالصبر ما أمكن الصبر .

وكان الأمر الذى أصدره الملك بنزع أراضى المعابد ينغص عليه صفو حياته ، ويضع فى سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسية ، لأن جمهور الكهنة قابله بفرع وألم ، ونشط أكثرهم إلى كتابة العرائض والالتماسات وتوجيهها إلى رئيس الوزراء وكبير الحجاب ..

ولاحظ الرئيس أن الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل ، وأنه نادرا ما يحظى بمقابله والتحدث إليه فى أمور المملكة . وذاع على أثر ذلك أن فرعون هوى غانية القصر الأبيض ببيجة . وأنه يبيت ليلاليه فى قصرها . ثم شوهد الصناع يساقون إلى قصرها جماعات جماعات ، ورثيت زرافات العبيد حاملة فاخر الأثاث وثمانين الجواهر . وتهامس الكبراء بأن قصر رادويس يتحول إلى مشوى من الذهب والفضة والمرجان ، وأن أركانه تشهد هوى جاعحا يتقاضى مصر أموالا لا تعد ولا تحصى ..

وكان خنوم حتب رأسا كبيرا وعينين عميقتين ، وقد نفذ صبره ، وضاق بمجموده ، ففكر فى الأمر طويلا ، وعزم على أن يبذل ما فى وسعه ليحول الأمور عن السبيل التى تندفع فيه ؛ فأرسل رسولا من قبله برسالة إلى كبير الحجاب سوفخاتب رجاء فيها إلى موافاته بدار الحكومة . وسارع كبير الحجاب إلى مقابله ، وصافحه الوزير ، وقال له :

— إني أشكرك أيها المبجل سوفخاتب على تليبتك لرجائي .
فأحني كبير الحجاب رأسه وقال :

— إني لا أتوانى عن القيام بواجبي المقدس في خدمة مولاي .
وجلس الرجلان وجها لوجه ، وكان خنوم حتب صلب الإرادة حديدي
الأعصاب ، فظل وجهه هادئا رغم ما يجيش ب صدره من الأحران . وقد استمع
إلى قول كبير الحجاب في سكون ، ثم قال :
— أيها المبجل سوفخاتب ، كلنا نخدم فرعون ومصر بإخلاص .
— هذا حق يا صاحب القداسة .

ورأى خنوم حتب أن يطرق موضوعه الخطير ، فقال :
— ولكن ضميري لا يرتاح إلى سير الأمور في هذه الأيام ، وبت أتعثر
بالمتعاب والمشكلات . وقد رأيت — وأحسبني في رأيي من الصادقين — أن
مقابلة بيني وبينك لا شك تأتي بخير كثير .
فقال سوفخاتب :

— إنه ليسعدني وحق الأرباب أن تصدق في فراستك يا صاحب القداسة .
فهز الرجل رأسه الكبير دلالة على الرضا ، وقال بلهجة تنم على الحكمة :
— يجدر بنا أن نستوصى بالصراحة . فالصراحة كما يقول فيلسوفنا قاقمتا آية
الصدق والإخلاص .

فأمن سوفخاتب على قوله قائلا :
— صدق فيلسوفنا قاقمتا .

فصمت خنوم حتب دقيقة يجمع أفكاره . ثم قال بصوت نهم على الحزن :
— ينذر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك في هذه الأيام .
وانتظر الوزير أن يعقب الرجل على كلامه ، ولكنه لازم الصمت ، فاستطرد
قائلا :

— وأنت تعلم أيها المبجل أني كثير ما أطلب تحديد وقت مقابله ، فيقال لي إن
(رادويس)

ذاته المعبودة خارج القصر .

فبادره سوفخاتب قائلا :

— ليس لإنسان أن يحسب على فرعون حر كاته وسكناته .

فقال الوزير :

— ما قصدت إلى هذا أيها المبجل ، ولكنني أعتقد أن حقى كوزير يخول لى

المثول بين يدي جلالته بين آونة وأخرى ، لأقوم بواجباتي على الوجه الكامل .

— معذرة يا صاحب القداسة ، ولكنك تحظى بالمثول بين يدي فرعون .

— نادرا ما تتاح لى الفرصة . وتجدرنى لا أدرى ما الحيلة لأعرض على ذاته

العليا التماسات تزدحم بها حجرات الحكومة .

فعدجه الحاجب بنظرة فاحصة ، وقال :

— لعلها تمس موضوع أراضى المعابد .

فالتمعت عينا الوزير بنور خاطف ، وقال :

— هو ذلك يا سيدى .

فقال سوفخاتب بسرعة :

— إن فرعون لا يريد أن يسمع جديدا حول هذا الموضوع . لأن جلالته قال

فيه كلمته الأخيرة .

— إن السياسة لا تعرف كلمة أخيرة .

قال سوفخاتب بلهجة لم تخل من حدة :

— هذا رأيك يا صاحب القداسة وعسى ألا أشاركك فيه .

— أليست أملاك المعابد تراثا تقليديا ؟

واستاء سوفخاتب لأنه شعر بأن الوزير يستدرجه إلى حديث يأباه ، بعد أن

أعلن له أباه ، فقال بلهجة لا تدع له أى احتمال للشك :

— سأقف عند كلمة مولاي لا أتعداها .

— إن أخلص الناس لمولاه من يصدقه النصيحة .

واشتد استياء الحاجب الأكبر لجفاء القول ، وثارت كرامته ثورة مكتومة ، فقال بشدة :

— إني أعرف واجبي يا صاحب القداسة ، ولكني لا أسأل عنه إلا أمام ضميري .

فتهد خنوم حتب يائسا ، ثم قال في هدوء وتسليم :

— إن ضميرك فوق الشبهات أيها المبجل ، وما داخلني شك قط في إخلاصك أو حكمتك ، ولعل هذا ما دعاني إلى الاسترشاد برأيك . أما وإنك ترى أن هذا لا يتفق وإخلاصك فلا يسعني إلا العدول عنك آسفاً ، وليس لدى الآن لي رجاء واحد .

فقال سوفخاتب :

— تفضل يا صاحب القداسة .

— إني أرجو أن ترفع إلى مسامع صاحبة الجلالة الملكة ، رجائي بالتشرف بين يديها اليوم .

وأخذ سوفخاتب ، ونظر إلى محدثه نظرة دالة على الدهشة ، لأنه وإن كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا الرجاء إلا أنه لم يكن متوقعه ، فاستولى الارتباك على الحاجب ، أما خنوم حتب فقال بلهجة دلت على العزم :

— إني أقدم هذا الرجاء بصفتي رئيس وزراء المملكة المصرية .

فقال سوفخاتب بقلق :

— ألا انتظرت إلى الغد لأحيط الملك علما برغبتك ؟

— كلا أيها المبجل ، إني أرجو أن أستعين بمجالة الملكة على تذليل العقبات التي تعترض سبيلي ، فلا تضيع فرصة ذهبية ، عسى أن أخدم بها مليكي ووطنى .

فلم يسع سوفخاتب إلا أن يقول :

— سأرفع رجاءك إلى جلالتها في الحال .

وقال خنوم حتب ، وهو يمد له يده للمصافحة :

— سأنتظر رسولك .

فقال الحاجب الأكبر وهو يودعه :

— كما تشاء يا صاحب القداسة .

ولما خلا خنوم حتب بنفسه قطب جبينه ، وأصر على أسنانه بشدة ، فبدا ذقنه العريض كقبضة من الجرانيت ، ومضى يذرع الحجرة ويعمل فكره . وكان لا يشك في إخلاص سوفخاتب ، ولكنه كان قليل الثقة في شجاعته وعزمته . وقد دعاه وهو يائس منه ، ولكنه لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة ، ثم تساءل قلعا : هل نقبل الملكة رجاءه وتدعوه لمقابلتها ! وما عساه يصنع لو رفضت مقابلته ؟ . إن الملكة لا يستهان بها ، وعسى أن تحل العقدة المستحكمة بدكائها ، فتنقذ ما بين الملك والكهنة من الانهيار والتفكك . ولا شك أن الملكة تدرك سوء تصرف الملك الشاب ، وتألم له أشد الألم ، فهي ملكة مشهود لها بالفطنة ، وهي زوجة تشارك الزوجات أفراحن وأحزانهن . أليس من المحزن أن تنزع أملاك المعابد لينذل ريعها وخيصها تحت أقدام راقصة ؟

إن الذهب يتدفق إلى قصر يبيجة من أبوابه ونوافذه ، ومهرة الصناع يتقاطرون عليه ويعملون ليل نهار في صنع أثائه وحلى ربه وأثوابها . وأين .. أين فرعون .. هجر زوجه وحريمه ووزرائه وقنع من الدنيا بقصر الراقصة الساحرة !

وتهد الرجل في حزن عميق ، وتتم قائلا :

— ما ينبغي لمن يجلس على عرش مصر أن يلهو ..

وراح في تفكيره العميق ، ولكن لم يطل به الانتظار ، إذ دخل عليه حاجبه ، واستأذن لرسول آت من القصر فأذن . وانتظر الرجل في لهفة ، وقد اضطربت شفاته في تلك اللحظة الفاصلة على قوة إرادته وصلابة أعصابه ، ودخل الرسول ، وأحنى رأسه محيا ، وقال باقتضاب :

— إن حضرة صاحبة الجلالة تنتظركم يا صاحب القداسة .

وحمل من قوره إضمامة الاتماسات ، وذهب إلى عجلته التي طارت به إلى القصر ، وما دار له بخلد أن يأتيه الرسول بهذه السرعة ، فلا شك أن الملكة تكابد حزنا وقلقا ، وتعانى من الآلام في وحدتها الموحشة ، ولا شك أنها تتصبر على الإهانة والحرمان قابعة في سياج قاس من الكبرياء والصمت ، إنه يحس أنها من رأيها ، وأنها ترى الأمور بالعين التي يراها الكهنة والعقلاء جميعا . وعلى أية حال فسيؤدى واجبه ، ولتقض الآلهة أمرا كان مفعولا .

وبلغ القصر : وقصد توا إلى جناح الملكة ، ولم يلبث أن دعى إلى مقابلة جلالتها في بهو استقبالها الرسمي . وأدخل البهو فأتجه نحو العرش ، وأحنى هامته حتى مست جبهته حاشية ثوبها الملكي ، وقال بإجلاء عميق :

— السلام على مولاتي نور الشمس وبهاء القمر .

فقال الملكة بصوت هادئ :

— السلام عليك أيها الرئيس خنوم حتب .

واستقامت قامة الوزير ، وإن ظل رأسه منكسا ، وقال بخشوع :

— إن عبيدك المطيع يعجز لسانه عن أداء الشكر لذاتك العالية ، على تفضلتك الكريم باستقباله .

فقال الملكة بصوتها المترن النبرات :

— إني أعتقد أنك لا ترجو مقابلي إلا لأمر خطير . فلم أتوان عن

استقبالك .

— تعالت حكمة مولاتي ، فالأمر جد خطير ، وما هو إلا صميم السياسة

العليا .

وانتظرت الملكة صامئة ، فاستجمع الرجل قواه الذاتية ، وقال :

— إني يا صاحبة الجلالة اصطدم بعقبات شديدة ، حتى بت أخشى ألا أقوم

بواجبي بما يرضى ضميري ومولاي فرعون .

وسكت لحظة ، واختطف من وجه الملكة الهادئ نظرة سريعة كأنه يمتحن أثر

كلامه فيها ، أو ينتظر كلمة تشجعه على الاسترسال ، وأدركت الملكة معنى تردده فقالت :

— تكلم أيها الوزير فأني مصغية إليك .

فقال خنوم حتب :

— اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر الملكي بنزع أكثر أملاك المعابد ، فقد اضطرب الكهنة وفزعوا إلى الالتماسات يرفعونها إلى أعتاب فرعون ، فهم يعلمون أن أراضي المعابد منح وهبتها الفراعنة عطفاً ، فأشفقوا من أن يكون استردادها سخطاً .

ولاذ الوزير بالصمت هنيئة ، ثم استدرك قائلاً :

— الكهنة يا مولائي جنود الملك في وقت السلم ، والسلم ينشد رجالاً أصلب عوداً من رجال الحرب ، فمنهم المعلمون والحكماء والوعاظ ، ومنهم حكام ووزراء . وما كانوا ليتوانوا عن التنازل عن أملاكهم حبا لو دعت إلى ذلك شدة حرب أو قحط ، ولكنهم ..

وتردد الرجل عن الكلام لحظة ، ثم استطرد بصوت أشد خفوتاً :

— ولكن يحزنهم أن يروا هذه الأموال تنفق في غير هذه الوجوه ..

ولم يرد أن يجاوز هذا الحد من التلميح ، ولم يداخله شك في أنها تفهم كل شيء وتعلم كل شيء . ولكنها لم تعقب على كلامه بكلمة . فلم يرد من أن يتقدم إليها بالالتماسات ، ثم قال :

— هذه الالتماسات يا صاحبة الجلالة تعبر عن إحساس رؤساء المعابد ، وقد

رفض مولاي الملك أن ينظر فيها ، فهل لمولائي أن تطلع عليها ، فالشاكون طائفة من شعبكم المخلص تستحق الرعاية ..

وقبلت الملكة الالتماسات ، فوضعها الوزير على منضدة كبيرة ، ووقف في

— ١٠٣ —

سكون منكس الرأس . ولم تعده الملكة بشيء ، وما طمع في هذا قط ، ولكنه
تفاءل خيرا بقبول الالتماسات . ثم أذنت له بالانصراف ، فتراجع ويداه على
عينيه .

وفي طريق العودة حادث الوزير نفسه : إن الملكة شديدة الحزن ، وعسى أن
ينفع حزنها قضيتنا العادلة .

نيتو قريس

غيب الباب الوزير ، ووجدت الملكة نفسها وحيدة في البهو الكبير ، فأسندت رأسها المتوج إلى ظهر العرش ، وأغلقت جفניה ، وتنهدت تنهدا عميقا ، صعد أنفاسا حارة مكتوية بصورة الحزن والألم ، فلشد ما تنصبر وتتجلد ، حتى إن أدنى الناس إليها لا يدري باللسنة اللهب التي تخرق بها أحشاؤها بغير رحمة .. وقد ظلت تطالع الناس بوجه هادئ يكتنفه الصمت كأى الهول .

وما كانت تجهل من الأمر شيئا ، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها ، ورأت الملك يتردى في الهاوية ، ويذهب فريسة لهواه الجائع ، ويهرع إلى تلك المرأة — التي شاد بحسنها كل لسان — لا يلوى على شيء . وأصابها سهم سام في عزة نفسها وسويداء عواطفها ، ولكنها لم تبد حراكا ، ونشب في صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب ، والملكة ذات التاج ، وأثبتت التجربة أنها كأياها قوية الشكيمة ، فصهر التاج القلب ، وخنقت الكبرياء الحب ، فانطوت على نفسها الحزينة سجيئة خلف الستائر . وهكذا خسرت المعركة ، وخرجت منها مهيضة الجناح ، وما رمت عن قوسها سهمها واحدا .

وكان الذى يدعو إلى السخرية ، أنهما ما زالا يعدان عروسين . على أن تلك الفترة القصيرة كانت كافية لإظهار ما انطوت عليه نفسه من الجموح العنيف والهوى الطائش ، فما عثم أن ملأ الحريم بعدد لا يحصى من الجوارى والمحظيات من مصر والنوبة وبلاد الشمال . ولم تكن تأبه لمن ، لأنهن جميعا لم يصرفن عنها ، ولبثت ملكته وملكة قواده . إلى أن ظهرت فى أفقه هذه المرأة الساحرة فجذبت إليها بعنف ، وملك عواطفه وعقله جميعا ، واستأثرت به دون زوجه وحرمة

ورجاله المخلصين ، ولعب بها الأمل الخادع حيناً ، ثم أسلمها إلى اليأس ، يأس مكفن بكبرياء فأحسست بقلبيها يتجرع سكرات الموت .

وكانت تأتى عليها أحيان يشب الجنون في دمائها ، وتشع عنها نورا خاطفاً ، فتهم بالوثب والبطش والمنافحة عن قلبها الكسير ، ثم سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد : كيف يصح لنيثو قريس أن تنازل امرأة تبيع جسدها بقطع الذهب ؟ فتبرد دماؤها ، ويتجمد الحزن في قلبها كالسهم الفاتك في المعدة .

ولكن ثبت لها اليوم أن هناك قلباً غير قلبها تعاني الآلام بسبب تهوّر الملك ، وها هو ذا خنوم حنّب يشكو إليها بثه ويقول لها بعبارة بينة : إنه لا يجوز أن تنزع أملاك المعابد لتلهو بها رادويس الراقصة ، ويؤمن بقولها المئين من صفوفة الحكماء .. أفلا ينبغي أن تخرج عن صمتها ؟ وإذا لم تتكلم الآن فمتى ينبغي لها أن تعالج جنونه بحكمته . وقد آلمها أن يرتقى الهمس إلى العرش المكين ، وأحسّت بأن واجبها يقضى عليها بإزالة الهواجس وإعادة الطمأنينة ، وهان عليها أن تدوس على كبريائها ، وتوطد العزم على أن تتقدم بخطى ثابتة في سبيلها السوى مستعينة بالأرباب .

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذى أملته عليها الحكمة والدواعى الباطنة ، إنهار عنادها الأول بعد أن ثابر مثابرة المستميت ، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك بقوة وإخلاص .

وغادرت البهو إلى مخدعها الملكي ، وقطعت بقية نهارها في التفكير والتأمل ، ونامت ليلها نوماً متقطعاً شديد العذاب ، وانتظرت الضحى على لطفه ، وهو الوقت الذى يصحو فيه الملك بعد سهر الليل .. ولم يداخلها التردد ، فانتقلت بخطى ثابتة إلى جناح الملك ، وقد أحدث انتقالها الغريب حركة بين الحراس ، فأدوا لها التحية ، وسألت واحداً منهم قائلة :

— أين جلالة الملك .

فأجابها الرجل بإجلال قائلاً :

— فى مشواه الخاص يا صاحبة الجلالة .

وسارت بتؤدة إلى حجرة الملك التى يخلو فيها بنفسه ، واجتازت بابها الكبير . وكان فرعون يجلس فى الصدر يفصله عن الباب أربعون ذراعاً ، حملت من آى البلهنية والفن ما لا تصدقه العيون . ولم يكن الملك يتوقع رؤيتها ، وكانت مضت أيام عديدة على آخر لقاء ، فقام واقفا دهشاً ، واستقبلها بابتسامة دلت على الارتباك ، وقال وهو يشير إليها بالجلوس :

— أسعدتك الآلهة يا نيتو قريس .. لو علمت برغبتك فى مقابلتى لبادرت

إليك !

فجلست الملكة فى هدوء وهى تخاطب نفسها قائلة .. من أدراه ألى لم أرغب فى لقائه طوال هذه الفترة ! ثم وجهت إليه الخطاب قائلة :

— لا داعى لإزعاجك أيها الأخ ، فألى لا أجد غضاضة فى الانتقال إليك ما

دام الذى يحركنى واجب .

ولم يلق الملك إلى كلامها بالاً ، لأنه كان يحس بحرج شديد ، وقد تأثر لمجيئها وجهود وجهها ، فقال :

— إنى خجل يا نيتو قريس .

وعجبت لطرقه هذا الموضوع ، وكان آلمها ألماً خفياً أن تراه فى منتهى السعادة والصحة ، كالزهرة الناضرة ، فقالت بانفعال رغم ضبط عواطفها :

— يهون لى كل شىء إلا أن تخجل !

وكان أرق المس يهبجه ، ويرده من حال إلى حال ، فعض على شفته وقال :

— أيتها الأخت ، إن الإنسان هدف لأهواء طاغية . وقد يهوى لإحداها

فريسة .

وطعنها اعترافه بقسوة فى كبريائها وعواطفها ، فنسيت حلمها وقالت

بصراحة :

— يحزننى وحق الرب ، وأنت فرعون أن تشكو الأهواء الطاغية .

وأحس الملك الغضوب بوخر كلامها ، فأهاجه الغضب ، واندفع الدم إلى رأسه ، فانتفض واقفا ينذر وجهه بالشر . وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها الغضب الذى جاءت من أجله ، فندمت على قولها ، وقالت له برجاء :
— أنت الذى سقتنى إلى هذا الحديث أيها الأخ ، وما لهذا جئت ، وعسى أن يفرخ غضبك ، أن تعلم أنى قصدت إليك لأحدثك فى شئون هامة تمس سياسة المملكة التى نجلس على عرشها سويا .

فكظم حنقه ، وسألها بلهجة كالهائلة :

— ما حديثك أيتها الملكة ؟

وأسفت الملكة على أن مساق الحديث لم يؤد إلى جو صالح لغرضها ولكنها لم تر بداً من الكلام ، فقالت باقتضاب :
— أراضى المعابد .

فعبس وجه الملك . وقال بامتناع شديد :

— أتقولين أراضى المعابد ؟.. أنى أسميها أراضى الكهنة !

— لتكن مشيئتك يا مولاي . فإن تغيير الاسم لا يغير من الأمر شيئا .

— ألا تعلمين أنى أكره أن يعاد على هذا الاسم ؟

— إنى أحاول ما لا يستطيعه غيرى ، وهدفى الخير والإصلاح .

فهز الملك منكبيه بامتناع وقال :

— وما الذى تريدن قوله أيتها الملكة ؟

فقالت بهدوء :

— لقد دعوت خنوم حتب إلى مقابلتى إجابة لرجائه واستمعت ..

ولكنه لم يدعها تتم حديثها ، وقال بغضب :

— أهكذا فعل الرجل ؟

فقالت بارتياح :

— نعم .. هل تجد فى سلوكه ما يستأهل غضبك ؟

فقال وكأنه يزأر :

— بغير شك .. بغير شك .. إنه رجل عنيد ، ويأبى أن ينزل عند إرادتى ، وأنا أعلم أنه نفذ أمرى كارها ، وأنه يتربص بى لعله ينجح فى الغائه مستعينا تارة بالرجاء ، وقد رفضت أن أصغى إليه ، وتارة يدفع الكهنة إلى تقديم الالتماسات كما دفعهم من قبل إلى الهتاف باسمه الحقير .. إن الرجل الماكر يندفع كالأعمى فى طريق خصامى .

فها لها ظنه وقالت :

— أنت تسيء الظن بالرجل ، أما أنا فأعتقد أنه من أعظم الرجال إخلاصا للعرش ، وإنه حكيم يتوخى الوثام .. أليس من الطبيعى أن يحزن الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته فى ظل عطف أجدادنا ؟ .

واحتدم الغيظ فى قلب الملك ، لأنه لم يكن يجد عذرا لإنسان ألا يصدع بأمره فى السر والعالية ، ولا يحتمل بأية حال أن يرى إنسان غير ما يرى .

فقال ممتعضا بلهجة تشف عن السخرية المريرة :

— أرى أن هذا الداهية استطاع أن يغير رأيك أيتها الملكة .

فقالت باستياء :

— لم يتجه رأيى قط إلى نزع أملاك المعابد ، ولا أجد ضرورة لذلك .

فعاود الغضب الملك وقال لها بعنف :

— أيسيفك أن تزدد ثروتنا ؟

كيف يقول هذا ، وهو يعلم أين تنفق هذه الأموال ؟ .

وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المختنق ، فانتفضت غضبا وتغلبت عليها مشاعرها فقالت بانفعال :

— يسىء كل عاقل أن تنزع أراضى قوم حكماء لينفق ريعها فى اللهو

العابث .

فاشتد هياج الملك . وقال وهو يشير بيده مهددا :

— ويل للرجل الماكر .. إنه يغرى بالشقاق بيننا ؟

فقال بتألم وحزن :

— إنك تصورنى لنفسك كطفلة غريبة .

— ويل له .. لقد طلب مقابلة الملكة ليحدث المرأة المستتر في ثوبها الملكي .

فصاحت به حزينة متألة قائلة :

— مولاي !

ولكنه استطرد بقول مدفوعا بغضبه الشيطاني :

— لقد جئت يا نيتو فريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة في الوئام .

وأحست بطعنة نجلء تصيب كبرياتها . فأظلمت عيناها ، ودوى النبض في

أذنيها ، وارتجفت أطرافها . ولبت هنية لا تستطيع قولاً . ثم قالت :

— أيها الملك ! لا يعرف خنوم حتب عنك شيئاً أجعله فيسمى به إلى ، وما

دمت تظن هذا ، فاعلم بأنى ، أعلم ، كما يعلم الجميع ، أنك غارق في أحضان

راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر . فهل رأيتنى طوال هذه الفترة طاردتك . أو

ضيق عليك . أو توسلت إليك ؟ .. وأعلم أن الذى يريد أن يخاطب في المرأة

يرتد خائبا ، ولا يلقي أمامه سوى الملكة نيتو فريس ..

فاحتد قائلا بعناد :

— ما تزالين تقذفين بحمم الغيرة .

فضربت الملكة بقدمها الصغيرة ، وقامت واقفة يائسة ، وقالت بحنق شديد :

— أيها الملك .. ليس مما تعبر به ملكة أن تغار على زوجها ، ولكن مما يعبر به

ملك حقا أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمى راقصة ، ويعرض عرشه الطاهر

لخوض الخائضين .

قالت الملكة ذلك ، وذهبت لا تلوى على شيء .

* * *

واستبد الغضب بالملك ، وأخرجه عن طوره وكان يعد خنوم حتب مسعولا

عن جميع متابعه ، فاستدعى سوفخاتب وأمره دون أن يجهله بأن يبلغ رئيس الوزراء بأنه ينتظره . وخرج الحاجب الأكبر ينفذ أمر مولاه حائرا . وجاء الوزير الأكبر موزع النفس بين اليأس والأمل . وأدخل على الملك الغاضب الحائق ، ونطق الرجل بالتحية — التقليدية ، ولكن فرعون لم يكن يصغى إليه ، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلا :

— ألم آمرك أيها الوزير ألا تعود إلى مناقشة مسألة أراضى المعابد ؟
وأخذ الرجل باللهجة الشديدة التى يسمعا لأول مرة ، وأحس بآماله تنهار دفعة واحدة ، فقال يائسا :

— مولاي .. رأيت من واجبى أن أرفع إلى مسامعكم العالية شكاوى طائفة من شعبكم الأمين .
فقال الملك باللهجة قاسية :

— بل أحببت أن تثير غبارا بينى وبين الملكة ، لتصيب تحت ستاره غرضك .

فرجع الرجل يديه بتوسل ، وأراد أن يتكلم فارتج عليه القول سوى هاتين الكلمتين :

— مولاي .. مولاي ..
فقال الملك الغاضب المهتاج :

— يا خنوم حتب .. أنت تأتى الانصياع لأمرى ، فلن أمتحك ثقتى بعد اليوم .

ووجهم الكاهن ، واستولى عليه الجمود ، ثم مال رأسه على صدره فى حزن ، وقال باستسلام :

— مولاي ، يحزننى وحق الأرباب جميعا أن أنسحب من ميدان خدمتك المجيد ، وسأعود كما كنت من قبل عبدا صغيرا من عبيدكم المخلصين ..

— ١١١ —

وأحس الملك بارتياح بعد أن أرضى غضبه الكاسر ، وأرسل في طلب سوفخاتب وطاهو ، وجاء الرجلان على عجل يتساءلان ، فقال لهما الملك في هدوء :

— انتهيت من خنوم حتب .

وساد السكون العميق ، وبدت الدهشة على وجه سوفخاتب ، أما طاهو فبقى جامدا .. وكان الملك يقلب ناظريه في وجهيهما فسألهما :

— ما لكما لا تتكلمان ؟

فقال سوفخاتب :

— إنه لأمر خطير يا مولاي .

— أترأه خطيرا يا سوفخاتب !.. وأنت يا طاهو ؟

وكان طاهو جامدا ميت الإحساس ، لا رجوع للحوادث في قلبه ، ولكنه قال :

— إنه عمل يا مولاي من وحي القوة المعبودة .

فابتسم الملك ، وكان سوفخاتب يقلب الأمر على جميع وجوهه ، فقال :

— سيجد خنوم حتب نفسه منذ اليوم أكثر حرية .

فهز فرعون كتفيه باستهانة ، وقال :

— لا أظن أنه سيلقى بنفسه إلى التهلكة .

واستدرك وقد غير لهجته :

— والآن بماذا تشيران على فيمن يخلفه ؟

وساد الصمت مدة ، ومضى الرجلان يفكران .

وابتسم الملك قائلا :

— إني أختار سوفخاتب فما رأيكما ؟

— ١١٢ —

فقال طاهو بصدق :

— إن من اخترت يا مولاي هو القوى الأمين .

أما سوفخاتب ، فبدأ على وجهه الانزعاج وهم بالكلام ، ولكن سبقه فرعون
قائلا :

— هل تتخلي عن مولاك وقت الحاجة إليك ؟

فقال سوفخاتب وهو يتنهد :

— ستجدني يا مولاي من المخلصين .

الرئيس الجديد

وأحس فرعون في العهد الجديد بطمأنينة ، فسكن غضبه ، وترك الأمور بين يدي الرجل الذي يثق به ، وولى وجهه نحو المرأة التي استولت على نفسه وقلبه وحواسه ، ففي جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة الدنيا وأفراح النفس . أما سوفخاتب فكان ينوء بالتبعة على عاتقه ، ويعلم علم اليقين أن مصر تستقبل توليته بحذر وتهمهم ، وسخط مكتوم . وقد أحس بالوحشة منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها قدماء دار الحكومة ، فالملك يرضى من الدنيا بالحلب ، ويولى كشحه الهموم والواجبات جميعا ، وحكام الأقاليم يوالونه بوجوههم ، وقلوبهم تتبع كهتهم في كل مكان . وتلفت الوزير حوله ، فلم يجد سوى القائد طاهو عوناً ومشيراً ، وهما رجلان يختلفان في أمور كثيرة . ولكنهما يأتلفان على حب فرعون والإخلاص له . فلبى القائد ندائه ، ومد يده إليه ، وشاركه في وحشته وجل متاعبه ، وكافحا معا لإنقاذ سفينة يطوف بها موج صاحب ، وتتجمع في أفقها السحب والزوابع . على أن سوفخاتب كانت تنقصه مزايا القبطان المحنك ، كان مخلصاً ينضج قلبه بالأمانة والوفاء ، حكيماً تنجلي له حقائق الأمور ، ولكن كانت تعوزه صفات الشجاعة والحزم ، فرأى الخطأ منذ البدء ، ولكنه لم يحاول إصلاحه بقدر ما مضى في مداراته وتهوين عقابه . خشية غضب مولاه أو إيلامه ، وهكذا اطردت الأمور في السبيل الذي شقه الغضب ..

وجاءت عيون طاهو الساهرة بنجر هام . قالوا إن خنوم حثب ارتحل بغتة إلى منف ، العاصمة الدينية ، فأحدث الخبر دهشة لدى الوزير والقائد . واحتار في السبب الذي من أجله رضى الرجل بمشقة الانتقال من الجنوب إلى الشمال ، (رادويس)

وتوقع سوفخاتب شرا ، ولم يشك في أن خنوم حتب سيتصل بكبار رجال الكهنوت ، وجميعهم ساءطون لما حل بهم من ضنك ، ولعلمهم بأن الأموال النى ضن بها عليهم تبغر تحت قدمى راقصة ببعجة بغير حساب ، فما من أحد منهم بجهل هذه الحقيقة الآن ، ومن بجهلها سيعلم بها بغير ريب ، وسيلقى الكاهن فيهم تربة صالحة لبذر تعاليمه وترديد شكواه ..

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة ، فقد عاد الرسل الذين أذاعوا نبأ اختيار سوفخاتب وزيرا فى أنحاء القطر ، بالتهانى الرسمية من الأقاليم ، أما الكهنة فقد انطوا على صمت رهيب ، حتى قال طاهو : « لقد بدأونا بالتحدى » .

ثم حملت الرسائل تترى من جميع المعابد ، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلتمس من فرعون إعادة النظر فى مسألة أراضى المعابد . فكان إجماعا خطير الشأن ، زاد من متاعب سوفخاتب .

وفى يوم من الأيام دعا سوفخاتب طاهو إلى دار الحكومة ، وجاءه القائد يسعى ، فأشار الوزير إلى كرسى الوزارة ، وهو يتنهد ، وقال :

— يكاد هذا الكرسى أن يميد بى .

فقال طاهو :

— إن رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسى .

فتنهد الرجل حزنا ، وقال :

— أغرقونى بسيل من الاتماسات .

فسأله القائد باهتمام :

— هل عرضتها على فرعون ؟

— كلا أيها القائد ، إن فرعون لا يأذن لإنسان بمفاتحته فى هذا الموضوع ،

وأنا لا أحظى بالثول بين يديه إلا فى فترات متباعدة جدا .. إلى أشعر بالارتباك والوحدة .

وصمت الرجلان برهة ، وخلا كل منهما إلى أفكاره ، ثم هز سوفخاتب

رأسه متعجبا ، وقال وكأنه يحدث نفسه :
— إنه للسحر بعينه .

ونظر طاهو إلى الوزير نظرة غريبة ، وبغته المعنى الذى يقصده الرجل ، فسرت فى جسده قشعريرة وامتقع لونه ، ولكنه كبح جماح نفسه ، وكان تعود ذلك فى المدة الجافة الأخيرة من حياته ، وسأله ببساطة كلفته جهدا جهيدا :
— أى سحر تعنى يا صاحب القداسة .

فقال سوفخاتب :

— رادوييس ، أليست تنفث فى فرعون سحرا ، بلى وحق الأرباب ، إن ما بجلالته لسحرا مينا ..

واهتزت نفس طاهو لذكر هذا الاسم ، وخال أنه يسمع شيئا عجيبا يلمس بوقعه السحري جميع الحواس والعواطف ، وكاد يزيل الصمام الذى أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه ، فأصر على أسنانه بشدة وقال :

— يقول الناس إن الحب سحر ، والسحرة يقولون إن السحر حب .

فقال الوزير الحزين :

— بت أعتقد أن جمال رادوييس سحر ملعون .

فحدجه طاهو بنظرة قاسية وقال :

— ألم تتل الرقية التى مكنت لهذا السحر ؟

فأحس الرجل بلوم القائد وامتقع لونه ، وقال بسرعة كأنما يدفع تهمة :

— لم تكن أول امرأة ..

— ولكنها كانت رادوييس !

— رجوت لمولاي سعادة .

— فقدمت له سحرا واأسفاه !

— نعم أيها القائد ، إنى أشعر بأنى أخطأت خطأ بليغا .. ولكن ينبغى عمل

شيء .

— ١١٦ —

فقال طاهو وكان لا يزال يحرق بمبرارة :

— هذا واجبك يا صاحب القداسة .

— إني أطلب مشورتك .

— إن الإخلاص يبلغ غايته في النصيحة الصادقة .

— إن فرعون لا يقبل أن يطرق إنسان بين يديه مسألة الكهنة .

— ألا تفضي برأيك إلى جلالة الملكة ؟

— هذا سبيل أودى بخنوم حتب إلى التعرض إلى غضب جلالة الملك .

فلم يجد طاهو ما يقوله ، وخطر لسوفخاتب خاطر فقال بصوت خافت :

— ألا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك وبين رادوبيس ؟

فسرت القشعريرة إلى جسده مرة أخرى ، وانجلى قلبه في صدره ، وكادت

العواطف التي يبالغ في كتمانها تنفجر ، وقال لنفسه : إن الشيخ لا يدري ماذا

يقول ، ويظن أن مولاه هو المسحور وحده .. ثم قال له :

— لماذا لا تجتمع بها أنت ؟

فقال سوفخاتب :

— لعلك أقدر مني على التفاهم معها ..

فقال طاهو ببرود :

— أخشى أن تجد على رادوبيس ، وتسيء إلى الظن فتشوه مسعاه لدى

فرعون .. كلا يا صاحب القداسة ..

وتبيب سوفخاتب مواجهة فرعون بالحقيقة .

ولم يستطع طاهو ملازمة مكانه لأن أعصابه ثارت ، وزعزعت أركان نفسه

عاطفة هوجاء شديدة الاعترار ، فاستأذن من الوزير وانطلق لا يلوى على شيء ،

تاركا وراءه سوفخاتب غارقا في لجة عميقة من الأفكار والأحزان .

الملكتان

ولم يكن سوفخاتب وحده الذى تثقل رأسه الهموم . كانت الملكة تقبع فى جناحها ، تنطوى على حزن دفين ، وألم بارح ، وبأس محروم من الشكوى ، تراجع مأساة حياتها بقلب كسير ، وتشاهد الأمور التى تقع فى الوادى بعينين حزيتين ، ولم تكن سوى امرأة خسرت قلبها ، أو ملكة يتقلقل بها عرشها ، وقد انتهت العلائق بينها وبين الملك إلى انقطاع لا يرجى له اتصال ، ما دام الملك يغرق فى هواه ، وما دامت هى تلوذ بصمت الكبرياء . وساءها أن تعلم أن الملك يزهد فى النظر فى واجباته العليا ، وأن الحب أنساه كل شئ حتى تركزت السلطة فى يد سوفخاتب . ولم يكن يداخلها شك فى إخلاص الوزير للعرش ، ولكنها غضبت من استهتار الملك وذهوله ، وصدقت عزيمتها على العمل مهما كلفها الأمر ، ولم تتردد عن غايتها ، فدعت يوما سوفخاتب وطلبت إليه أن يرجع إليها فى الشؤون التى تحتاج إلى رأى الملك . وقد أَرْضَتْ بذلك غضبها بعض الشئ ، وأَرْضَتْ معه الوزير وهى لا تدرى ، الذى تنفس الصعداء ، وأحس بأن حملا ثقيلا رفع عن صدره الضعيف .

وعلى أثر اتصال الوزير بها ، علمت بالالتماسات التى بعثت بها الكهنة من جميع أنحاء الوادى ، وقرأتها بصبر وجلد ، فقرأت الكلمة التى أجمع عليها رأى الصفوة من أفذاذ المملكة ، وأحست بالخطورة المستترة خلف أسطرها المترنة الحازمة .. وتساءلت فى حيرة وألم ، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة أن فرعون يضرب برجواتهم عرض الحائط ؟ .. فالكهنة قوة عظيمة ، وهم يتسلطون على عقول الشعب وقلوبه ، وهو يستمع إليهم فى المعابد والمدارس والجامعات ، ويطمئن إلى أخلاقهم وتعاليمهم اطمئنانه إلى مثله العليا .. فكيف

تطرد الأمور إذا يئس هؤلاء القوم من عطف فرعون ؟ .. وقنطوا من إصلاح الأمور التي لم يروها قط تسير في طريقها التي تسير فيه في أى عهد من العهود المجيدة الفخور التي طواها الماضي الخالد ؟

وما من شك في أن الأمور تتعقد تعقيدا خطيرا ، ويندفع نهر الشقاق ، فيفرق بين الملك النائم الحالم بجزيرة يبيجة ، وبين شعبه المخلص الأمين ، ويقف سوفخاتب منه موقف الحائر لا يغنى عنه إخلاصه ولا حكمته شيئا ..

وأحسست الملكة بأنه ينبغي عمل شيء ، وأن ترك الأمور تسير إلى غايتها يندر بتاعب ، فينبغي أن تمحو عن وجه مصر الهادئ الجميل التقلص الذى يعتوره ، وأن تعيد إليه هدوءه وجماله .. فما عسى أن تصنع ؟ .. كانت بالأمس ترجو أن تفوز بإقناع زوجها بالحق ، ولكنها اليوم لا يعاودها إليه أمل ، ولم تنس بعد ما وجه إلى كبريائها من طعنة نجلاء ، فنفضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة .. وقتشت عن سبيل جديد تصل منه إلى غرضها . لكن ما غرضها ؟ .. لقد فكرت في ذلك مليا ، ثم قالت لنفسها : « غاية ما آمل أن أفوز به ، أن يرد فرعون إلى الكهنة الأرضى التي انتزعها منهم .. » . ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ .. إن الملك غضوب ذو كبرياء عنيف ، ولا يمكن أن يتقهقر أمام إنسان ، ولقد أمر بنزع الأرضى في ساعة غضب حطير ، ولكن ما من شك في أن أشياء غير الغضب تدعوه إلى احتفاظ بالأرضى في حوزته ، ومن يعرف قصر يبيجة وما ينفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهية هذة الأشياء ، لقد سموه بحق قصر يبيجة الذهبى ، لكثرة ما به من التحف الذهبية والأثاث المصنوع من خالص الذهب ، فلو سدت هذه الفوهة التي تبتلع أموال الملك ، لربما هان عليه أن يفكر في رد أرضى المعابد إلى الكهنة . ولم تكن تطمع في صرف الملك عن غانية يبيجة ، ولا فكرت في ذلك ، ولكنها كانت ترجو لإسرافه حدا . وتهددت عند ذلك وقالت لنفسها : الآن وضح غرضى ، فينبغى أن نجد وسيلة لإقناع الملك ، بالتحول عن الإسراف الشديد ، ثم نقنعه بعد ذلك برد الأرضى إلى أصحابها ، ولكن كيف نقنع

الملك ؟.. لقد أسقطته من حسابها . ولكنها تجده وراء كل حساب .. لقد فشلت في إقناعه ، ولن يكون سوفخاتب ولا طاهو بأسعد منها حظا ، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل إليه ، وقد أفلت منها هذا السؤال : « من القادر على أقناع الملك ؟ » فسرت في جسدها قشعريرة ألّية ، إذ حضرها الجواب سريعا ، ولكنه كان مروعا ألّيا ، ولم تكن تجهله . ولكنه كان من الحقائق التى يتجدد الألم بها كلما عاودتها الذاكرة ، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الإنسان المتحكم فى الملك ، المسير له ، غريمتها راقصة بيجة ، التى حكمت عليها بالعزلة إلى الأبد .. هذه هى الحقيقة المؤلمة تسأم التسليم بها كما يسلم الإنسان بحقائق الموت والشيخوخة والمرض العضال ..

وكانت الملكة امرأة حزينة ، ولكنها كانت ملكة عظيمة بعيدة الآفاق . وكانت تتناسى أنها امرأة ، وإن لم تستطع أن تنسى ذلك ، فظل قلبها يحوم حول زوجها الملك ، والمرأة التى خطفته من بين يديها . ولكنها لم تناس قط أنها الملكة ، ولم تغفل لحظة عن واجباتها ، وصدقت عزيمتها على إنقاذ العرش والاحتفاظ به فى مرتقاه فوق منال الهمس والتذمر ، ترى هل انتهت إلى هذا العزم بدافع واجبها فحسب ؟.. أم كانت هنالك دوافع أخرى ؟. إن أفكارنا مسوقة دائما للطواف بمن نحب ومن نكره ، فنجذب إليهم بقوة خفية كما تجذب الفراشة إلى نور المصباح . ولقد أحست من بادئ الأمر برغبة فى رؤية رادويس التى ترامت إليها أخبارها ، ولكن ما معنى هذا ؟.. أتذهب إليها لتحديثها فى شئون مصر ؟. أتذهب الملكة نيتوقريس إلى الراقصة التى تعرض نفسها فى سوق الهوى ، وتخطبها باسم حبا المزعوم للملك ، أن ترده عن الإسراف وتعيده إلى واجبه ؟.. يا لها من صورة بشعة !..

وكانت الملكة ضاقت بانزواتها ، وضغطت عليها عواطفها الخفية وواجبها المبين ، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل .. فلم تعد تستطيع صبرا ، وأقنعت نفسها بأن واجبها يدعوها إلى عمل شئ ما ، وإلى بذل محاولة أخرى .. وتساءلت

في حيرتها : « أأذهب حقاً إلى هذه المرأة ، وألفتها إلى واجبها ، وأطلب إليها أن تنقذ الملك من الهاوية التي يندفع إليها .. » وأسلمها تساؤلها هذا إلى حيرة طويلة ، وارتباك محزن ، هويها بها إلى الهوس والهذيان ، ولكنها لم ترجع عن فكرتها . وما كانت تزداد إلا تصميمها ، كانت كسيل يندفع في منحدر لا يستطيع عنه حولا . ولكنه يندفع مضطرباً مزبداً كاسراً .. فقالت في نهاية المعركة الناشبة : « سأذهب ... » .

* * *

وفي صباح اليوم الثاني لبثت تنتظر عودة الملك . واستقبلت الضحى في سفينة ملكية ، أبحرت بها قاصدة إلى قصر بيجة ، الأبيض الذهبي . وكانت تشملها حالة ذهول محزن ، ولم تكن ارتدت ثوباً ملكياً ، فأحسّت لذلك بسخط واستياء ، ورسّت السفينة على سلم القصر ، فهبطت إليه واستقبلها عبد من الرقيق ، فقالت له : إنها زائرة تطلب مقابلة ربة القصر ، فتقدمها إلى بهو الاستقبال ، وكان الجو بارداً ، وريح الشتاء ترسل هبات قارسة خلل أغصان تعرت كأذرع منخطة .. وجلست في البهو تنتظر وحدها . وكانت تشعر بغربة وحيرة ، وتحاول تعزية نفسها بقولها إنه يصبح أن تخفض الملكة من كبريائها في سبيل واجبها الأسمى ، ولكنها أحسّت بالانتظار يطول وتساءلت قلقة : « هل تدعها تنتظر طويلاً كما تفعل مع الرجال » . ولحقها جزع مؤلم ، وندمت على تسرعها بالحضور إلى قصر غريمها ..

وفاتت دقائق قبلما سمعت حفيف ثوب ، فرفعت رأسها المثقل ، فوقعت عينها لأول مرة على وجه رادوييس . كانت رادوييس بغير ريب . وقد أحسّت بلذعة ألم ويأس ، ونسيت لحظة همومها وما جاءت من أجله أمام الحسن الملوّك . وبغتت رادوييس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد .

وسلمتا باليد وجلست رادوييس إلى جانب ضيفتها الجليلة المجهولة ، ولما وجدت تلوذ بالصمت قالت بصوتها الموسيقي :

— نزلت قصر ك .. .

فردت الضيفة بصوت بالغ في جلاله قائلة باقتضاب :

— شكرا ..

فابتسمت الغانية وقالت :

— ليت ضيفتنا تؤذنا بشخصها الجليل .

وكان السؤال طبيعيا ولكن الملكة ضاقت به كأنها لم تكن تتوقعه . ولم تجد بدا

من إعلان نفسها ، وقالت بهدوء :

— أنا الملكة ..

ونظرت إلى المرأة لترى تأثير تصريحها في نفسها ، فشاهدت ابتسامة تغيض ،

وعينها تلمعان دهشة ، وصدرها يمتلئ ويتصلب كالأفعى إذا هوجمت .. ولم

تكن الملكة هادئة كما تبدو ، فقد تغير قلبها لدى رؤية غريمها ، وأحست بدماها

تلتهب وتحرق عروقها جميعا ، وشعرت بالكراهية والبغضاء ، وتواجهتا

كغريمتين تتحفران للقتال .. واستولت عليها حالة مريرة ملوثة بالغضب والحقد .

ونسيت الملكة إلى حين كل شيء إلا أنها بإزاء المرأة التي سلبتها سعادتها ، ونسيت

رادوييس كل شيء إلا أنها أمام المرأة التي تقاسم حبيبها اسمه وعرشه ..

وتبادل الحديث بينهما بادئ الأمر في ذلك الجو المشبع بالغضب والحقد

فجرى مجرى عنيقا محزنا ، وكانت الملكة مستاءة لعدم اكتراث غريمها ، فقالت

باستياء :

— ألا تدرين أيتها السيدة كيف تحين الملكة ؟ .. .

فجمدت رادوييس في مكانها ولفحت قلبها هبة من انفعال شديد ، وكادت

تنفجر لتنفس عن صدرها الكظيم ، ولكنها ملكت أعصابها ، وكانت تعرف

طريقة أخرى للانتقام فرسمت ابتسامة على وجهها وأحنت رأسها وهي جالسة ،

وقد أسندت رأسها إلى المقعد في تراخ واستهانة ، وقالت بلهجة لم تخل من

سخرية :

— إنه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة سيدكر لقصرى فى التاريخ ..
والتهب وجه الملكة غضبا ، فقالت بانفعال :
— لم تعدى الحقيقة ، فسيدكر قصرى هذه المرة ذكرا جميلا لا كما تعود أن
يذكره الناس .

فنظرت إليها بسخرية تستر غيظا وحنقا ، وقالت :
— ألا سحقا للناس .. أيدكرون بالسوء قصرا يجعله مولا هم مرتعا لقلبه
وهواه !!
وتلقت الملكة هذه الطعنة بمجد ، ونظرت إلى الغانية نظرة ذات معنى ،
وقالت :

— ليست الملكات كغيرهن من النساء يشغلن قلوبهن بالحب ..
— أحقا يا مولاتى .. كنت أحسب الملكة امرأة بعد كل شىء ..
فقالت الملكة بلهجة مغيظة :
— هذا لأنك لم تكونى ملكة فى يوم من الأيام ..
فامتلا صدر المرأة وتصلب ، وقالت :
— عفوا يا مولاتى ، إلى ملكة حقا .
فحدجتها بنظرة غريبة ، وقالت بسخرية :
— يا للعجب ، وعلى أى مملكة ! ..
فقالت بزهو كبير :

— على أوسع الممالك طرا .. قلب فرعون ..
وأحست الملكة بوهن وألم ، وخجل ، وأيقنت أنها انحدرت إلى مساجلة
الراقصة فى القتال ، وأنها خلعت ثوب الجلال والوقار ، وتبدت عارية فى جلد
المرأة الغيور التى تنافح لاسترداد رجلها ، وتمسك بتلابيب غريميتها وتكيد لها
كيدا . ونظرت لموقفها وموقف غريميتها . وهى تجلس منها جلسة متعجرفة ، وترد
سهمها إلى نحرها ، وتيه عليها بنحب زوجها وسلطانه ، فشعرت بغرابة وذهول

وحيرة ، وتمنت لو تكون في حلم ثقيل سخيف .
وأما عواطفها جميعا ، ودفتها في أعماق نفسها ، وارتدت سريعا إلى
طبيعتها المتعالية ، وجرى في عروقها مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين بغير
الكبرياء . فذكرت الغرض الذي جاءت من أجله ، وصدقت عزيمتها على أن
تكفر عما بدر منها .

وطالعت المرأة بوجه هادئ ظاهرا وباطنا ، وقالت لها :
— أيتها السيدة ، إنك لم تحسنى لقاء الملكة ، ولعلك أسأت فهم الغرض من
زيارتى ففرت وغضبت ، ولكن اعلمي علم اليقين أنى ما قصدت إلى قصرى لك شأن
يخصنى أنا ..

فسكتت رادويس وحدها بنظرة مليئة بالارتباب .
ولم يسكت عنها الحقد أو الغضب . وتناست الملكة ، وقالت في هدوء :
— لقد جئتك أيتها السيدة من أجل أمور أجل ، أمور تتعلق بالعرش المجيد ،
والسلام الذى ينبغى أن يسود العلائق بين صاحب العرش ورعاياه .
فقال رادويس بانفعال وسخرية :

— يا للأمور الجليلة ! وماذا أستطيع حيالها يا مولاتى ؟ .. ما أنا إلا امرأة يلذ
الحب أن يجعلها شغله الشاغل ..

فتنهدت الملكة ، وأغضت عن لهجتها ، وقالت :
— أنت تنظرين إلى أسفل ، وأنا أنظر إلى أعلى .. لقد حسبت أنك تغارين
على مجد مولاك وسعادته ، وإذا صدق حسابى ، فينبغى أن تهديه سواء السبيل .
إنه يقضى فى قصرى تلالا من الذهب ، ويتنزح من صفوة رجاله أراضيم حتى
ضج الناس بالألم ، وجأروا بالشكوى ، وقالوا إن مولانا ييخل علينا بمال يبعثه
على امرأة يحبها بغير حساب . فواجبك إن كنت تغارين على مجده حقا ، بين
كالشمس فى يوم صاف .. أن تصديه عن الإسراف ، وتقنعه برد المال إلى
أصحابه ..

ولكن رادوييس لم يدعها الغضب تفهم ما تقوله الملكة حتى الفهم ، وكان
وجدانها ثائرا وحقدتها شديدا ، فقالت بقسوة :
— إن الذى يحزنك حقا هو أنك ترين الذهب يتحول مع عطف فرعون إلى
قصرى ..

فانتفض جسمها ، وسرت فيه قشعريرة ، وصاحت بها :
— يا للبشاعة ..

فقالت رادوييس بغضب وخيلاء :

— لن يفرق شئ بينى وبين مولاي .

فغلب الصمت لسان الملكة ، وأحست بيأس شديد وجرح عميق فى
كبرياتها ، ولم تطمع فى فائدة من الانتظار ، فقامت واقفة وولت المرأة ظهرها ،
وسارت فى طريقها متألمة حزينة غاضبة ، لا تكاد ترى طريقها من شدة
الغضب .

وصعدت رادوييس أنفاسها مضطربة ، وأسندت رأسها الساخن إلى كفها ،
وراحت فى تفكير قلق حزين ..

قبس من نور

وتهدت رادوبيس من قلب مقروح ، وقالت لنفسها : « وأسفاه إني أناسي العالم ، ولكنه يأتني أن ينساني أو أن يدعني في طمأنينة بعد أن تطهرت من الماضي وأوشابه .. رباه .. أحقا أن الكهنة يتهمون قصرها بابتلاع أموالهم المغتصبة .. أحقا أنهم يسلقون حبها بالسنة من لب ؟. لقد انكششت في قصرها راضية ، وانقطعت صلاتها بالناس جميعا . وغاب عنها وجه الدنيا ، فلم يدر لها بحسبان أن يجرى اسمها بالسخط على السنة قوم أشداء ، وأن يتخذوا منها سلما يرتقون عليه إلى لمر حبيبها المعبود ، وهى ما تظن أن الملكة تبالغ ، وإن تنوعت الدوافع التى تسوقها إلى الكلام ، فقد ترمى إليها فى زمن مضى أن الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيهم ، وقد سمعت بأذنيها فى عيد النيل قوما من أولئك المشفقين يهتفون باسم خنوم حتب . فلا شك أن وراء العالم الهادئ الجميل الذى تعيش فيه عالما صاخبا تغلّى مراحله بالأحزان والأحقاد .. وتكدرت نفسها بعد صفاء دام أشهر طوالا لم تذق مثلها فى حياتها جميعا ، وأحست بأضلعها تحنو على حبيبها وتدر عطفها وحبا ، وذكرت فى غمرات حزنها الطارئ ما قال آتى يوما من أن الحرس الفرعونى هو القوة الوحيدة التى يعتد بها الملك ، فتساءلت فى هلع : لماذا لا تجند جنود ؟ لماذا لا يعيى معبودها جيشا عمرما ؟..

وقضت سحابة نهارها فى مخدعها كهيبة ، ولم تذهب كعادتها إلى الحجرة الصيفية لتجلس أمام المثال بنامون ، لأنها لم تكن تطيق الاجتماع بإنسان . ولا القعود بلا حراك أمام عيني الشاب المنهوتين .. فلبث وحدها حتى الأصيل ، ولم تذق للراحة طعما حتى رأت حبيبها المعبود يلج باب مخدعها ، يرقل فى ثيابه الفضفاضة فتهدت من أعماق قلبها ، وفتحت له ذراعيها وضمها إلى صدره

العريض كما يفعل كل مرة ، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد ، ثم جلس إلى جانبها على الديوان الوثير ، وكانت نفسه تفيض بذكريات جميلة أثارها في قلبه مشهد النيل الذى حمل سفينته منذ حين قليل : فقال لها :

— أين الصيف الجميل ؟.. أين ليلاليه الساهرة ، إذ تشق بنا السفينة جبهته المتجمدة الدكناء ، وإذ نسلم فى المقصورة أنفسنا للنسيم والهوى . ونستمع لعزف العازفات . ونشاهد بأعين حاملة رقص الراقصات ؟ ولم تكن تستطيع أن تجاربه فى تذكره ، ولكنها لم ترض أن يحس بالعزلة فى عاطفة أو فكر ، فقالت :

— مهلا يا حبيبى ، ليس الجمال فى الصيف ولا فى الشتاء ، ولكنه فى حيننا ، وستجد الشتاء دفئا حنوننا ما دام وقوده .

فضحك ضحكته العظيمة التى يضطرب لها وجهه وجسمه ، وقال :

— ما أجمل حديثك .. إنه أشهى إلى قلبى من مجد الدنيا جميعا .. ولكن ماذا تقولين فى الصيد والقنص ؟.. سنذهب مع الغد إلى سفح الجبل ، ونعدو فى أعقاب الغزلان ، ونلهو حتى نشبع نفوسنا المنهومة ..

فقالت وقد غلبها الشرود :

— لتكن مشيئتك يا حبيبى ..

فحدجها بنظرة فاحصة ، وأدرك لتوه أن لسانها يحادثه وقلبها يتبعه بعيدا ، فقال :

— رادوييس .. أقسم لك بالنسر الذى ألف بين قلوبنا أن فكرا يسلبنى اليوم عقلك ..

ف نظرت إليه بعينين حزبتين وأعيها القول ، فقال وقد بدا عليه الاهتمام :

— صدق حدسى فعيناك لا تكذبانى ، ولكن ماذا تمسكين عنى ؟.

فتهدت من أعماق قلبها ، وعبثت يمناها بعباءته وهى لا تدري ، ثم قالت بصوت خافت :

— إلى أعجب لحياتنا ، فلشد ما ننسى ما حولنا كأننا نعيش في عالم قفر غير معمور .

— نعم ما نصنع يا حبيبتي ، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيج الفارغ والمجد الكاذب ، ولبثنا ضالين حتى هداانا الحب ، فمالك تتذمرين ؟ .
فتهدت مرة أخرى وقالت بحزن :

— ماذا ينفعنا النوم إذا كان من حولنا أيقاظا لا يغمض لهم جفن ؟
وقطب جبينه ، واتمعت عيناه بنور خاطف ، وأدرك بقلبه وساوسها ، فسألها بقلق :

— ما الذى يحزنك يا رادويس ؟ .. صارحيني بأفكارك . فحسبنا ما أضعنا فى غير حديث الحب .
فقالت :

— لست اليوم كأمس ، فقد نقل إلى بعض عبيدى الذين يمشون فى الأسواق حديث قوم غاضبين يحزن فى نفوسهم أن مولا هم حرمهم من أراضهم ، ويضاعف من آلامهم أن أموالهم تنفق على قصرى هذا ..

فتبدى الغضب على وجه فرعون ، ولاح له شبح خنوم حتب يطل على جنته المطمئنة ، فيكدر صفوها ، ويزعج أمتها . واشتد به الغضب فصبغ وجهه بلون النيل فى إبان فيضانه ، وقال لها بصوت متهدج :

— أهذا الذى يحزنك يا رادويس ؟ .. الويل لأولئك المتمردى لا يمسكون عن غيهم ؛ ولكن لا تكدرى صفونا .. ولا تبالى بآلامهم .. دعهم لشأنهم ، وافرغى لى ..

فأحاطت يده بكفها ، وضغطت عليها بحنو ، ونظرت إليه بعينين ضارعتين ، وقالت :

— أنا قلقة حزينة ، ويؤلىنى أن أكون سببا لشكوى قوم منك .. وكأنى أحس بخوف غامض لا أدرى ما كنهه .. والمحب يا مولاى شديد المخاوف .

فقال باستياء وغضب :

— كيف تخافين ، وأنت بين يدي ؟.

فقال بتوسل :

— مولاي .. إنهم يرمقون حبنا بعين الحسد ، وينفسون على هذا القصر الحب والطمأنينة والنعم ، ولقد قلت لنفسى فى حزنى وقلقى : ما للحب وهذا الذهب الذى ينثره مولاي على ؟ ولا أنكر عليك أنى كرهت الذهب الذى يؤلب قوما علينا . ألا ترى أن هذا القصر سيظل جنتنا ولو تعرت أرضه ومسخت حوائطه ؟ .. إذا كان بريق الذهب يا مولاي يخطف أبصارهم فاملاً به أيديهم يعموا ويزدردوا ألسنتهم ..

— وا أسفاه يا رادوييس ، إنك تذكريننى بمحدث أكره سماعه .

فقال بتوسل :

— مولاي إنه غشاوة فى سماء سعادتنا ، فاعمها بكلمة .

— وما الكلمة هذه ؟.

فقال بفرح ، وقد ظنت أنه يلين ويرضخ :

— أن ترد إليهم أراضيتهم .

فهز رأسه بعنف ، وقال بلهجة شديدة :

— أنت لا تدرين من الأمر شيئاً يا رادوييس ، لقد قلت كلمتى فلم تحترم ، ونفذت على كره ، ولم يسكتوا عن الاحتجاج ، وما انفكوا يتحدوننى ، فالتسليم لهم هزيمة لأرضاهما ، وأتمنى دونها الموت ، أنت لا تدرين معنى الهزيمة فى نفسى ، إنه الموت ، ولو فازوا على بنيل بغيتهم لوجدتنى رجلاً غريباً حزينا أسيفاً لا قدرة له على الحياة ولا الحب .

ونفذت كلماته إلى قلبها ، فشدت على يديه بقوة ، وأحسست برجفة تسرى فى أوصالها . وقد هان عليها كل شئ إلا أن يصبح لا قدرة له على الحياة والحب . ونبتت رغبته ، وأسفت على توسلاتها ، وصاحت بصوت متهدج :

— لن تذلل أبدا .. لن تذلل أبدا .

فابتسم إليها بخنو ، وقال :

— نعم لن أزل .. ولن تكوني القضاء الذى يسومنى الذل أبدا ..

فقالته وهى تلهث ، وقد ارتعش جفناها فوق دمعة حارة :

— لن تذلل .. ولن تهزم .

وأسندت رأسها إلى صدره ، واستنامت إلى خفقان قلبه . وأحسست فى غيبوبتها بأنامله تعبت بخصلات شعرها وخديها ، ولكنها لم تطمئن طويلا ، فقد أزعجها خاطر من الخواطر التى كدرت يومها ، فرفعت إليه رأسها ، ونظرت إليه بعينين قلقيتين ، فقال لها :

— مالك ..

فقالته بعد تردد :

— يقولون لإنهم فئة قوية ، ذات سلطان على قلوب الناس وعقولهم .

فابتسم قائلا :

— ولكنى الأقوى ..

فترددت هنيهة ثم قالت :

— لماذا لا تعبى جيشا قويا يأتى بأمرى ؟

فابتسم الملك ، وسألها :

— أرى الوسوس تعاونك .

فتنهدت فى غيظ ، وقالت :

— ألم يبلغ أذن أن الناس همس فيما بينها بأن فرعون يأخذ أموال الآلهة

وينفقها على راقصة ؟ همس الناس إذا تجمع صار صراخا .. إنه كالشر يندلع لهيبا .

— يا لك من متطيرة متشائمة ..

فعادت تسأله بالحقاف :

— لماذا لا تدعو الجنود ؟.

فنظر إليها نظرة طويلة ، وقد بدا عليه التفكير ، ثم قال :

— إن الجنود لا تدعى بغير سبب .

وبدا على وجهه الغضب ، فاستدرك :

— إنهم يضللون الأفكار ، ويشعرون بغضبى عليهم . فإذا أمرت بالتجنيد

لحقهم الذعر . وربما هبوا يائسين للدفاع عن أنفسهم ..

ففكرت مليا ، ثم قالت بصوت حالم ، وكأنها تحدث نفسها :

— اخلق العلل وادع الجنود .

— إن العلل تخلق نفسها بنفسها .

فأحسّت يأسا ، وأحنت رأسها الحزين ، وأغمضت عينيها . ولم تكن ترجو

أملا ، ولكن لاح لها في الظلام الدامس خاطر سعيد كلمح البصر ، فبهتت

وذملت ، وفتحت عينيها ، فإذا الفرح يتألق فيهما . ودهش الملك ، ولكنها لم

تباله ، وقالت وهى لا تملك عواطفها :

— وجدت سببا .

فنظر إليها متسائلا ، فاستطردت :

— قبائل المعصايو .

فأدرك قصدها ، وهز رأسه يائسا ، وتتم قائلها :

— لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام .

ولكنها لم تياس ، وقالت :

— من يدري بما يجرى وراء الحدود ؟ إن لنا هنالك أميرا حاكما من رجالنا .

مث إليه برسالة سرية مع رسول أمين يزعم وجود ثورة وقتال ، ويرسل في

النجدة ، فسمع صوته المأل ، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال

وب ، حتى إذا اجتمع لواؤها إليك ، وصلت بها جناحك ، وأشهرتها سيفا

يدك تعلّى به كلمتك وتفرض طاعتك .

واستمع لها فرعون في ذهول ودهشة ، وقد عجب أيضا لأنها لم تخطر له ببال . على أنه لم يكن يفكر كثيرا في تكوين جيش قوى لا تدعو إليه الحالة الحربية ، واعتقد — وما زال يعتقد — أن تدمير الكهنة لا يمكن أن يبلغ من الخطورة حدا يستدعى معه جيشا كبيرا القمعه . ولكنه بات يعتقد أن عدم وجود هذا الجيش هو ما يطمع القوم فيه ويغريهم برفع الاتهامات وإعلان الشكوى ، ووجد فكرة رادوييس السهلة فرصة سعيدة ، ومال إليها بجامع قلبه . وكان إذا مال إلى شيء تعلقه ، وانشغل به واندفع في سبيله برغبة جنونية لا يلوى على شيء . لهذا نظر إلى عيني رادوييس بفرح وابتهاج ، وصاح بصوت قوى :

— نعم الفكرة يا رادوييس ! نعم الفكرة !

فقلت بفرح غريب :

— هذا ما يتحدثني به قلبي .. وإنها لسهلة التحقيق سهولة تناولى هذه القبة من فيك الحبيب .. وما علينا إلا الكتان .

— نعم يا حبيبتي .. ألا ترين أن عقلك كقلبك كنز ثمين ؟ ، وحقا ما علينا إلا الكتان ، واختيار رسول أمين ، فدعى لى هذا .

سأله :

— من عسى أن يكون رسولك إلى الأمير كارفرو ؟

فأجابها ببساطة :

— سأختار حاجبا من رجالى المخلصين .

. وكانت لا تطمئن إلى قصره العظيم ، لغير ما سبب معقول ، ولكن بدافع من نفور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة . ولم تستطع قط أن تعبر عن هواجسها ، وتحيرت فيمن عسى أن يكون الرسول إذا لم يكن من رجال القصر . وزاد من حيرتها أنها أدركت أن اقتضاح السر معناه شديد الخطر ، حتى ليكبر ذكره على الخاطر . وهمت في لحظة يأس بالعدول عن مشروع حرج شديد الخطورة كهذا ، ولكنها ذكرت بغتة الشاب الطفل ذا العينين الصافيتين الذى يعمل

بالحجرة الصيفية ، وأحست إلى ذكره بطمأنينة غريبة ، فهو الصفاء وهو السذاجة والطهارة ، وقلبه معبد تقدم لها فيه طقوس العبادة صباح مساء .. فهو رسولها .. وهو الأمين . ولم تتردد .. نالت له بثقة :

— دعنى أختار الرسول بنفسى .

فاستضحك الملك وقال :

— يالك من رعديد اليوم .. لست كعهدى بك .. ومن عسى أن تختارى يا

ترى ؟.

فقالت بخشوع :

— مولاي .. المحب شديد المخاوف ، ورسولى فنان يزخرف الحجرة الصيفية ، له سن الشباب ونفس طفل وقلب عذراء طاهرة ، ويخلص إلى إخلاصا لا مزيد عليه . ومزيتة الظاهرة أنه لا يثير الشبهات ولا علم له بشيء ، وإنه لخير لنا أن يحمل رسالتنا من لا يدري بأمرها الشديد الخطر .. فلو جهلنا الخوف لاقتحمنا المهالك آمين .

فهز الملك رأسه راضيا . وكان يكره أن يقول لها لا . وظنت رادوييس أن السحابة انقشعت وإذا كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذى قصدت إليه بادئ الأمر ، ففرحت وأطلقت لفرحها العنان ، وأيقنت أنها ستستطيع عما قريب أن تذهل عن الدنيا فى قصر الحب هذا ، تاركة أمر حمايتها لجيش عرمرم لا يهاض له جناح .

وحنت رأسها بالأحلام ، فراق الملك جمال شعرها ، وكان يحبه ، فعبث بأنامله فى عقدته فانحلت وسال على كتفها ، فتنشقه وجمعه بين يديه ، وغمر به رأسه ووجهه فى دعاية حتى لم يبد منها شيء .

الرسول

وأشرق صباح اليوم الثانى ، وكان الجو باردا والسماء متلفعة بأردية السحب ، تبيض وتتوهج فوق منبع الشمس كوجه برىء يعلن ظاهره عن باطنه ، وتظلم الآفاق البعيدة كأنها ذيول ليل نسيها وراءه بعد إدباره ..

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح إليه قلبها ، ولا يرضى عنه تطهرها يوم تطهرت فى المعبد ، وأقسمت ليزول الماضى بشوائبه . كان الذى ينتظرها أن تتخدع بنامون ، وتعبث بعواطفه ليخدم حبها ويحقق غرضها . على أنها لم تتردد قط لأنه كان ينبغي أن تسبق الزمن ، وكانت تمحو على حبها حنوا كبيرا فلم تبال أن تقسو فى سبيلهما قساوة مرة .. وغادرت مخدعها إلى الحجرة الصيفية عظيمة الثقة لأن التفرير بينامون كان أمرا سهلا لا يكلف مكرًا ..

وسارت على أطراف أصابعها ، فوجدت الشاب يتطلع إلى صورتها ، ويترنم مغنيا أغنية كانت تغنيها فى الأماسى الخوالى مطلعها :

إذا كان حسنك يصنع المعجزات
فلماذا لا يقدر على شفاى

· وأخذت بغنائها ، ولكنها انتهزت الفرصة ، وغنت تم أغنيته :

هل أعبت بما لا علم لى به
والأفق مستر خلف سحب
وعسى أن تكون المدخر لقلبي

فتحول الشاب إليها فزعا مسحورا ، فتلقته بضحكة عذبة ، وقالت له :

— إن لك صوتا عذبا ، فكيف أخفيته عنى طوال هذه الأيام ؟

فتصاعد الدم إلى وجنتيه قانيا ، وارتجفت شفتاه ارتباكا ، وقابل تلافها

بدهشة .

وأدركت المرأة ما يدور بخلده ، فقالت تستدرجه :
— أراك تلهو بالغناء ، وتترك العمل ..

فبدأ عليه الإنكار ، وأشار إلى صورتها المحفورة . ونتم : « انظري » .
وكانت الصورة قد استوت وجها جميلا لا تنقصه الحياة ، فقالت بإعجاب :
— إنك لقادر يا بنامون .

فتهد الشاب ارتياحا ، وقال لها بامتنان :
— شكرا لك يا سيدتي .

فقالت تعطف الحديث إلى غايتها :
— ولكنك قسوت عليّ يا بنامون .

— أنا .. كيف يا مولاتي ؟
فقالت :

— خلقت لى نظرة جبارة ، وأنا أشتى أن أكون كالحمامة .

فلزمه الصمت ولم يين ، ففسرت صمته على هواها ، وقالت :

— ألم أقل إنك تقسو على .. فكيف ترانى يا بنامون .. أجبارة قاسية جميلة
كهذه الصورة ؟ يا لها من صورة ! إلى أعجب كيف ينطق الحجر . ولكنك
تحسب أن قلبى لا يشعر كهذا الحجر ، أليس كذلك ؟ لا تهم بالفرار فهذا هو
اعتقادك . ولكن لماذا يا بنامون ؟

ولم يدر ما يقول ، فغلبه الصمت ، وكانت توحى إليه بأفكارها ، فيصدقها
وينساق إليها ويشند ارتبأكه ، واستدركت المرأة :

— لماذا يا بنامون تحسبنى قاسية ؟. إنك تؤمن بالظواهر ، لأنك لا تقدر
بطبعك على إخفاء ما يضطرب به صدرك ، وقد قرأت وجهك كصفحة من
كتاب مفتوح . أما نحن فلنا طبيعة أخرى ، والصراحة تضيع علينا لذة الفوز ،
وتفسد أجمل ما خلقت الآلهة لنا .

وساءل الشاب نفسه حائرا : ماذا تعنى يا ترى ، وهل يستطيع أن يفهم من حديثها ما تدل عليه كلماتها .. أما كانت تجلس أمامه تائهة القلب والعينين ، لا تحس بالنار الملتهبة في كيانه ، فما الذى غيرها ؟ لماذا تحدثه هذا الحديث الحلو ؟ لماذا تلج إلى الأسرار الحلوة التى تحرق قلبه ؟! هل تعنى حقا ما تقول ! وهل تعنى حقا ما أفهمه ؟!

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت :
— آه يا بنامون أنك تقسو علىّ بدورك ، وآية ذلك الصمت الذى ترد به علىّ .

فحدها بنظرة والهة ، وكاد من الفرح تفر الدموع من عينيه ، وقد أيقن صدق ظنونه ، فقال بصوت متهدج :
— الدنيا لا تسعنى كلاما .

فتهدت ارتياحا أن حلت عقدة لسانه ، وقالت بصوت حالم :
— وما حاجتك إلى الكلام ؟. فلن تقول شيئا أجهله .. أيتها الحجرة لقد شاهدتنا أشهراً ، وتركنا في جسمك أثرا من قلوبنا خالدا .. نعم ها هنا عرفت سرا رهيا ..

وتفرست في وجهه زمنا قصيرا ، ثم قالت :
— ألا تعرف يا بنامون كيف عرفت سر قلبى ؟. على حين بغتة عجيبة كانت لدى رسالة خاصة أريد أن أبعث بها إلى إنسان في مكان قصي ، وأن أبعث بها مع رسول ترتاح إليه نفسى ، ويثق فيه قلبى . وكنت جالسة وحدى أستعرض أمام ناظرى أقواما من الرجال والنساء ، ومن العبيد والأحرار ، وما أحس في كل مرة إلا بالجفاء والقلق . ثم لا أدري إلا وخیالى يتسلل إلى هذه الحجرة ، ووجدتنى فجأة أذكرك يا بنامون ، فترتاح نفسى ويطمئن قلبى ، بل أحسست بما هو أعظم من هذا ، وهكذا عرفت سر قلبى .

فغمر الفرح وجه الشاب ، وأحس بالسعادة إلى حد الذهول ، فجثا على

— ١٣٦ —

ركبته أمامها ، وهتف من أعماق قلبه :

— مولاتي !

فوضعت كفها على رأسه ، وقالت بحنان :

— هكذا عرفت سر قلبي ، وإنى لأعجب كيف لم أعرف هذا منذ أجل طويل .

فقال بنامون ، وكان يتيه في غمرات الزهول :

— مولاتي ، أقسم لقد شهدني الليل وأنا ذوب عذاب ، وهاك الصبح يلقياني نسمة من سعادة معطرة . لقد أخرجتني كلمة نطقت بها من الظلمات إلى النور ، ونقلتني من دياجير اليأس إلى سحر السعادة . لقد أحبت نفسي بعد أن أشفيت على الفناء .. أنت سعادتي وحلمي وأمل .

وكانت تصغي إليه في صمت حزين ، وقد شعرت بأنه يصلي صلاة حارة ، وإنه يهيم في جهالة الأحلام الساذجة المقدسة ، فوجت وعاودها شيء من الألم والندم . ولكنها لم تستسلم طويلا لعواطفها التي أثارها في قلبها بهيامه فقالت في دهاء :

— إنى أعجب كيف لم أعرف قلبي منذ أجل طويل ، بل إنى أعجب للمصادفات التي لم توفقني إلى سره إلا حين حاجتني إلى إرسالك إلى مهمة بعيدة ، فكأنها دلتنى عليك ، وحرمتني منك في لحظة واحدة .

فقال الشاب بلهجة العبادة :

— سأفعل ما تريدن بروحي وقلبي .

فسألته بعد تردد :

— وإن كان ما أريد سفرا إلى بلد لا تبلغه إلا بشق الأنفس ؟

— لن يشق عليّ منه إلا أنى لا أراك كل صباح .

— فليكن غيابا إلى حين . سأعطيك رسالة تودعها صدرك ، وتذهب إلى حاكم الجزيرة بكلمة مني ، فيدلك على الطريق ، ويذل لك الصعاب .

وستسافر مع قافلة لا ينبغي لأحد منها أن يطلع على ما في صدرك حتى تبلغ حاكم النوبة ، فتسلمها له يدا بيد ، ثم تعود إلى .

وأحس بنامون بسعادة جديدة يمازجها شعور بالنخوة والخيلاء ، وكانت يدها على كتب منه ، فهوى بفمه عليه ولثمها بشوق ووجد ، ورأته يرتجف بقوة حين لمست شفتاه يدها .

وفي طريق العودة عاودها إحساس حزين ، حتى قالت لنفسها : أما كان أدنى إلى الرحمة أن أترك مولاي يختار رسوله ، من أن أعيث بقلب هذا الشاب ؟ . على أنه كان سعيدا ، أسعدته كلمة كاذبة ، بل كان في حالة يحسد عليها السعداء حقا ، وليس لها أن تحزن ما دام لا يعرف الحقيقة ، حتى تئأس من لياذاها بالكذب !! .

الرسالة

وفي مساء اليوم نفسه جاء فرعون بهز في يده رسالة مطوية ، يشرق وجهه بنور السعادة ، فمدجتها بنظرة غريبة وتساءلت : ترى هل يكتب لفكرتها بالنجاح والتوفيق ، وتسير الأمور وفق أحلامها ! وبسط الملك الرسالة ، وقرأتها بعينين مبتهجتين ، وكانت موجهة إلى الأمير كارفرو حاكم النوبة من ابن عمه فرعون مصر . وقد صارحه فيها بمتاعبه ، وبرغبته في تعبئة جيش جرار دون أن يثير مخاوف الكهنة أو يوقظ حذرهم ، وطلب إليه أن يبعث إلى مصر برسالة استغاثة مع رسول أمين ذى صفة رسمية ، يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن حدود الأملاك الجنوبية ، ولقمع ثورة وهمية يزعم أن قبائل المعصايو أشعلت نيرانها ، واجتاحت بها البلدان والقرى .

وطوتها رادوبيس مرة أخرى ، ثم قالت :

— إن الرسول على أهبة الاستعداد .

فقال الملك مبتسما :

— والرسالة جاهزة .

وبدا على وجهها التأمل والأحلام ، ثم سألت :

— ترى كيف يقابلون رسالة كارفرو ؟

فقال الملك بلهجة اليقين :

— ستهمز القلوب جميعا ، وقلوب الكهنة أنفسهم ، وسوف يدعو الحكام إلى

تجنيد الرجال من جميع أطراف البلاد ، فلا يلبث الجيش الذى يناط به أملنا أن يأتينا بعده وعنده .

واستخفها الفرح وسألته بلهفة :

— وهل ننتظر طويلا ؟

— أماما شهر انتظار يقطعه الرسول في الذهاب والإياب .

ففكرت هنية ، ثم عدت على أصابعها ، وقالت :

— إذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل .

فضحك الملك وقال :

— هذا فال حسن يا رادوبيس ، فعيد النيل هو عيد حبنا ، وسيكون عيد

الفوز والطمأنينة .

وتفألت هي خيرا وكانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تفقد أملا عزيزا في ذاك اليوم

الذى تعده بحق مولدا لسعادتها وحبها . وأيقنت أن اقتران عودة الرسول به ليس

محض مصادفة ، ولكنه تدبير حكيم من يد آلهة تبارك حبها وتعطف على آمالها .

ورمقها الملك بنظرة إعجاب وإكبار ، ثم قبل رأسها وقال :

— لله هذا الرأس الثمين .. لشد ما أعجب به سوفخاتب ، ولشد ما أعجب

بالفكرة التى أبدعها ، فلم يملك نفسه أن قال لى : يا له من حل يسير لمشكل

عسير ، كأنه زهرة مونقة تخرج من ساق ملتوية ، وأغصان شديدة التعقيد .

وكانت تظن أنه كتم الخير ولم يبح به لإنسان، حتى ذلك الوزير المخلص

سوفخاتب ، فسألته :

— هل علم الوزير بسرنا ؟

فقال ببساطة :

— نعم : إن سوفخاتب وطاهو بمثابة عقل وقلبي ، فلا أكنهما شيئا .

ودوى اسم طاهو في أذنيها دويا شديدا ، فتجهم وجهها ، وبدا القلق في

عينها ، وسألته :

— وهل علم به الآخر ؟

فقال الملك ضاحكا :

— لشد ما تحاذرين يا رادوبيس ، ولكن اعلمى أنى لا آمن نفسي على شيء لا

آمنهما عليه .

فقلت :

— إن حنرى يا مولاي لا يرتقى لإنسان تثق فيه هذه الثقة .

ولكنها ذكرت بالرغم منها طاهو في ساعة وداعه الأخير ، ودوى في أذنيها صوته الأجلش ، وهو يهدر غاضبا حانقا يائسا ، وتساءلت ترى هل ما يزال يعلق بنفسه شيء ؟!

ولكن الوسوس لم تجد فرصة للعبث بقلها ، لأنها كانت تنسى نفسها بين يدي حبيبها .

* * *

وجاء في الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفعا بعباءته ، غارقا في القلنسوة حتى الأذنين ، وكان خداه متوردين ، وعيناه لامعتين بنور فرح سماوى .. فسجد بين يديها في صمت وخشوع ، وقبل حاشية ثوبها في عبادة ، فداعبت رأسه بأناملها ، وقالت له بخو :

— لن أنسى يا بنامون أنك لأجلى هجرت الراحة والسكينة .

فرفع إليها وجهه الجميل البرىء ، وقال بصوت متهدج :

— فى سبيلك يهون كل شاق ، فلتعنى الآلهة على تحمل ألم الفراق .

فقلت له مبتسمة :

— ستعود سعيدا ناضرا ، وستنسى فى أفراح المستقبل أحزان الماضى جميعا .

فتهد قائلا :

— طوبى لمن يحمل فى قلبه حلما سعيدا يؤنس وحدته ، ويرطب جفاف

ريقه .

فابتسمت له ابتسامة مشرقة ، وأمسكت بيدها الرسالة المطوية وسلمتها إليه

وقالت :

— لا أوصيك بالخطر .. أين تودعها ؟

فقال :

— على قلبي يا مولاتي تحت منطقتي .

فسلمت إليه رسالة أخرى صغيرة ، وهي تقول :

— هاك رسالة أخرى ادفع بها إلى الحاكم آني يمهد لك السبيل ، ويدلك على

أول قافلة تقوم .

ثم حم الوداع ، فازدرد ريقه واضطرب ، وبدأ عليه الارتباك والهيام ، فمدت له يدها ، فتردد لحظة ، ثم وضعها بين يديه ، وكفاه ترتعشان كأنما يلمس نارا موقدة ، ثم ضمها إلى صدره حتى سرت إليها حرارته ونخفقاته . ثم مضى راجعا فغيبه الباب ، وقد شيعته بنظرة حائرة ، ولسان يلهج بالدعاء الحار .

كيف لا ، وقد ربط على قلبه أملا تتعلق به حياتها .

طاهو يهدى

وكان الانتظار مرا من أول عهدا به ، لأنه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة :ليت الملك لم يفش سر الرسالة لإنسان . كانت تتمنى هذا بخرقه لم يخفف من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقربين . ولم تكن وساوسها رية صريحة ، ولكن ثمة قلق دفعها إلى التساؤل : ترى ماذا يحدث لو سعى ساع بفحوى الرسالة إلى رجال الكهنوت ؟ هل يترددون في الدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الشر المبيت .. رباه .. إن إفشاء سر الرسالة أمر خطير .. لا يجروء على إدراك كنه خطورته عقل وطنى . وأحست بقشعريرة تسرى في جسمها الرقيق ، وهزت رأسها بعنف تطرد عن خيلتها أوهاام الوسوس ، وهمست لضميرها تسكته قائلة : إن كل شيء يسير وفق الخطة التى رسمناها ، وليس من داع إلى إثارة هذه المخاوف ؛ وما هذه الأوهام المرتعبة إلا وساوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام .

على أنها كانت لا تكاد تطمئن حتى يحوم خيالها مرة أخرى حول هاتيك المخاوف ، وتخال أنها ترى وجه طاهو الغاضب المتقلص من الألم ، وأنها تسمع صوته الأجش ذا النبرات المتألمة المجروحة . وقد عانت من مخاوفها الآلام ، ولكنها لم تجسر على تفسيرها أو إزالة الغموض الذى يكتنفها .

ترى هل يحق لها أن تحشى طاهو أو أن تسيء به الظن ؟ .. إن كل الدلائل تدل على أنه نسى . ولكن هل كان بوسعه أن يفعل شيئا وامتنع عنه طواعية ؟ . فما كان يستطيع أن يطرق بابها بعد أن أصبح حرما محرما ، وما كان بوسعه إلا الإذعان

والتسليم ، ولا يعنى هذا أنه نسى أو برأ .

ترى هل يبقى شيء من زوايا الماضي عالقا بقلبه ؟ .. إن طاهو جبار عنيد ، وقد يستحيل الحب في قلبه حقدا موريا ، فيتحفز عند سنوح الفرصة للانتقام .. على أنها لم تنس في أحزانها أن تنصف طاهو ، وأن تذكر له إخلاصه وتفانيه في حب مولاه ، وأنه رجل الواجب الذى لا يحيد به عن سبيله نزوع ولا مطمع . كان كل شيء يدعو إلى الطمأنينة ، ولكن وساوسها لم تدعها في طمأنيتها قط ، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل فقط ، فكيف لها بالانتظار شهرا أو يزيد ؟ .. لقد لحقها الفزع ، وخطر لها خاطر غريب أن تدعو طاهو إلى مقابلتها . وكان خاطرا لا يحظر لها على بال قبل يوم ، أما اليوم فقد وجدت به راحة وإليه رغبة . وكان يدفعها إليه ما يدفع الإنسان إلى احتضان خطر يتقيه ولا يجد سبيلا إلى دفعه أو الإفلات منه ، وفكرت في ذلك تفكيراً مضطرباً ، وقالت لنفسها : فلأدعه ولأحادثه لاستبطن ذاته ، وعسى أن أفوز بدفع شره — إن كان هناك شر يدفع — فأنقله من نفسه ، وأنقذ مولاي من شره ، وما لبثت رغبته أن تحولت إلى عزيمة لا تقبل التردد ، فاستمسكت بها بكل ما أوتيت من قوة وقلق .. ودعت من فورها شيث وأمرتها بالذهاب إلى قصر القائد طاهو واستدعائه . وذهبت شيث وانتظرت هى في بهو استقبالتها على قلق ؛ ولم يكن يداخلها ريب في تلبية لدعوتها . وذكرت في انتظارها اضطرابها ، وقرنت به ما كانت عليه من القوة والبرود في الأيام الخوالي . فأدركت أنها منذ الساعة التي نزل فيها الحب بقلبها ، انقلبت امرأة ضعيفة قلقة ، يطرد النوم عن عينيها وهم ساخر ، أو قلق كاذب ..

وجاء طاهو كما توقعت ، وكان مرتديا لباسه الرسمى ، فوجدت في ذلك معنى مطمئنا ، فكأنه يقول لها إنه نسي رادوييس غانية القصر الأبيض ، وأنه

يحظى الآن بمقابلة صديقة مولاه فرعون .

وأحنى القائد رأسه باحترام وإجلال ، وقال بهدوء وبلا أدنى تأثر :

— أسعد الرب أيامك أيها السيدة الجلييلة .

فقالت وهي تنفرس في وجهه :

— وأيامك أيها القائد الجليل ، وإنى أشكرك على قبول دعوتي .

فقال طاهو وهو يحنى رأسه :

— إني رهن إشارتك يا سيدتى .

رأته كما كان قويا متين الأسر ، دموى البشرة ، ولكن لم يخف عن عينيها الفاحصتين أن ترى تغيرا طارئا لا يمكن لغير عينيها أن تراه . وجدت حول وجهه هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها ، وأطفأت روحا شاملا كان يشع من وجه الرجل .. وأشفقت من أن يكون ذلك بسبب ما حدث في تلك الليلة الغريبة التى فصلت بينهما منذ قريب من عام .. وأأسفاه كان طاهو كجوعاصف ، فأمسى كجوراكند .. وقالت له :

— إني دعوتك أيها القائد لأهنتك على الثقة العظيمة التى يوليك إياها الملك .

فبدت الغرابة على وجه القائد وقال :

— شكرا لك يا سيدتى ، هذه نعمة قديمة منت بها على الأرباب .

فابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت بدهاء :

— ولأشكرك على ما أسديت إلى فكرتى من جميل الشاء .

وتفكر الرجل لحظة ، ثم تذكر فقال :

— لعلك يا سيدتى تعين الفكرة النيرة التى أوحى بها عقلك الراجع ؟.

فهزت رأسها أن نعم ، فاستطرد :

— إنها فكرة رائعة ، جديرة بكائك اللامع .

فقلت وهى لا تبدى السرور :

— إن تحقيقها يكفل لمولانا القوة والسيادة ، وللوطن السلام والطمأنينة .

فقال القائد :

— هذا حق لا ريب فيه ، وهو ما جعلنا نهلل لها ونكبر .

فنظرت إليه نظرة عميقة وقالت :

— سيأتى يوم قريب نحتاج فكرتى إلى قوتك لتحقيقها ، وتتويجها بالنجاح

والفوز .

فأحنى الرجل رأسه وقال :

— شكرا لك على ثقتك الغالية .

وصمتت المرأة قليلا . كان طاهو وقورارزينا جادا ، لا كما عهدته قديما ، ولم تكن تنتظر منه غير ذلك ، واستشعرت نحوه بطمأنينة وثقة . وكانت تلح عليها رغبة قوية فى أن تفتاحه فى الموضوع القديم ، وأن تسأله العفو والنسيان ، ولكن خانها البيان ولم تدر ما تقول ، وغلبتها الحيرة فأشفت من الزلل ، وتركت هذا الحديث كارهة حائرة ، ورأت فى اللحظة الأخيرة أن تعلن له عن عواطفها الطيبة بطريقة أخرى ، فمدت له يدها وقالت وهى تبسم إليه :

— أيها القائد الجليل ، إلى أمد لك يد التقدير والصدقة .

فوضع الرجل يده الغليظة فى يدها الرخصة الرقيقة ، وبدا عليه التأثير فلم يجر جوابا ، وانتهت عند ذلك المقابلة القصيرة الفاصلة .

وفى طريق العودة إلى السفينة تساءل محموما : « لماذا دعتنى هذه المرأة ؟ » . ترك العنان لعواطفه التى كبح جماحها فى حضرتها فاختل توازنه ، وانكفأ لونه ، وارتجفت أوصاله ، ومضى يفقد عقله ورشده بسرعة فائقة . وضربت المجاديف جانب الماء وهو يترنح كالشمل ، كأنه عائد من معركة خاسرة

(رادويس)

أفقدته حكمته وشرفه . وخال النخيل المنطلق على الشاطئ يرقص رقصا جنونيا ، والجو يعفره غبار نائر خائق . وكان الدم يتدفق في عروقه ساخنا هائجا مجنونا مسموما ، ووجد إبريقا من الخمر على خوان المقصورة ، فصبه في فمه حتى أتى عليه في استهتار جنوني ، وارتمى على الديوان في حالة يأس قاتل . وفي الحقيقة لم يكن نسيها ، ولكنها كانت تكمن في سرداب خفي من نفسه ما فتئ يسده بالعزاء والصبر وشعوره القوى بالواجب ، فلما وقع نظره عليها بعد غياب عام ، انفجر المستودع المختفي في نفسه ، وتصاعد لهيبه حتى حرق روحه جميعا ، وأحس بالعذاب والهوان واليأس والكبرياء الذبيح ، فذاق الهزيمة والعذاب مرتين في معركة واحدة منتهية . وأحس بدوار في رأسه المختل ، وجعل يحدث نفسه في غضب كاسر ، إنه يعلم لماذا عنيت باستدعائه . دعته لتستوثق من إخلاصه ، ليطمئن قلبها على سيدها ومولاها الحبيب ، وفي سبيل ذلك تكلفت مودته وتغلقة ، يا للغرابة أن رادوييس العابثة القاسية تجدد وتحنو وتتعلم ما الحب وما مخاوفه وآلامه ، وتشفق من خيانة طاهو ، الذي كان يوما يلتصق بنعلها كالتراب ، ثم نفضته في حالة تقزز وملل ، الويل للسماء والأرض ، والويل للدنيا جميعا . إنه يشعر باليأس المميت والغضب القاتل ، وبغيظ خانق يطحن نفسه الجبارة . إنه يغضب غضبا جنونيا جارفا ، ويشعل دمه نارا موقدة ، يضغط على سمعه فلا يكاد يسمع شيئا ، ويخضب عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء .

وما أن رست السفينة إلى سلم القصر الفرعوني ، حتى غادرها مسرعا ، وسار يترنخ في الحديقة لا يلتفت إلى تحيات الجنود ، متجها إلى حجرة قائد الحرس بالثكنات ، وفي أثناء سيره اعترض طريقه رئيس الوزراء سوفخاتب ، وكان عائدا من جناح الملك . وقابله الوزير بابتسامة تحية ، ولكنه وقف حياله

جامدا كأنه لا يعرفه . وعجب سوفخاتب لجموده ، وقال له :

— كيف حالك أيها القائد طاهو ؟

فقال طاهو بسرعة غريبة :

— أنا .. كأسد وقع في شرك .. أو كسلحفاة راقدة على ظهر فرن موقدة !

فبدا الإنكار على وجه سوفخاتب وقال :

— ما هذا الكلام ؟.. أى شبه بين الأسد والسلحفاة ، أو بين الشراك

والفرن ؟..

فقال طاهو في ذهوله :

— أما السلحفاة فتعمر طويلا ، وتتحرك في بطء وتنوء بحمل ثقيل ، وأما

الأسد فينكمش ويزأر ويثب في عنف فيقضى على فريسته .

فتفرس الرجل في وجهه دهشا وقال :

— أغاضب أنت ؟. لست كعهدي بك !

— أنا غاضب .. كيف تنكرنى أيها الجليل ، أنا طاهو ربيب الحرب

والقتال .. آه كيف يصبر العالم على هذا السلام الثقيل .. إن آلهة الموت عطشى

ولا بد يوما أن أروى غلتها .

فهز سوفخاتب رأسه متوهما أنه عرف ما هناك ، ثم قال :

— آه .. الآن فهمت أيها القائد ، إنها خمر مربوط المعتقد .

فقال طاهو بحدة :

— كلا .. كلا .. الحق أنى شربت كأسا من الدم ثم تبين أنه دم إنسان

شرير ، فتسمم دمي ، وزاد الأمر خطورة أنى صادفت في طريقى إلى هنا رب

الخير نائما في المرج ، فأعمدت سيفى في قلبه .. هيا إلى القتال .. فالدم شراب

الجندى الباسل .

— ١٤٨ —

فقال سوفخاتب ذاهلا .

— إنها الحمر ولا شك ، ويحسن بك أن تعود إلى قصرك في الحال .

ولكن طاهو هز رأسه استهانة وقال :

— الحذر الحذر أيها الرئيس ، إياك والدم الفاسد ، فهو السم بعينه ، لقد

انتهى صبر السلحفاة وسينقض الأسد .

قال ذلك ثم سار في طريقه لا يلوى على شيء ، تاركا سوفخاتب في ذهول

وغرابة .

فترة الانتظار

وكان القصر الفرعونى ، وقصر بيعة ، ودار الحكومة ، تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر ، ولكن فى طمأنينة وثقة بالمستقبل ، وكان كل يوم يدنو يدنيا من الفوز ، ويدفئ صدرها بحرارة الأمل . وما كان لينقطع هذا الشعور الطيب الجميل ، لولأن وصلت إلى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت ، وكان سوفخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة ، أو يقنع مضطرا بعرضها على الملكة ، ولكنه وجد فيها معنى جديدا خطيرا ، لم يشأ أن يتحمل تبعه إخفائه عن مولاه ، ولو لاقى فى سبيل ذلك بعض غضبه ، فقابل فرعون وتلا عليه الرسالة ، وكانت التماسا خطيرا موقعا عليه من جميع رجال الكهنوت ، وعلى رأسهم كهنة رع وآمون وبتاح وأيس ، يرجون مولاهم أن يرد أراضى المعابد إلى أصحابها الآلهة المعبودة التى توليه عنايتها ، ويؤكدون أنهم ما كانوا يتقدمون بالتماسهم لو وجدوا من الأسباب ما يدعو إلى وجوب نزع الأراضى .

كان الخطاب قويا حازما ، فغضب الملك ، ومزقه إربا ، ورمى به على أرض الحجرة وصاح :

— سوف أجيبهم بعد حين قليل .

فقال سوفخاتب :

— إنهم يلتمسون جماعة ، وكانوا يلتمسون فرادى .

فقال الملك الغاضب :

— وسأضربهم جميعا ، فليحتجوا كيف شاء لهم الجهل .

على أن الحوادث جاوزت هذا الحد ، فقد أرسل حاكم طيبة إلى رئيس الوزراء يقول إن خنوم حتب زار مقاطعته ، وأنه استقبل استقبالا شعبيا رائعا اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالي ، وأن الهتافات تصاعدت باسمه ، وهتف القوم أيضا لحقوق الآلهة التي ينبغي أن تصان وتخدم ، وجاوز هذا القدر قوم ، فصاحوا باكين : « واحسرتاه ! إن أموال آمون تنفق على راقصة » .

ووجم الرئيس أسفا وحرنا ، وغلب إخلاصه تردده هذه المرة أيضا ، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة ، وغضب الملك كعادته وقال أسفا :
— إن حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئا .
فقال سوفخاتب بحزن :

— ليس لديه يا مولاي إلا قوة الشرطة ، وهي لا تجدى في مقاومة جموع عفيرة .

فقال الملك بغضب :

— وليس لدى إلا الانتظار على مضض ، لقد أدميت وحق الرب كبريائي ١ .
وخيمت سحابة من الحزن على أبو المجيدة ، شملت قصورها الشائخة ودور الحكم فيها . وكانت الملكة نيتو قريس تقبع في جناحها رهينة حبس ووحشة ، تعالى آلام قلبها المنفطر وكبرياتها الجريحة ، وترقب الحادثات بعينين حزينتين أسيفتين . وكان سوفخاتب يتلقى الأخبار بقلب حزين ، ويقول أسفا لطاهو الصامت الكتيب : « هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب المتمرد ١ ؟ واحزنناه » .

واستحالت سعادة الملك غضبا وغيظا ، وكان لا يدوق الراحة إلا حين يرمى بين يدي المرأة التي أسلمها نفسه ، وكانت تدرك ما به ، فكانت تداعبه وتحنو

عليه وتمس في أذنه : « صبرا » فيتهد ويقول حانقا « نعم .. حتى أقبض على ناصية القوة » .

ولكن أشد الحرج ، فتعددت زيارات خنوم حثب للمقاطعات ، واستقبل بالمظاهرات في كل مكان ، وتعالى الهتاف باسمه في البلدان . وضاق بذلك كثير من الحكام ، ورأوا فيه معنى لم يرتح إليه إخلاصهم لفرعون . فاجتمع حكام أمبوس ، وفرمونتس ، ولاتولس ، وطيبة ، وتشاوروا فيما بينهم ، وقر رأيهم على مقابلة الملك . وقصدوا إلى أبو وطلبوا المقابلة ، فاستقبلهم فرعون استقبالا رسميا حضره سوفخاتب ، وتقديم حاكم طيبة بين يديه وحياء تحية العبودية والإخلاص ثم قال :

— مولاي ، الإخلاص الحق لا ينفع بأن يكون عاطفة في القلب ، ولا بد أن يقرن بإسداء النصيح والعمل الصالح والافتداء إذا حزب الأمر ، ونحن حيال أمر قد يعرضنا الصدق فيه إلى موجدة ، ولكننا لا نأمن مع السكوت عليه من وخز ضمائرنا ، فلا بد من قولة الحق .

فصمت فرعون هنية ثم قال للحاكم :

— تكلم أيها الحاكم فأني مصغ إليك .

فقال الرجل بشجاعة :

— مولاي . الكهنة غاضبون ، وقد انتقلت عدوى غضبهم إلى نفوس الشعب المنصت إلى حديثهم في الصباح والمساء ، وكان من جراء ذلك أن اتفقت كلمة الجميع على وجوب رد الأراضي إلى أصحابها ..

فبد الغضب على وجه الملك وقال بحق :

— هل يصح أن يذعن فرعون لإرادة الناس ؟

فقال الرجل بصراحة وجسارة :

— مولاي . إن سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة إلى ذات فرعون ، فلا إذعان ، لكن تعطف من مولى قادر على عباده .
فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال :
— لا أرى في التراجع سوى الخنوع .
فقال الرجل :

— معاذ الرب أن أشير إلى مولاي بالخنوع ، ولكن السياسة بحر لجى ، الحاكم كالربان يتفادى الريح العاصفة ، وينتهر الفرصة السعيدة .
ولكن الملك لم يعجبه قوله ، وهز رأسه باحتقار وعناد ، واستأذن سوفخاتب طالبها الكلام ، وسأل حاكم طيبة قائلا :

— هل لديك دليل على أن الشعب يشاطر الكهنة عواطفهم ؟
فقال الحاكم بثبات و يقين :

— نعم يا صاحب القداسة ، لقد بثت عيوني في الأقاليم ، فشهدوا غضب الشعب عن كتب ، وسمعوه يخوض فيما لا يجوز الخوض فيه .
وقال حاكم فرمونتس :

— وهذا ما فعلته فجاءتنى أنباء مؤسفة .
وأدلى كل حاكم بدلوه ، ودلت أقوالهم على خطورة الحال ، وانتهت بذلك أول مقابلة من نوعها تشهدها قصور الفراعنة .

واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه في جناحه الخاص ، وكان غاضبا مهتاجا يتهدد ويتوعد ، وقد قال للرجلين :

— إن هؤلاء الحكام مخلصون أمناء ، ولكنهم ضعاف ، ولو أخذت بنصائحهم لعرضت عرشي للهوان ..

وسرعان ما أمن طاهو على رأى مولاه وقال :

— إن التراجع هزيمة يا مولاي !

كان سوفخاتب يفكر فى احتمالات أخرى فقال :

— ينبغى أن نحسب حساب عيد النيل ، وهو لا يفصل بيننا وبينه سوى أيام معدودات ، والحق أن قلبى لا يرتاح إلى حشد الآلاف من الشعب الغاضب فى آبو .

فبادر طاهو قائلا :

— إننا نسيطر على آبو .

— لا ريب فى هذا ، ولكن لا يجوز أن ننسى أنه فى العيد الماضى تصاعدت بضعة هتافات خائنة ، ولم يكن مولانا الملك قد حقق إرادته ، فىنبغى أن نتوقع هتافات أخرى أشد صراخا .

فقال الملك :

— إن الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد .

ولكن لم ينفك سوفخاتب يزن الأمور من وجهة نظره ، فقال وكان يؤمن فى قلبه باقتراح الحكام :

— سيأتى الرسول فى القريب ، وسيتلو رسالته على الملأ ، ولا شك أن الكهنة الحائزين على عطف مولاهم ، المتمتعين بما يعتقدون أنه حقهم ، يكونون أعظم اطمئنانا إلى التعبئة وأشد حماسة ، حتى إذا قبض مولاي على ناصية القوة ، أملى إرادته ، ولا راد لمشيئته .

وضاق الملك ذرعا برأى سوفخاتب ، وأحس بوحشة فى جناحه الخاص ، فهرع إلى قصر بيجة الذى لا تلاحقه الوحشة إليه قط . وكانت رادويس تجهل ما دار فى الاجتماع الأخير ، فكانت أدنى إلى الطمأنينة منه ، ولكنها لم تلق صعوبة فى قراءة صفحة وجهه الحساس ، والشعور بما يضطرم فى قلبه من الغضب

والسخط ، واعتورها القلق ونظرت إليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفيتها مشفقا من الظهور ، فقال متذمرا :

— أما علمت يا رادوبيس ؟ إن الحكام والوزراء يشيرون على برد الأراضى إلى الكهنة ، والرضاء بالهزيمة ؟
فتساءلت بانزعاج :

— ما الذى حثهم على إبداء هذه المشورة ؟
فروى الملك بما قال الحكام ، وما نصحوه به ، وكانت تزداد انزعاجا وحزنا ؟ وما تمالكت نفسها أن قالت :
— إن الجو يغبر ويظلم وما حمل الحكام على المكاشفة بآرائهم إلا خطر فادح .

فقال الملك بازدرء :
— إن شعبى غاضب .
— مولاي ، إن الناس كالسفينة الضالة بلا سكان ، تحملها الرياح كيفما تشاء .

فقال بوعيد مخيف :
— سأذهب ريجهم .
وعاودتها المخاوف والشكوك ، وخانها صبرها فى تلك اللحظة فقالت :
— ينبغى أن نستوصى بالحكمة ، وأن نتراجع زمنا قصيرا مختارين ، وإن يوم النصر لقريب .

فنظر لها بغرابة وقال :
— أتشيرين على بالخضوع يا رادوبيس ؟
فضمته إلى صدرها وقد آلتها لهجته ، ثم قالت وقد فاضت عيناها بدمع

سخين :

— أخرى بمن يتحفز للوثبة الكبرى أن ينكمش أقداما ، والنصر رهين
بالنهاية .

فتأوه الملك قائلا :

— آه يا رادوبيس .. إذا كنت تتجاهلين نفسك ، فمنذا الذى يمكن أن
يعرفها ؟ أنا من إذا نزل مرغما على إرادة إنسان ذبل كمدا كوردة سفتها الرياح .
فبدا التأثر فى عينها السوداوين ، وقالت فى حزن عميق :

— فداؤك نفسك يا حبيبي ، لن تدبل قط وصدرى يرويك حبا صافيا .
— سأعيش منتصرا فى كل لحظة فى حياتى ، ولن أمكن خنوم حتب من أن يقول
إنه أذلنى ساعة !

فابتسمت إليه ابتسامة حزينة وتساءلت :

— أتريد أن تسوس شعبا بغير التجاء إلى الحيلة أحيانا ؟
— التسليم حيلة العاجز ، سأظل ما حييت مستقيما كالسيف تتعطم على
أسنانه قوى الخائنين .

فتنهدت حزينة آسفة ولم تحاول معادوته ، ورضيت بالهزيمة أمام غضبه
وكبريائه ، ومنذ تلك اللحظة وهى تتساءل جزعة متى يعود الرسول ؟ .. متى
يعود الرسول ؟ .. متى يعود الرسول ؟ ..

ما أشق الانتظار .. لو يعلم المتمنون ما عذاب الانتظار لآثروا الزهد فى
الدنيا .. كم عدت الدقائق والساعات وترقبت شروق الشمس وانتظرت
مغيبها ، وذابت عيناها من طول النظر إلى مجرى النيل الآتى من الجنوب . وكم
حسبت الزمن بتردد أنفاسها وخفقان قلبها ، وكم صاحت وقد نال منها القلق كل
منال : أين أنت يا بنامون ؟! حتى الحب نفسه ذاقته ذوق الشارد الحالم ، فلا

طمأنينة ولا سلام حتى يعود الرسول برسائله؟!
وتقضت الأيام تجر ثقلها جراً بطيئاً ، حتى كان يوم تجلس فيه مستغرقة في
أفكارها ، وإذا بشيث تدخل عليها مهرولة ، فرفعت رأسها وسألتها :
— ما وراءك يا شيث ؟

فقالت الجارية بلهفة تلهث :
— مولاتي ، جاء بنامون .
وغمرها الفرح ، فانتفضت واقفة كطير فزع ، وهي تصيح :
— بنامون ! .

فقالت الجارية :
— نعم يا مولاتي ، إنه ينتظر في البهو ، وطلب إلى أن أؤذنك بقدومه . كم
لوحه السفر ! .

وجرت تتخطى أدراج السلم إلى البهو ، فألفته واقفاً ينتظر مقدمها وفي عينيه
شوق صارخ ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح والأمل ، فوقر في نفسه أن فرحها
به ، وله ، فغمرته سعادة إلهية وارتمى على قدميها كالعابد ، ولف ذراعيه حول
ساقها بحنان ووجد ، وهوى بقمه إلى قدميها .. وقال :
— معبودتي ، حلمت مائة مرة أتي أقبل هاتين القدمين ، وهأنذا أحقق
أحلامي .

فداعبت شعره بأناملها وقالت برقة :
— بنامون العزيز .. بنامون .. أحقا عدت إليّ ؟
فلمعت عيناه بنور الحياة ، ودس يده في صدره فأخرج حقاً من العاج صغيراً
وفتحه ، وإذا ما فيه تراب .. ثم قال :
— هذا تراب مما كانت تطأ قدماك في الحديقة ، جمعته بيدي واحتفظت به في

هذا الحق ، وحملته معى فى سفرى ، وكنت أقبـله كل مساء قبل استسلامى للكرى ، ثم أحفظه عـلى ، تـلبى ..

وأصغت إليه على جـزع وتـلـمـل ، وكان شعورها منصرفا عن حديثه ، ونقد صبرها ، فسألته بـرقة تـدـارى بها جـزـعها :

— ألا تحمل شيئا !

فدس يده فى صدره مرة أخرى ، وأخرج كتابا مطويا ومد لها يده به ، فتسلمته بيد مرتجفة وقد غمرها شعور سعيد ، وأحست بتخدير فى أعصابها وخور فى قواها ، وألقت على الرسالة نظرة طويلة ، وشدت عليها يدها ، وكادت تنسى بنامون ووجدته لولا أن وقع عليه بصرها فتذكرت أمرا هاما وسألته :

— ألم يأت معك رسول من قبل الأمير كارفرو ؟

فقال الشاب :

— بلى يا مولاتى ، وهو الذى حمل الرسالة فى أثناء العودة . وإنه لينتظر الآن فى الحجرة الصيفية .

ولم تستطع أن تبقى فى مكانها طويلا ، لأن الفرح الذى غمر حواسها عدو للسكون والجمود فقالت :

— أستودعك الرب إلى حين ، وإن حجرة الصيف تنتظرك وستصفو لنا الأيام .

وجرت حاملة الرسالة ، وكان قلبها ينادى حبـيبـها ومولاها من أعماقها ، ولولا التخرج ، لطارت إليه فى قصره كما فعل النسر من قبل ، تزف إليه البشرى السعيدة ..

الاجتماع

وجاء يوم عيد النيل ، واستقبلت آبو المحتفلين من أقاصى الجنوب والشمال ، وتعالى فى جوها الأناشيد وازينت دورها بالأعلام والأزهار وأغصان الزيتون ، واستقبل الرجال من الكهنة والحكام شروق الشمس فى طريقهم إلى القصر الفرعونى ، لينتظموا فى الموكب الملكى العظيم الذى يغادر القصر حين الضحى .

وبينما كان السادة ينتظرون نزول الملك فى إحدى الشجرات دخل عليهم أحد الحجاب ، وحياهم باسم الملك ، وقال بصوت جهورى :
— أيها السادة الأجلاء ، إن فرعون يريد أن يجتمع بكم فى الحال ، فتفضلوا بالذهاب إلى بهو الفرعونى .

وتلقى الجميع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية . لأن العادة جرت بأن يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لاقبل ذلك ، فبدت الحيرة على الوجوه وتساءل القوم : ترى أى أمر خطير دعا إلى هذا الاجتماع الخارق للتقاليد ١٢ .

ولكنهم لبوا الدعوة طائعين ، وذهبوا إلى بهو الاستقبال ذى الجلال والروعة . واحتل الكهنة مقاعد الجانب الأيمن ، وجلس الحكام قبالتهم ، وكان يتصدر المكان العرش الفرعونى ، وسط جناحين من الكراسى أعدت للأمراء والوزراء .

وما لبثوا قليلا حتى دخل الوزراء يتقدمهم سوفخاتب ، وتبعهم بعد حين

أمرأ البيت المالك ، فجلسوا إلى يمين العرش وهم يردون تحيات الرجال الذين وقفوا تحية لهم .

وساد الصمت وبدا الجدد والاهتمام على الوجوه ، وخلا كل إلى أفكاره يسائلها عن الأسباب التي دعت إلى هذا الاجتماع الهام ، حتى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الأختام ، فطلعوا إليه في انتباه شامل ، وقد صاح الرجل بصوت جهورى يعلن مجيء الملك :

— فرعون مصر نور الشمس ، وظل رع على الأرض ، صاحب الجلالة مررع الثانى ..

فهب الجميع وقفا وأحنوا الهامات ، حتى كادت تمس الأرض الجباه ، وجاء الملك يسير فى جلال ومهابة ، يتبعه على الأثر قائد الحرس طاهو ، وحامل الأختام ، وكبير حجاب الأمير كارفرو حاكم النوبة ، وجلس على العرش ، ثم قال بصوت مهيب :

— أحييكم أيها الكهنة والحكام وأذن لكم بالجلوس .

فاعتدلت القامات المنحنية فى رفق ، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفس مجازفة خطيرة ، وانجهدت الأنظار إلى صاحب العرش توافقة إلى استماع كلمته . واعتدل الملك فى جلسته ، ثم قال وهو يقلب عينيه فى وجوه القوم دون أن تستقر على أحد :

— أيها الأمراء والوزراء والكهنة والحكام ، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى ، لقد دعوتكم لأشاوركم فى أمر خطير يتعلق بسلامة المملكة ومجد الآباء والأجداد . أيها السادة : لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجاب الأمير كارفرو يحمل رسالة خطيرة من مولاه ، فرأيت أن واجبى يقضى على بأن أدعوكم دون إهمال ، للاطلاع عليها ، والمشاورة فى محتوياتها الخطيرة .

والتفت فرعون إلى الرسول وأشار إليه بصولجانه ، فتقدم الرجل خطوتين
فصار في حذاء العرش ، وقال له فرعون :
— « اتل عليهم الرسالة » .

فبسط الرجل رسالة مطوية بين يديه ، وقرأ بصوت جهورى مؤثر :
— « من الأمير كارفرو حاكم بلاد النوبة إلى حضرة صاحب الجلالة فرعون
مصر نور الشمس المشرقة ، وظل الرب رع ، حامى النيل ، وصاحب النوبة ،
وطور سيناء ، وسيد الصحراء الشرقية ، والصحراء الغربية .
مولاي .. يؤسفنى أن أرفع إلى مسامع ذاتكم المقدسة أنباء محزنة ، عن
حوادث غدر شائنة ، وقعت في أملاك التاج المتاخمة لحدود النوبة الجنوبية ،
وكنت يا مولاي — اطمئنانا منى إلى المعاهدة التى عقدت بين مصر وقبائل
المعصايو ، وما أعقب عقدها مباشرة من شمول الطمأنينة وتوطيد الأمن —
كنت — أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزعة في الصحراء إلى قواعد
الأصلية . وجاءنى اليوم ضابط من رجل الحاميات وأخبرنى بأن زعماء القبائل
شقوا عصا الطاعة وحشوا بيمينهم ، وانقضوا خلسة بليل على ثكنات
الحاميات ، وأعملوا فيها التقتيل الوحشى . وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس ،
قوات تفوقهم مائة مرة أو يزيد ، حتى سقطوا عن آخرهم في ميدان
الاستبسال . واجتاحت القبائل البلاد جميعا ، واتجهت نحو الشمال إلى بلاد
النوبة ، فرأيت من الحكمة ألا أفرط فيما لدى من قوات محدودة ، وأن أوجه همى
إلى تحصين الاستحكامات والقلاع ، للتمكن من صد العدو الزاحف ، ولن
تصل مولاي رسالتى حتى تكون جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجمين ، وإنى
في انتظار أمر مولاي سأظل على رأس جنودى أقاتل في سبيل مولاي فرعون .
ووطنى مصر » .

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة ، وظل صوته يدوى فى كثير من القلوب ، أما الحكام فقد اتقدت أعينهم ، وتطايير منها الشرر ، وسرت فى صفوفهم حركة اضطراب عنيف ، وأما الكهنة فقد تقطبت جباههم وجمدت نظراتهم ، وانقلبوا كتائبيل جامدة فى معبد صامت .

وصمت فرعون هنيهة حتى بلغ التأثير أشده ، ثم قال :

— هذه هى الرسالة التى دعوتكم للمشاورة فيها .

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، فقام واقفا وأحنى رأسه تحية ، وقال :

— مولاي .. إنها رسالة خطيرة حقا ، والجواب الواحد عليها هو الدعوة إلى التعبئة .

ولاقت كلمته ارتياحا فى نفوس الحكام ، فقام حاكم أمبوس وقال :

— نعم الرأى يا مولاي ، فالجواب الأوحد هو التعبئة السريعة ، كيف لا ووراء الحدود الجنوبية إخوان لنا بوسائل أوقعهم العدو فى ضيق .. وإنهم لثابتون ، فلا ينبغي أن نخذلهم ، أو نبطئ عليهم ..

وكان آنى يفكر فى العواقب التى تمس واجباته ، فقال :

— إذا اجتاحت أولئك الهمج بلاد النوبة هددوا الحدود بلا شك .

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، وقد ذكر رأيا قديما له طالما تمنى تحقيقه يوما ، فقال :

— كان رأى دائما يا مولاي أن تحتفظ المملكة بجيش دائم كبير ، يكفل لفرعون القيام بتبعاته فى الدفاع عن سلامة الوطن وممتلكاته فيما وراء الحدود . واشتد الحماس فى جناح جميع القواد ، ونادى كثير منهم بالتعبئة ، وهتف آخرون للأمير كارفررو ولحامية بلاد النوبة . واشتد التأثير ببعض الحكام ، فقالوا

(رادويس)

للملك :

— مولانا .. لن يطيب لنا الاحتفال بالعيد ، ووراءنا إخوان بواسل يتهددهم الموت . إيدن لنا فى الرحيل لنحشد الجنود .

وكان فرعون ملازما الصمت ليسمع ما عسى أن يقول الكهنة ، وكان هؤلاء لائذين بالصمت ريثما تهدأ النفوس ، فلما أن سكّت الحكام .. قام كاهن بتاح الأكبر وقال بهدوء غريب :

— هل يأذن لى مولاي فى أن أوجه إلى رسول سمو الأمير كارفترو سؤالا .
فقال الملك بغرابة :

— لك ما تريد أيها الكاهن الأكبر .

فالتفت كاهن بتاح إلى الرسول وقال :

— متى غادرت بلاد النبوة ؟

فقال الرجل :

— منذ أسبوعين .

— ومتى بلغت آبو ؟

— مساء أمس .

فاتجه الكاهن نحو فرعون وقال :

— أيها الملك المعبود ، إن الأمر يدعو إلى الحيرة الشديدة ، فبالأمس جاء هذا الرسول المبجل من الجنوب بأنباء تمرّد زعماء المعصايو ، وبالأمس نفسه جاء وفد من زعماء المعصايو من أقصى الجنوب ليقدموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون ، ويرفعون إلى أعتابه المقدسة أى الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام ، فما أشد حاجتنا إلى من يميّط اللثام عن هذه المعميات .

فكان تصرّحا غريبا لم يتوقعه إنسان ، فأحدث دهشة كبرى وعجبا ،

فشملت العروس حركة عنيفة ، وتبادل الحكام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة ، وتهامس الأمراء . أما سوفخاتب فقد انخلع صدره ونظر إلى مولاه في ارتياح ، فرآه يقبض على الصولجان بشدة ، وتشد عليه بقسوة حتى انتفخت عروق ساعده وانكفأ لونه ، فخشى الرجل من تسلط الغضب على الملك ، فسأل الكاهن قائلاً :

— ومن أنباك بهذا يا صاحب القداسة ؟

فقال الرجل بهدوء :

— رأيتم بعينى رأسى يا سيدى الرئيس ، فقد زرت أمس معبد سوتيس ، وقدم كاهنه إلى وفدا من السود قالوا أنهم من زعماء المعصايو ، وأنهم جاءوا يقدمون فروض الطاعة لفرعون ، وقد باتوا ليلتهم ضيوفا على رئيسه .

فقال سوفخاتب :

— ألا يصح أن يكونوا من النبوة ؟

ولكن الرجل قال بيقين :

— قالوا إنهم من المعصايو ، وعلى أية حال فما هنا رجل — هو القائد طاهو — اشتبك مع المعصايو فى حروب كثيرة ، وعرف جميع زعمائهم ، فهل يتفضل جلالة الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء إلى ساحته المقدسة ، وعمى أن تزيل أقوالهم عن أعيننا غشاوة الحيرة ؟.

وكان الملك فى حالة شديدة من القهر والغضب ، ولكنه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن ، وأحس الوجه تتطلع إليه فى لفحة ورغبة ورجاء ، فقال لأحد الحجاب !

— اذهب إلى معبد سوتيس ، وادع زعماء السود .

وصدع الحاجب بالأمر ، ولبث الجميع ينتظرون وكأن على رؤوسهم

الطير . وكان الدهول باديا على وجوه الجميع . وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وإن ود كل منهم أن يسأل رفيقه ويستمع إليه . وابث سوفخاتب قلقا مهموما دائم التفكير يختلس من مولاه نظرات حائرة مشفقا عليه من هول الساعة ، وبث عليهم الدقائق ثقيلة ومؤلة ، كأنما تنتزع من جلودهم ، والملك على سرشه يشاهد الحكام القلقين والكهنة المطرقين ، لا تكاد تخفى عيناه ما يعترك في نفسه من العواطف . ثم خال الجميع أنهم يسمعون ضوضاء يحملها الهواء من بعيد ، فخلصوا من نفوسهم ، وأرهفوا السمع ، فإذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر ، وإذا بها أصوات تتصاعد بالهتاف ، ومصت بالقرب تشتد وتقوى شيئا فشيئا حتى طبقت الآفاق . وكانت مختلطة غير متميزة ، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل ، فأمر الملك حاجبا بالذهاب إلى الشرفة ليرى ما هنالك ، فغاب الرجل برهة ثم عاد مسرعا ، ومال على أذن فرعون وقال :

— إن جموع الشعب تملأ الميدان ، تحيط بالعربات التى تحمل زعماء السود .

— وما هتافهم ؟

— يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين ، ومعاهدة السلام .

ثم تردد الرجل لحظة واستدرك هامسا :

— ويهتفون يا مولاي لصاحب المعاهدة خنوم حتب !

واصفر وجه الملك من الغضب ، وأحس بالحق والقهر ، وتساءل كيف

يدعو الشعب الذى يحبى زعماء المعصايو ويهتف للسلام إلى محاربة المعصايو !!

ولبث ينتظر القادمين غاضبا حزينا كئيبا .

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء ، وفتح الباب على مصراعيه ، ودخل

الوفد يتقدمه رئيسه وكانوا عشرة ، ضخام الأجسام ، عرايا إلا من وزرة تستر

الوسط ، وعلى رعوهم هالات من أوراق الشجر ، وقد سجدوا جميعا على الأرض ، وتقدموا زحفا حتى بلغوا عتبة العرش ، فقبلوا الأرض بين يدي فرعون ، ومد لهم الملك صولجانه فلثموه في خشوع ، وأذن لهم الملك بالوقوف فوققوا في تيب ، وقال رئيسهم باللهجة المصرية :

— أيها الرب المعبود ، فرعون مصر ، وسيد الوادي . ومعبود القبائل ، جئنا إلى رحابك لنقدم لك آى الخضوع والذل والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم . فبفضل رحمتك تناولنا الطعام شهيا ، وشربنا الماء حلوا سائغا . فباركهم الملك برفع يده .

وكانت الوجوه متجهة إليه كأنما تضرع إليه أن يسألهم عما يقال عن بلادهم ، فقال الملك المقهور :

— من أى العشائر أنتم ؟

فقال الرجل :

— أيها البهاء المعبود ، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهائك بالمجد . وصمت الملك قليلا ، وأبى أن يسألهم عن أتباعهم شيئا ، وضاق بالمكان ويمن فيه ، فقال :

— إن فرعون يشكركم أيها العبيد المخلصون ويبارككم .

وقدم صولجانه فلثموه مرة أخرى ، وكروا راجعين ، تكاد تمس الأرض جباههم .

والتهب الغضب في قلب الملك ، وأحس إحساسا باطنيا ألما بأن الكهنة المائلين أمامه ، وجهوا إليه ضربة قاتلة في معركة خفية ، لا يعلم بها سواه وسواهم ؛ فاشتد عليه الحنق . وفاض به الغيظ ، وثار على هزيمته وقال بصوت شديد النبرات :

— ١٦٦ —

— لدى رسالة لا يرتقى الشك إليها ، وسواء أكانت القبائل النائرة تتبع هؤلاء الزعماء أو لا تتبعهم ، فالأمر الذى لا شك فيه هو أنه توجد ثورة ويوجد متمرّدون ، وأن جنودنا الآن محاصرون !!

فعاودت الحماسة الحكام ، وقال حاكم طيبة :
— مولاي .. لقد جرت الحكمة الإلهية على لسانك ، إن إخواننا ينتظرون النجدة . فلا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشات ، والحق أبلغ واضح .
فقال الملك بعنف :

— أيها الحكام ، إني أعفيكم من الاشتراك اليوم فى الاحتفال بعيد النيل ، فأمامكم واجب أسمى . ارجعوا إلى أقاليمكم واحشدوا الجنود ، فرب دقيقة تضيع تكلفنا غاليا .

قال الملك ذلك ثم قام واقفا ، معلنا انتهاء الاجتماع ، فقام القوم من فورهم وأحنوا الهامات لإجلالا .

التهتاف

وقصد فرعون إلى جناحه الخاص ، ودعا إليه رجله المخلصين سوفخاتب وطاهو . قلبى الرجلان دعوته سريعا ، وكانا شديدى التأثير ، يقدران حرج الموقف حق قدره . ووجدا الملك كما توقعا مهتاجا غاضبا ، يذرع حجرته من جانب إلى جانب ، ويهدر بوحشية ، فلما انتبه إليهما حدجهما بنظرة زائغة ، وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— خيانة .. إلى أشم رائحة خيانة خبيثة فى هذا الجو الخائى .

فانكفأ طاهو وقال :

— مولاي . لا أنفى عن نفسى التشاؤم وسوء الظن ، ولكن لا يذهب بى الحدس إلى هذا الفرض الكبير .

فضرب الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتميز من الغيظ والحنق :

— لماذا جاء هذا الوفد اللعين ؟.. بل كيف جاء اليوم ؟.. واليوم بالذات ؟.

فقال سوفخاتب ، وكان غارقا فى التفكير والأحزان :

— ترى هل هى مصادفة حزينة غريبة ؟

فقال الملك فى دهشة مروعة :

— مصادفة .. كلا .. كلا . هى الخيانة اللثيمة ، أكاد ألمح وجهها يستتر

بالإطراق والدهاء . كلا أيها الوزير لم يجيء القوم مصادفة لكنهم دفعوا إلى هنا

عمدا ليقولوا سلاما إذا ما قلت أنا حربا ، وهكذا وجه إلى عدوى ضربة

شديدة ، وهو مائل بين يديّ يعلن الولاء ..

فامتقع وجه طاعو ولاح في وجهه الحزن ، ولم يكابر سوفخاتب فأطرق
يائسا وكأنه يحدث نفسه :

— إذا كانت خيانة فمن الخائن ؟

فقال الملك وهو يلوح بقبضته في الهواء :

— نعم .. من الخائن .. هل هنالك معضلة لا تحل .. كلا .. أنا لا أخون
نفسى ، ولا يخون عهدى سوفخاتب ولا طاهو ، ولا تخوننى رادوييس ، فلم
يبق إلا هذا الرسول الشقى .. وأسفاه لقد خدعت رادوييس .
فبرقت عينا طاهو وقال :

— سأسوقه إلى هنا وأنتزع من فمه كلمة الحق .

فهب الملك رأسه وقال :

— رويدك يا طاهو رويدك .. إن الجرم لا ينتظر حتى تذهب للقبض عليه ،
ولعله الآن ينعم بثمن خيائته في مكان آمن لا يعلم به إلا الكهنة . كيف تمت
المكيدة ؟ لا أدري كيف ، ولكنى أستطيع أن أقسم بالرب سوتيس أنهم علموا
بالرسالة قبل تحرك الرسول فلم يتوانوا ، وبعثوا برسول من لدنهم فجاء رسولى
بالرسالة ، وجاء رسولهم بالوفد .. خيانة .. نذالة ، إلى أعيش وسط شعبى
كالأسير .. ألا لعنة الآلهة على الدنيا وعلى الناس .

ولاذ الرجلان بالصمت ، حزنا وإشفاقا ، وكان طاهو يختلس من موله
نظرات حزينة ، وأراد أن يحاول إعادة الأمل إلى ذلك الجو القاتم فقال :

— ليكن عزاؤنا أننا سنضرب بالضربة القاضية .

فاحتد الملك قائلا :

— كيف لنا بتسديد هذه الضربة ؟!

— إن الحكام فى طريقهم إلى الأقاليم لحشد الجنود .

— وهل تظن أن الكهنة يقفون مكتوفي الأيدي بإزاء الجيش الذين علموا أنه
يحشد لسحقهم؟!

وكان سوفخاتب ينوء بهم ثقیل كان يؤمن بما يقول الملك ، ولكن أراد أن
ينفس عن صدره ، فقال وكأنه يتمنى :

— عسى أن يكون ريننا وهما ، ويكون ما نظنه خيانة محض مصادفة ، فتنتشع
هذه السحابة الدكناء بأهون الأسباب .

ولكن فرعون ثار على العزاء وقال :

— لا أزال أذكر صورة أولئك الكهنة المطرقين ، كانوا بلا شك ينطوون على
سر رهيب ، ولما قام رئيسهم ليتكلم ، تحدى حماس الحكام باطمئنان ، وألقى
كلمته بثقة لا حد لها ، ولعله الآن يتكلم بعشرة ألسنة ، آه .. الويل للخيانة ..
لن يعيش مرنرع الثانى تحت رحمة الكهنة .

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال :

— مولای .. تحت إمرتك حرس قوى البنيان يزن الرجل منه ألف رجل من
رجالهم ، ويجود بنفسه فى سبيل مولاه عن طيب خاطر .

فأعرض فرعون عنه ، وارتمى على مقعد وثير مستسلما لأفكار رأسه
الساخن ، ترى هل يمكن أن يتحقق أمله بالرغم من هذه الأحزان ؟ أم يفضل
مشروعه إلى الأبد ؟ يا لها من ساعة فاصلة فى حياته .. هى مفترق الطرق بين
المجد والهوان ، والقوة والانهيار ، والحب والشقاء . لقد رفض مرة أن يتنازل عن
الأراضى حيلة ، فهل يجد نفسه يوما مضطرا إلى التنازل عنها محافظة على عرشه ؟
آه .. لن يأتى هذا اليوم ، وإن أتى فلن يسام الخسف أبدا : وسيبقى إلى آخر
لحظة من حياته كريما مجيدا عزيزا . وتهدد بالرغم منه حسرة ، وقال لنفسه
أسفا .. آه لو لم يعثر حظى بالخيانة . وقطع عليه صوت سوفخاتب وهو يقول :

— مولاي دنا موعد الحفل .

فنظر إليه كمن يصحو من نوم عميق ، وتمتم « حقا » ثم قام واقفا وذهب إلى الشرفة وكانت تطل على فناء القصر العظيم — وقوة العجلات متراسة به في الانتظار — وتراءى الميدان عن بعد تتلاطم فيه أمواج القوم المحتفلين ، فألقى على تلك الدنيا الحافلة نظرة باهتة وعاد إلى مكانه ، ثم دخل إلى مخدعه وغاب هنيهة ، ورجع لابسا جلد الثمر شارة الكهنوت والتاج المزدوج . وتأهبوا جميعا للخروج ، ولكن سبقهم بالدخول حاجب من حجاب القصر حيا مولاه وقال :

— السيد طام رئيس شرطة آبو يستأذن في المثول بين يدي مولاه .
فأذن له الملك ومشيره لما شاهدوه على وجهه من آى الاضطراب . وحيا الشرطي الكبير مولاه ، وقال مبادرا بعجلة واضطراب :
— مولاي ! لقد جئت الآن لأضرع إلى ذاتكم المقدسة أن تعدلوا عن الذهاب إلى معبد النيل !

فخفق قلب الرجلين ، وسأل الملك منزعجا :

— وما الذى حملك على هذا ؟

فقال الرجل وهو يلهث :

— قبضت في هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجهون هتافات شريرة إلى شخصية نبيلة يكرمها مولاي وأخشى أن تكرر هذه الهتافات في أثناء الموكب .
فخفق قلب الملك وغلت مراحل الغضب في دمه ، وسأله بصوت متهدج :
— ماذا قالوا ؟.

فابتلع الرجل ريقه ، وقال باضطراب وارتياب :

— قالوا لتسقط العاهرة ! لتسقط ناهبة المعابد !!

— ١٧١ —

- فاشتد الغضب بالملك ، وصاح بصوت كالرعد :
- يا للويل .. لا بد أن أضرب ضربة تنفس عن صدرى أو ينفجر بنيانى .
واستطرد الرجل مذعورا :
- وقد قاوم المجرمون رجالى ، فوقعت معارك بيننا وبينهم ، وساد الاضطراب والهرج برهة ، وفى أثناء ذلك تعالت هتافات أكبر شرا وأوغل غيا .
فسأل الملك قائلا وهو يصير على أسنانه غضبا ومقتا :
- وماذا قالوا أيضا ؟
- فأحنى الرجل رأسه ، وقال بصوت خافت :
- تجاسر المجرمون على ما هو أجل .
فقال الملك فى صوت ذاهل :
- أنا ..؟!
- فلاذ الرجل بالصمت وقد امتقع وجهه ، ولم يتالك سوفخاتب نفسه فصاح :
- كيف يمكن أن أصدق أذننى ؟
- وصاح طاهو بغضب :
- هذا جنون لا يعقل .
- وضحك فرعون ضحكة عصبية ، وقال بسخرية مريرة :
- كيف ذكرنى شعبى يا طام ؟.. تكلم لى أمرك .
فقال الرجل :
- قال الأوغاد .. « ملكنا يلهو » .. « نريد ملكا جادا » .
فضحك الملك ضحكة كالأولى ، وقال متهمكا :
- وأسفاه .. ما عاد مرزوع يصلح لعرش الكهنة !.. وماذا قالوا أيضا يا طام ؟.

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع :

— وهتفوا يا مولاي طويلا بحياة حضرة صاحبة الجلالة الملكة نيتو قريس ا.
فلاح بريق خاطف بعيني الملك ، وردد اسم نيتو قريس بين شفثيه بصوت
خافت كأنما يذكر شيئا قديما طال به عهد النسيان ، وتبادل المشيران نظرة
الدهشة ، وأحس فرعون بدهشة الرجلين وتخرج رئيس الشرطة ، فلم يرض أن
يجعل من الملكة حديثا مريرا ، وإن سأل نفسه حيرة : ترى ما عسى أن يكون
شعور الملكة حيال هذه الهتافات .. واشتد الضيق بصدره ، وأحس بموجة عنيفة
من الغضب والتمرد والاستهتار ، فوجه كلامه إلى سوفخاتب قائلا بخشونة :
— هل حان موعد الذهاب ؟

فقال طام بذهول :

— أئن يعدل مولاي عن الذهاب ؟

فقال الملك بعنف :

— ألا تسمعنى أيها الوزير ؟

فاضطرب سوفخاتب وقال بخشوع :

— بعد برهة قصيرة يا مولاي .. حسبت مولاي سيعدل عن الذهاب ؟

فقال الملك بهدوء كالذى يسبق العاصفة :

— سأذهب إلى معبد النيل خلل الجموع الساخطة ، وسرى ما يكون ..

عد با طام إلى واجبك .

الأمل والسم

وكانت رادوييس في صباح ذلك اليوم مستسلمة إلى الديوان الوثير تحلم ،
كان يوما يتيه على الزمان بما ينبض فيه من أفراح العيد وبما يدخر لها من فوز عظيم .
فأى سعادة وأى فرح . كان صدرها في ذلك اليوم كبركة من ماء مصفى
معطر ، تنبت على حفافها الأزهار وتغنى في جوها البلبل شادية نشوى .. فيا
لدنيا الأفراح ؛ ومتى تتلقى نبأ الفوز ؟ .. حين الأصيل ، حين تبدأ الشمس
رحلتها إلى العالم الثانى ويشرع قلبها في رحلته إلى دنيا السعادة واستقبال الحبيب ،
فيا لساعة الأصيل ! ساعة الأصيل هى ساعة الحبيب ، حين يقبل عليها بقوامه
الفارع وشبابه الغض ، فيلف ذراعيه المفتولتين حول خصرها الدقيق ، يناجى
اسمها العذب ، يشرها بالفوز فيقول انتهت الآلام ، وتفرق الحكام ليحشدوا
الجنود ، فهنيئا لحبنا . آه ما أجمل الأصيل ...

ولكن كيف تصدق أن هذا النهار يتقضى ؟ .. لقد انتظرت عودة الرسول
شهرًا انطوى ثقيلا مرهقا ، ولكنها تخال هذه الساعات الملعونات أشد وطأة
وأكبر كلفة ، على أنه قلق يخالط طمأنينة ، وخوف يمازج سعادة .. وكأنما
أرادت أن تتناسى الانتظار لتغفل الزمن ، قطعفت أفكارها إلى هنا وإلى هناك
حتى عثرت في شرودها بالعاشق الجائى في معبده .. فى الحجرة الصيفية ، بنامون
ابن بسار ، ما أرقه وأخف ظله ، كانت تساءلت مرة أخرى كيف تجزبه
على ما أدى لها من خدمة جلييلة ، وقد طار على جناحيه يمامة إلى أقصى الجنوب
وعاد بأسرع مما ذهب يحمله الشوق فيعبر به مشاق الطريق ... بل همست مرة ١

ارتباك كيف تستطيع أن تتخلص منه ؟. ولكنه علمها بقناعته أن من الحب حبا عجبيا لا يعرف الأثرة ولا التملك ولا الطمع ، ويرضى بالأحلام والأوهام . فياله من شاب حالم بعيد عن الدنيا . ولو أنه طمع في قبلة مثلا لما عرفت كيف تتحاماه ، دون أن تمد له فمها ، ولكنه لا يطمع في شيء ، وكأنه يخشى لو لمسها أن يحترق بلهيب غامض . أو لعله لا يصدق أنها شيء يلمس ويقبل . إنه لا يرمقها بعين إنسان فلا يستطيع أن يراها من بنى الإنسان ، ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة في السموات .

وتنهدت وقالت : حقا إن الحب عالم عجيب ، أما حبا فينبع متدفقا من صميم الحياة ، فالقوة التي تجذبها إلى مولاها هي قوة الحياة الكاملة الرهيبة ، وأما حب بنامون فيكاد أن ينقطع له عن أسباب الحياة ، ويضل في آفاق سامية ، لا يعلن عن أثر محسوس إلا في يده الماهرة ، وأحيانا في لسانه الملعثم الحار .. فياله من حب يرق من ناحية فيصير طيفا من الأحلام ، ويقوى من ناحية أخرى فيبث في الصخر الأصم حياة .. فكيف تفكر في التخلص منه وهو لا يكلفها شيئا ، فلتتركه في معبده آمنا ، يصور في جدران الصامتة أجمل التهاويل التي تكتنف وجهها الجميل .

وعادت تهتف من أعماق صدرها : متى الأصيل ؟ سحقالشيث لولبت إلى جانبها لسلتها بثرثرتها وخبثها ، ولكنها أبت ألا أن تذهب إلى آبو لمشاهدة عيد النيل ..

يا ما أجمل الذكريات ! ذكرت العيد الماضي ، يوم اعتلت هودجها الفاخر وشقت به الحشد الكبير لترى فرعون الشباب ، ولما وقعت عيناها عليه خفق قلبها وهي لا تدري ، وأحست بدبيب الحب غريبا لطول عهدها بالجفاء ، فحسبته قلعا غاضبا أو نفثة ساحر ، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها !، ولم

يكديداً اليوم الثاني حتى زارها فرعون . ومن ثم زار قلبها الحب وتغيرت حياتها وتغيرت الدنيا جميعا .

أما العام الثاني فيها هي تقبع في قصرها ، والدنيا تقصف وتلهو في الخارج ، ولن يتاح لها الظهور إلا بحساب فلم تبق رادوييس الغانية الراقصة ، ولكنها منذ عام وإلى الأبد قلب فرعون الخافق ، وكانت أفكارها تضل هنا وهناك فلا تلبث أن تنجذب بعنف إلى موطن همها فتساءلت : ترى ماذا حدث في الاجتماع الخطير الذي قال مولاها أنه سيدعو إليه ليقرأ عليه الرسالة .. هل التأم ولبى النداء وأدناهما إلى أملها الفاتن ؟. أو اه .. متى يأتي الأصيل ..

وملت الجلسة ، فقامت تتمشي ، ودلفت إلى النافذة المطلّة على الحديقة تسرح الطرف في آفاقها المنفسحة . ولبثت ما لبثت حتى سمعت يدا مضطربة تطرق الباب ، فالتفت متضايقة برمة ، فرأت جاريتها شيث تقتحم الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض ، وكان وجهها شاحبا كأنما تقوم ساعتها من فراش مرض طويل ، فوجب قلبها ، وطالعتها نذير شؤم ، وسألتها في إشفاق :

— مالك يا شيث ؟

وهمت الجارية أن تتكلم ، فغلغلبها البكاء ، فعجست على ركبتيها أمام مولاتها ، وشبكت يديها على صدرها ، وأفحمت في البكاء بحالة عصبية شديدة ، فاستولى الانزعاج على رادوييس وصاحت بها :

— مالك يا شيث ؟.. بالله تكلمي ، ولا تتركني فريسة الحيرة ، فإن لي آمالا أخاف عليها الوسوس .

فتنهدت المرأة تنهدا عميقا ، وشهقت شهقة عنيفة ، ثم قالت بصوت باك :

— مولاتي .. مولاتي .. إتهم هائجون ناثرون !

— من الهائجون الثائرون ؟

— الناس يا مولاتي .. إنهم يصرخون في غضب جنوني ، مزقت الأرباب ألسنتهم .

فخفق قلبها مفزوعا وقالت بصوت متهدج :

— ماذا يقولون يا شيث ؟

— آه يا مولاتي .. إنهم قوم مجانين تهذى ألسنتهم المسمومة هذيانا مخيفا .

فكادت المرأة تجن فزعا ، وصاحت بجدة :

— لا تعذبيني يا شيث ! صارحيني بما قالوا .. رباه .

— مولاتي إنهم يذكرونك ذكرا غير جميل .. ماذا فعلت يا مولاتي حتى

تستحقي غضبهم ؟

فضمت رادوييس يدها إلى صدرها ، وقد اتسعت عيناها ذعرا ، وقالت بصوت متقطع :

— أنا .. أَيْغضب الناس عليّ أنا .. ألم يجدوا في هذا اليوم المقدس ما يشغلهم

عني .. رباه .. ماذا قالوا يا شيث .. أصدقيني رحمة بي .

فقالت المرأة وهي تبكي بكاء مرا :

— تصايح المجانين يا مولاتي بأنك تنهين مال الأرباب .

فتهدت من صدر مكلوم ، وتمتمت بحزن :

— أواه .. إن قلبي ينخلع ويتوجس خيفة ، وأخوف ما أخاف أن يضيع

الفوز المرتقب وسط الصراخ وصيحات الغضب . أما كان الأجدر بهم أن

يتغاضوا عني إكراما لمولاهم ؟

فصكت الجارية صدرها بيدها ، وولولت قائلة :

— إن مولانا نفسه لم يسلم من أذى ألسنتهم .

وفرت صرخة فرع من فم المرأة الفزعة ، وأحست برجفة تزلزل نفسها ،
وقالت :

— ماذا تقولين ؟.. هل تجاسروا على مس فرعون ؟

فقالَت المرأة الباكية :

— نعم يا مولاتي وأسفاه .. قالوا فرعون يلهو . نريد ملكا جادا .

فرفعت رادويس يديها إلى رأسها كأنها تستغيث ، وتلوى جسمها من شدة
الآلم ، وارتمت بيأس على الديوان ، وهى تقول :

— رباه .. أى هول هذا .. كيف لا تزلزل الأرض . وتندك الجبال ! كيف

لا تصب الشمس نيرانها على الدنيا !

فقالَت الجارية :

— إنها تزلزل يا مولاتي زلزالا شديدا . فالقوم مشتبهون فى قتال عنيف مع
الشرطة ، والدماء تسيل وتنفجر .. وكادت تطوئ الأقدام ، ففرت لألوى على
شئ ، والمحدرت فى قارب إلى الجزيرة ، وما كان أشد انزعاجى إذ وجدت النيل
يموج بالسفن ، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون ، وكأنهم جميعا
على ميعاد .

وغشيا خور ، وطغت عليها موجة يأس خانق ، أغرقت آمالها الصارخة بغير
رحمة . وجعلت تساءل نفسها المحزونة : ترى ماذا حدث فى آبو ؟ وكيف
وقعت هذه الحوادث الخطيرة ، وما الذى أثار الشعب وأخرجه عن وعيه ، وهل
يقدر للرسالة الفشل ويقضى على أملها بالموت ؟ الجو مغبر كالح ، تتطاير فيه نذر
شر مستطير ، ولن يتذوق قلبها الطمأنينة ، إن الخوف القاتل يحتم عليه كقطعة من
الزمهرير ، وقد قالت بصوت كالبكاء :

— العون أيتها الأرباب .. هل يظهر مولاي لهذا الشعب الهائج ؟.

(رادويس)

فقلت شيث تطمئننا :

— كلا يا مولاتي .. لن يترك قصره قبل أن ينزل عقابه بالناثرين .

— رباه .. أنت لا تعرفين من هو يا شيث .. إن سيدى غضوب لا يتقهقر أبدا ، ولشد ما يخاف قلبى يا شيث . لابد أن أراه الآن .

فارتجت الجارية رعبا وقالت :

— هذا مستحيل .. فالسفن الغاصة بالهائجين تغطى سطح الماء ، وحرس الجزيرة متجمع على الشاطئ .

فشدت على رأسها وصاحت :

— ما بال الدنيا تضيق فى وجهى ، والأبواب تسد على ؟ إلى أتردى فى بحر ضيقة من اليأس ، آه يا حبيبى .. كيف أنت الآن وكيف السبيل إليك ؟ ..

فقلت شيث تخفف عنها :

— صبرا يا مولاتي ، ستنشع هذه السحابة القاتمة .

— يمزق قلبى إربا أن أشعر بأنه يتألم . آه يا سيدى وحبيبى ! ترى ماذا يقع

الآن من الحادثات فى آبو ؟!

وقهرتها الأحزان فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة ، ودهشت شيث لدى هذا المنظر الغريب إذ رأت رادويس ربيبة الحب والنعيم والترف تذرف الدمع وتتأوه من الألم واليأس ، وفكرت فى غيوبة الحزن التى غشيتها فيما آلت إليه آمالها التى كانت مشرقة منذ قليل ، وأحس قلبها ببرودة اليأس ، وتساءلت خائفة مذعورة : هل يمكن أن يرغموا مولاها فيفقدوه سعادته وكبرياه أو أن يجعلوا قصرها هدفا لغضبهم ومقتهم ؟ إن الحياة لا تطاق مع تحقيق أى من هذه الوسوس ، ولخير لها أن تفارق الحياة إذا فرغت من مجدها وسعادتها ، فإما أن تعيش رادويس التى حالفها الحب والمجد وإما أن تموت .

وفكرت في أمرها طويلا حتى أحضرت لها ذاكرة الأحران ما كانت أدرجته طوايا النسيان ، فاستولى عليها اهتمام شديد ، وقامت من فوريتها وغسلت وجهها بماء بارد لتمحو أثر البكاء من عينيها ، وقالت لشيث : إنها ستحدث إلى بنامون في بعض الشئون . وكان الشاب منهمكا في عمله كعادته ، غافلا عما يكدر صفو الدنيا من خطير الحداث . ولما أحس بها أقبل نحوها فرحا ، ولكنه سرعان ما وجم وقال :

— وحق هذا الحسن الإلهي إنك حزينة اليوم .

فقالت وهي تخفض ناظرها :

— بل تعب فقط أو كالمریضة .

— الجو شديد الحرارة ، لماذا لا تحلسين ساعة إلى شاطئ البركة ؟

فقالت باقتضاب :

— جئتك برجاء يا بنامون .

فعقد ذراعيه إلى صدره كأنما يقول لها هأنذا طوع بنانك .

فقالت :

— أتذكر يا بنامون أنك حدثني يوما عن السموم العجيبة التي ركبها

أبوك ؟.

فقال الشاب وقد بدت على وجهه الدهشة :

— نعم أذكر ذلك بغير ريب !

— بنامون ، أريد قارورة من هذا السم العجيب ، الذي أطلق عليه أبوك

السم السعيد .

فازداد الشاب دهشة وتمتم متسائلا :

— ولم ؟

فقلت بلهجة هادئة ما استطاعت :

— لقد حدثت أحد الأطباء فأبدى اهتماما بشأنه ، وطلب إليّ أن أوافيه
بقارورة منه ، عسى أن ينقذ بها حياة أحد مرضاه ، فوعده يا بنامون ، فهل
تعدنى بدورك أن تحضرها لى فى أقرب وقت ؟

فقال الشاب بسرور ، وكان يسعده أن تطلب إليه ما تشاء :

— ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل .

— كيف ؟ ألا ينبغى أن ترحل إلى أمبوس لإحضارها ؟

— كلا .. لدى قارورة فى مسكنى بآبو .

فأثار تصريحه اهتمامها بالرغم من أحزانها ، ورمقته بنظرة دهشة ، فخفض
عينيه وقد تخضب وجهه احمرارا وقال بصوت خافت :

— أحضرتها فى تلك الأيام الأليمة ، حين كدت أشفى من حبى على اليأس ،

ولولا ما أبديت بعد ذلك من عطف لكنت الآن إلى جوار أوزوريس !

وذهب بنامون ليحضر لها القارورة ؛ أما هى فهزت كتفها استهانة وقالت

وهى تهم بالمسير :

— قد ألوذ بها مما هو شر منها !!

سهم الشعب

صدع طاهو بأمر مولاه ، فأدى التحية وذهب يعلو وجهه الارتباك والخوف ، وظل الرجلان واقفين ممتنعى الوجه حتى خرج سوفخاتب عن صمته ، فقال بتوسل :

— أضرع إليك يا مولاي أن تعدل عن الذهاب اليوم إلى المعبد .
ولكن فرعون لم يتسع صدره لهذه النصيحة ، فقطب جبينه غضبا وقال :
— أأفر لدى أول هتاف ؟
فقال الوزير :

— مولاي إن القوم هائجون غاضبون ، فينبغي التروى .
— يحدثنى قلبى بأن خططنا سائرة إلى الفشل المحتوم ، فإذا تراجعت اليوم خسرت هيتى إلى الأبد .

— وغضب الشعب يا مولاي ؟
— سيدأ ويسكن إذا رآنى أشق صفوفه على عجلتى كالمسلة الشائخة ،
واقترحام الأهوال ولا التسليم والخنوع .

ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئة وذهابا ساخطا شديد التأثير ، فسكت سوفخاتب وهو كظيم ، وعطف ناظريه إلى طاهو وكأنه يستغيث به . ولكن القائد كان غارقا فى الهموم كما بدا من امتقاع وجهه ، وشروذ نظرتة ، وثقل أجفانه . فشملهم صمت عميق ، ولم يكن يسمع إلا وقع أقدام الملك .
وقطع عليهم سكونهم أحد الحجاب ، وكان متسرعا مضطربا ، فأنحصر

للملك ، وقال :

— ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاي في المثول بين يديك .
فأذن له الملك ، وحجج رجليه بنظرة يفحص بها أثر قول الحاجب في
نفسهما . فوجدهما قلقين مضطربين . فعلت فمه ابتسامة ساخرة ، وهز كتفيه
العريضتين استهانة . ودخل الضابط وكان يلهث من الجهد والاضطراب ،
وكانت ثيابه معفرة وقلنسوته مضعضعة تنذر بالشر ، فأدى التحية ، وقال قبل
أن يؤذن له في الكلام :

— مولاي !. إن الشعب مشتبك مع رجال الشرطة في قتال عنيف ، وقد قتل
من الجانبين رجال كثيرون ، ولكن سيفتحمنا القوم إذا لم تصلنا نجادات قوية من
الحرس الفرعوى .

وارتاع سوفخاتب وطاهو ارتياعا ، ونظرا إلى فرعون فوجداه مرتعش
الشفيتين من الغضب ، وقد صاح بصوت أجش :

— وحق الأرباب جميعا ما أتى هذا الشعب للاحتفال بالعيد .
فاستدرك الضابط قائلا :

— وقد آذنتا العيون يا مولاي أن الكهنة يخطبون الناس في أطراف المدينة
زاعمين لهم أن فرعون يتذرع بوجود حرب وهمية في الجنوب ليحشد جيشا يذل
به الشعب ، والناس تصدقهم ويشتد بهم الغضب ، ولولا وقوف الشرطة في
وجههم لانتحموا السبل إلى القصر المقدس .

فصاح فرعون كالرعد :

— قطع الشك باليقين ، وافتضحت الخيانة اللثيمة ، وها هم أولاء يعلنون
العداوة ويبدأوننا بالهجوم !

ووقع الكلام من الآذان موقعا غريبا لا يصدق ، وبدا على الوجوه كأنها

تساعل في دهشة وإنكار : أحقا أن هذا فرعون ؟ وهذا شعب مصر ؟ .. ولم يطق طاهو صبرا . فقال لمولاه :

— مولاي ! هذا يوم كتيب كأنما دسه الشيطان خفية في دورة الزمان وكانت بدايته سفك دماء ، والرب أعلم كيف يكون منتهاه ، فمرني أن أقوم به واجبي . فسأله فرعون :

— وماذا أنت فاعل يا طاهو ؟

— سأوزع الجنود على أماكن الدفاع الحصينة ، وأقود فرقة العجلات للملاقاة الثائرين ، قبل أن يتغلبوا على الشرطة ويقتحموا الميدان إلى القصر . فابتسم فرعون ابتسامة غامضة وصمت مليا ، ثم قال بصوت رهيب : — سأقودها بنفسى .

فانزع قلب سوفخاتب في صدره ، وصاح بالرغم منه : — مولاي !

فضرب الملك صدره بيديه بعنف ، وقال :

— ما زال هذا القصر حصنا ومعبدا منذ آلاف السنين ، ولن يصير على عهدى هدفا رخيصة لكل متمرّد .

خلع الملك جلد الثمر ورماه بازدراء ، وأسرع إلى مخدعه ليرتدى لباسه الحرى . وفقد سوفخاتب اتزانته ، وتوجس خيفة وشرّا ، فالتفت إلى طاهو ، وقال بلهجة الأمر :

— أيها القائد لا وقت لدينا نضيعه ، فاذهب وأعد الدفاع عن القصر ، وانتظر ما يأتيك من الأوامر .

وخرج القائد يتبعه الشرطى ، ولبث الوزير ينتظر الملك .

ولكن الحادثات لم تنتظر ، فقد حملت الريح ضوضاء صاخبة ، وما زالت

تعلو وتشتد حتى طبقت على الآفاق ، فهرول سوفخاتب إلى الشرفة المطلة على فناء القصر وألقى بناظره إلى الميدان ، فرأى جموع الشعب تعدو قادمة من بعيد هاتفة ملوحة بالسيوف والخناجر والعصى . كأنها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين منها إلا رعوسا عارية وسلاحا لامعا . فأحس الوزير بالفرع ونظر إلى أسفل ، فرأى العبيد في حركة سريعة يشبتون المتاريس خلف الباب العظيم ، وجرى المشاة كالنصور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط في الأمام على الجانبين الشمالى والجنوبى ، واندفعت قوات عظيمة منهم إلى ممر الأعمدة الموصل إلى الحديقة يحملون الرماح والقسي ، أما العجلات ، فقد ارتدت إلى الوراء ، واصطففت صفين طويلين تحت الشرفة استعدادا للانطلاق في الفناء إذا اقتحم الباب الخارجى .

وسمع سوفخاتب وقع قدمين خلفه ، فالتفت إلى الراء ، فرأى فرعون واقفا على عتبة الشرفة في ثياب القيادة العليا ، على رأسه تاج مصر المزدوج ، وكانت عيناه ترسلان شررا متطايرا ، والغضب مرتسما على وجهه كلسان من اللهب ، ويقول حانقا مغیظا :

— حوصرنا قبل أن نبدى حراكا !

فقال سوفخاتب :

— القصر يا مولاي قلعة لا تؤخذ ، يدافع عنها جنود جبابرة ، وسيرتد الكهنة مهزومين .

وجهد الملك في مكانه ، وتراجع الوزير وراه ، وجعلا ينظران في صمت محزن إلى الجموع التي لا يحصيها العد ، وهى تهدر كالوحوش ، وتلوح مهددة بسلاحها ، وتهتف بأصوات كالرعد : « العرش لنيتوقريس » ، « ليسقط الملك العايب » . وكانت جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج ،

فتستقر في المقاتل ، ورد الثائرون بسيل عارم من الأحجار والأخشاب
والسهام .

وهز فرعون رأسه ، وقال :

— مرحى ... مرحى ... أيها الشعب الكاسر الذى جاء لخلع الملك
العابث ، ما هذا الغضب ، ما هذه الثورة . لماذا تهدد بهذا السلاح ، أتريد حقاً أن
تغمده في قلبي ؟ .. مرحى .. مرحى .. إنه لمنظر حقيق بأن يخلد على جذران
المعابد .. مرحى مرحى يا شعب مصر .

وكان الحراس يقاتلون بشدة وبسالة ، ويطلقون السهام كالطر ، فإذا سقط
منهم قتيل حل مكانه غيره مستهيناً بالموت ، والقواد على متون الجياد يطوفون
بالأسوار ويديرون القتال .

وإنه ليشاهد هذه المناظر الأليمة ، إذ سمع صوتاً يعرفه حق المعرفة يقول :

— مولاي .

فالتفت إلى الوراء مدهوشاً ، فرأى الذى يناديه على قيد خطوتين ، فقال
بعجب :

— نيتو قريس !

فقالَت الملكة بصوت حزين :

— نعم يا مولاي ، لقد صك أذن صراخ يشع لم يسمع من قبل في هذا
الوادى ، فجئت ساعية إليك لأعلن ولأنى ، وأشاطرك المصير .

قالت ذلك ، ثم ركعت على ركبتيها وأحنت رأسها ، فقهقر سوفخاتب إلى
الخارج . وبادر الملك إلى معصمها ورفعها من ركعتيها ، ونظر إليها بعينين
مربكتين . ولم يكن رآها من اليوم الذى جاءت فيه إلى جناحه وردها أسوأ رد ،
فاشتد به الحرج والألم ، على أن صياح القوم وصراخ المتقاتلين رداه إلى ما كان

عليه ، فقال لها :

— شكرا لك أيتها الأخت ، تعالى انظري إلى شعبي ، إنه يحينى فى يوم العيد .

فخفضت عينها ، وقالت فى حزن عميق :

— كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

واستحال تهكم الملك غضبا وسخطا وازدراء ، وقال بلهجة تنطوى على الاشتمزاز :

— بلد مجنون ، جو خائق ، قلوب ملوثة .. خيانة .. خيانة .. خيانة ..
فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة ، وجمدت عينها من الذعر ،
وأحست بأنفاسها تحتبس فى صدرها .

ترى هل حمل هتاف القوم لها على بعض الظن ؟ .. وهل يكون جزاؤها الاتهام
بعد أن طوت قوادها على أسقامه ، وجاءت طوعا إلى من أهانها وأشقاها ؟ ..
وهاها الأمر ، فقالت :

— وأسفاه يا مولاي ، ليس فى وسعى إلا أن أشاطرك المصير ، ولكنى
أعجب من الخائن ، وكيف كانت الخيانة !؟

— الخائن رسول ائتمنته على رسالة ، فسلمها إلى عدوى !؟

فقالت الملكة بلهجة استغراب :

— لا علم لى بالرسالة ، ولا بالرسول ، ولا أظن أن الوقت يتسع لإنبأى ،
وما أتمنى عليك من شىء إلا أن أظهر إلى جانبك أمام الشعب الذى يهتف لى ليعلم
أنى أو اليك ، وإنى أعادى من يعاديك .

— شكرا لك يا أختاه ، ليس من حيلة ، وما على إلا أن أستعد لموت

شريف .

ثم أمسك بذراعها ، وسار بها صوب حجرة اعتكافه وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معا إلى الحجرة الفاخرة ، وكان يطالع الداخل محراب منحوت في الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة السابقتين ، فاتجه الملكان إلى تمثال والديهما ، ووقفا أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزبتين كئيبتين ، وقال الملك بصوت ثقيل ، وهو ينظر إلى تمثال والديه :

— ترى ما رأيكما في ؟

وسكت لحظة كأنه ينتظر أن يتلقى الجواب ، وعاوده انفعاله فغضب على نفسه ، ثم ثبت عينيه على وجه أبيه ، وقال :

— لقد أورثتني ملكا عظيما ومجدا أثيلا ، فماذا صنعت بهما ؟ لم يكدهم على عام على توليتي حتى شارفت الدمار ، وأسفاه لقد أذللت عرشي موطننا للنعال ، وجعلت اسمي مضغعة للأفواه ، واكتسبت لنفسى اسما جديدا لم يطلق على فرعون من قبل ، هو الملك العاثر .

وانحنى رأس الملك الشاب مثقلا حزينا ، ولبث ينظر إلى الأرض بعينين مظلمتين ، ثم رفعهما إلى تمثال والده ، وتتمم :

— لعلك وجدت في حياتي ما أخجلك ، ولكنك لن تحجل من موتى أبدا !
والتفت إلى الملكة ، وقال لها :

— هل تغفرين إساءتي يا نيتو قريس ؟

وكان التأثير قد بلغ منها مبلغا عظيما ، فاغرورت عيناها بالدموع ، وقالت :

— لقد نسيت همومي في هذه الساعة .

فقال بانفعال شديد :

— طالما أسأت إليك يا نيتو قريس ، لقد تطاولت على كبريائك ، وظلمتك

وجعلت حماقتي من سيرتك أسطورة حزينة تلقى بالإنكار والغرابة . كيف حدث هذا ؟ .. وهل كنت أستطيع أن أغير المجرى الذى تنصب فيه حياقي ... لقد غمرتني الحياة وتولاني جنون عجيب ، ولا أستطيع حتى في هذه الساعة أن أعلن ندمي ، وأسفاه إن العقل يستطيع أن يعرفنا بسخفنا وتفاهتنا ، ولكن يبدو لي أنه لا يقدر على تلافيهما . هل رأيت أفدح من هذه المأساة التي أردتها ؟ .. ومع هذا فلن يفيد الناس منها إلا بلاغة كلامية ، وسيبقى الجنون ما بقيت حياة الناس . بل لو بدأت حياقي من جديد لما تجنبت الوقوع مرة أخرى ، أيتها الأخت .. لقد ضاقت نفسي بكل شيء ، وما من فائدة ترجى . فالخير أن أستحث النهاية .

وبدا على وجهه العزم والاستهتار ، فسألته حائرة قلقة :

— أى نهاية يا مولاي ؟

فقال بحدة :

— لست ندلا لثيما ، وأستطيع أن أذكر واجبي من بعد طول النسيان . ما جدوى القتال ؟ .. سيصرع جميع رجالى المخلصين أمام عدو لا يحصى له عدد ، وسيأتى دورى حتما بعد إزهاق آلاف من الأرواح من جنودى وشعبى ، ولست جباناً رعيدياً يلوذ بأهداب الحياة قابضاً على خيط واه من الأمل ، فلأحقن الدماء وأواجه الناس بنفسي .

فارتاعت الملكة وقالت :

— مولاي .. أتحمل ضمير رجالك وزر التخلي عن الدفاع عنك ؟ ..

— بل لا أريد أن أضحي بهم عبثاً ، وسألقى عدوى وحيدا لنصفى حسابنا معا .

فأحست بامتعاض شديد ، وكانت تعرف عناده ، فبست من إقناعه ،

وقالت بهدوء وحزم :

— سأكون إلى حناذك .

ولكنه هلع ، وأمسك بذراعيها ، وقال بتوسل :

— نيتو قريس ، إن الشعب يريدك ، وحسنا أراد . فأنت جديرة بحكمه

فأبقى له . إياك وأن تظهرى إلى جانبى فيقولوا إن الملك يحتمى بزوجه أمام

الشعب الغاضب .

— وكيف أتخلى عنك ؟

— افعلى هذا من أجلى ، ولا تقدمى على عمل يفقدنى شرفى إلى الأبد .

فأحست المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد ، فصاحت يائسة :

— يا للساعة الرهيبة !

فقال الملك :

— هذه رغبتى تنفيذها إكراماً لى ، لا تقاومى وحق والدينا ، فإن كل دقيقة تمر

يسقط جنود بواسل بغير ثمن . الوداع أيتها الأخت الكريمة ، أنا ذاهب موقنا

بأنك لن تلطخينى بالعار فى ساعتى الأخيرة ، إن من يتمتع بالسلطان الكامل لا

يستطيع أن يقنع بالأسر فى قصر . فالوداع أيتها الدنيا ، الوداع أيتها اللذات

والآلام .. الوداع أيها المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء . لقد مجت نفسى كل

شئ ، فالوداع الوداع ..

وهوى بفمه فقبل رأسها ، والتفت إلى تمثال والديه ، وانحنى لهما ، ثم

ذهب .

ووجد سوفخاتب ينتظر فى الردهة الخارجية ، جامدا كتمثال أنحنى عليه

القدم ؛ فلما رأى مولاه دبث فيه الحياة وتبعه فى سكون ، وفسر خروجه على

هواه ، فقال :

— سيث ظهور مولاي روح الحماس في قلوبهم الباسلة .
فلم يحبه الملك . وهبط الأدرج معاً إلى ممر الأعمدة الطويل الذي يصل ما
بين الحديقة والفناء ، وأرسل في طلب طاهو ، وانتظر صامتا . وفي تلك اللحظة
نزعت نفسه إلى الناحية الجنوبية الشرقية ، إلى بيعة .. وتهد من أعماق قلبه ،
لقد ودع كل شيء إلا أحب الناس إليه ، فهل تحم النهاية قبل أن يلقي نظرة على
وجه رادوييس ويسمع صوتها لآخر مرّة ؟ .. وأحس قلبه بحنين أليم وحزن
شديد ، وصحا من غفوة همومه على صوت طاهو يحبه ، فاندفع بقوة لا تقهر
إلى سؤاله عن طريق بيعة قائلا :

— هل النيل آمن ؟

فأجابه القائد قائلا ، وكان ممتقع الوجه شديد تشحوب :
— كلا يا مولاي . ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف بالقوارب المسلحة ،
ولكن أسطولنا الصغير ردهم بغير عناء ، ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبدا .
ولم يكن القصر الذي بهم الملك ، لذلك أحنى رأسه ، وقد أظلمت عيناه .
سيموت قبل أن يلقي نظرة وداع على الوجه الذي باع الدنيا ومجدها من أجله .
تري ماذا تفعل رادوييس في هذه الساعة المفجعة .. هل بلغها ما أصاب آمالها من
الانهيار ، أم أنها ما تزال تتيه في وديان السعادة ، وتنتظر عودته بفارغ الصبر ؟
ولم يكن الوقت يسمح له بالاستسلام إلى أحزانه ، فطوى آلامه في صدره ،
وقال لطاهو آمرا :

— مر جنودك أن تخلي الأسوار ، وتكف عن القتال ، وتعود إلى ثكناتها .
فاستولت الدهشة على طاهو ، ولم يصدق سوفخاتب أذنيه فقال بانزعاج :

— ولكن الشعب يقتحم الباب توا !

ولبت طاهو واقفا لا يبدى حراكا ، فصاح الملك بصوت كالرعد دوى دويا

نخيفا في مر الأعمدة :

— اصدع بما أمرت .

وذهب طاهو ذاهلا ينفذ أمر مولاه ، وتقدم فرعون بخطى ثابتة نحو فناء القصر ، فالتقى عند نهاية الممر بفرقة العجلات المصطفة ، وقد رآه الضباط والجنود ، فسلوا أسيافهم وأدوا التحية ، فنادى الملك قائد الفرقة وقال له :

— عد بفرقتك إلى الثكنات ولا تبرحها حتى تأتيك أوامر أخرى .

فأدى القائد التحية وجرى نحو فرقته ، ونادى في الجند بصوت شديد فتحركت العجلات بسرعة وانتظام إلى ثكناتها في الجناح الجنوبي من القصر . وكان سوفخاتب ترتعد أوصاله ، ولا تكاد تحمله قدماء الضعيفتان ، وقد أدرك ما يريده مولاه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة .

ومضت الجند تحلى مواقعها الحصينة منفذة الأمر الرهيب ، وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوي في نظام إلى ألويتها ، ثم تعدو بسرعة إلى الثكنات يتقدمها ضباطها . وما لبثت أن خلت الأسوار ، وخلا الفناء والممرات حتى من قوات الحرس العادى المنوط بها واجب الحراسة في أوقات السلام .

وظل الملك واقفا عند مدخل الممر وإلى يمينه سوفخاتب . وعاد طاهو لاهثا ، ووقف إلى يساره ، وقد بدا على وجهه كالشبح الخفيف . وكان كلا الرجلين يرغب في التوصل إلى الملك برغبة حارة ، ولكن ما بدا على وجهه من الجمود والصلابة والشدة ، بدد شجاعتهما ، فلازما الصمت مرغمين . والتفت الملك إليهما ، وقال بهدوء :

— لماذا تنتظران معي ؟

فارتعب الرجلان أيما ارتعاب ، ولم يستطع طاهو إلا أن ينطق بهذه الكلمة

بتوسل وإشفاق :

— مولاي .

أما سوفخاتب فقال هددو غير عادى :

— إذا أمرني مولاي بالتخلي عنه سأصدع بأمره لا محالة ، ولكنني سأزهق نفسي في الحال .

فتهد طاهو ارتياحا كأنه ظفر بالحل الذي أعياه طلبه ، وتتم قائلا :

— أحسنت أيها الرئيس .

وسكت فرعون ، ولم يقل شيئا .

وفي أثناء ذلك كانت توجه إلى باب القصر الكبير ضربات شديدة قاصمة ، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء الأسوار كأنهم توجسوا حيفة من انسحاب الحرس المفاجيء ، وتوهموا أنه ينصب لهم شراكا قاتلا ، فوجهوا كل قوتهم إلى الباب ، ولم يحمل الباب ضغطهم زمنا طويلا فترعزت المتاريس وارتج بنيانه وهوى بقوة عنيفة رجت الأرض رجا ، واندفعت الجموع متدفقة صاخبة ، وانتشروا في الفناء كغبار ريح الصيف . وكانوا يتدافعون بعنف ، وكأنهم يتقاتلون ، ويتباطأ المتقدمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور . وما زالوا في تقدمهم حتى شارفوا القصر الفرعوني ، ولحت أعينهم الواقف عند مدخل الممر ، وعلى رأسه تاج مصر المزودج فعرفوه ، وأخذوا بمنظره ووقفته وحيدا لهم . وتشبثت أقدام الذين على الرعوس بالأرض ، ونشروا أذرعهم يوقفون التيار الجارف المنصب وراءهم ، وصاحوا في الجموع :

— مهلا .. مهلا .

ولعب أمل ضعيف بقلب سوفخاتب حين رأى الدهول يستولى على قادة الثائرين فيشل أعضائهم ، ويزيغ أبصارهم ، وتوقع قلبه التهلكة معجزة تخلف ظنه الأسود . ولكن كان يوجد بين الثائرين دهاة يشفقون مما يرجو قلب

سوفخاتب ، وحشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة ، ويخسروا قضيتهم إلى الأبد ، فامتدت يد إلى قوسها ، ووضعت سهمها في كبده ، وسددته إلى فرعون وأطلقت ، فانطلق السهم من وسط الجموع واستقر في أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوة أو رجاء ، وصرخ سوفخاتب كأنما هو الذى أصيب ، ومد يديه يسند الملك فالتقتا مع يدي طاهو البارتين . وأطبق الملك شفثيه فلم يخرج منهما أنين ، ولا آهة ، وتماسك بما بقى فيه من قوة ليحفظ توازنه وقد تقطب جبينه ، وارتسم عليه الألم ، وأحس سريعا بخور وضعف ، وأظلمت عيناه فترك نفسه لأيدي رجله المخلصين .

وساد الصفوف الأمامية سكون رهيب ، وعقد الألسنة صمت ثقيل : وهلعت الأعين ، وأرسلت نظرات زائغة إلى الرجل العظيم الذى يعتمد على رجله تتحسس يده موضع السهم في صدره فيلطحها الدم الساخن المتدفق بغزارة ، وكأنهم لا يصدقون أعينهم ، أو كأنهم هاجموا القصر لغير هذه الغاية . ومزق السكون صوت من المؤخرة يسأل :

— ماذا هنالك ؟

فقال آخر بصوت خافت :

— قتل الملك !!

وتناقلتها الألسنة بسرعة جنونية ، وتصايح بها الناس ، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتياح .

ونادى طاهو عبدا وأمره أن يحضر هودجا ، فجرى الرجل إلى داخل القصر ، وعاد يحمل هودجا هو وجماعة من العبيد ، فوضعه على الأرض ورفعوا جميعا فرعون وأناموه في رفق . وانتشر الخبر داخل القصر ، فجاء طبيب الملك مسرعا ، وظهرت خلفه الملكة ، وكانت تسرع الخطا في اضطراب باد .

(رادويس .

ولما وقعت عينها على الهودج وعلى النائم جرت إليه فزعة ، وجثت على ركبتيها إلى جانب الطبيب ، وهى تقول بصوت متهدج :
— يا للويل .. قد أصابوك يا مولاى كمشيقتك !
وشاهد القوم الملكة ، فصاح واحد منهم :
— جلالة الملكة .

وانحنى هامات الشعب الواجم كأنه فى صلاة جامعة . وأخذ الملك يفيق من أثر الصدمة الأولى ، ففتح عينيه المغمضتين ، ومضى يقلبهما فيمن حوله فى هدوء وضعف وكان سوفخاتب يحملق فى وجهه فى ذهول وصمت ، وكان طاهو جامدا ووجهه كوجوه الموتى ، وكان الطبيب يفحص الجرح ، يكشف عنه قميص الزرد . أما الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والألم ، وقالت للطبيب :

— أليس بخير ؟ قل لى إنه بخير !
فأدرك الملك ما تقول ، وقال ببساطة :
— كلا يا نيتوقريس ، إنه سهم قاتل .
وأراد الطبيب أن ينتزع السهم ، ولكن الملك قال له :
— دعه لا فائدة ترجى من هذا العذاب .
واشتد التأثير بسوفخاتب ، فقال لطاهو بانفعال شديد غير نبرات صوته تغيرا تاما :

— ادع جندك ، وانتقم لمولاك من المجرمين .
وبدت على الملك المضايقة ، فرفع يده بصعوبة ، وقال :
— لا تتحرك يا طاهو ، هل هانت عليك أوامرى يا سوفخاتب فى رقادى هذا ! لا قتال بعد الآن ، قولوا للكهنة إنهم بلغوا غايتهم ، وأن مرنرعى الثانى على فراش الموت ، فليرجعوا بسلام .

وسرت رعدة في جسم الملكة فمالت على أذنه ، وقالت همسا :
— مولاي ! لا أحب أن أبكي أمام قاتليك ، ولكن ليطمئن قلبك ، فوحي
أبوينا ، وحق الدم الزكي لأنتقم من عدوك انتقاما تتحدث به الأزمان جيلا
بعد جيل .

فابتسم إليها ابتسامة خفيفة يعبر بها عن شكره ومودته ، وغسل الطبيب
الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكن ، ووضع بعض الأعشاب حول السهم ،
واستسلم الملك إلى يديه ولكنه كان يشعر بدنو أجله وباقتراب الساعة الفاصلة ،
ولم ينس في رقاده الوجه الحبيب الذي تمنى لو يودعه قبل النهاية المحتومة فلاح في
عينيه نظرات حنين ، وقال بصوت خافت بغير وعي منه إلى ما حوله :

— رادويس .. رادويس .

وكان وجه الملكة قريبا من وجهه فسمعت ، وأحست بطعنة نبلاء تخرق
شغاف قلبها ، فرفعت رأسها وقد أحست بدوار شديد . ولم يلق بالا إلى شعور
الآخرين ، فأوماً إلى طاهو ، فبادر الرجل إليه . فقال له برجاء :

— رادويس .

فقال القائد :

— هل آتى بها يا مولاي ؟

فقال بصوته الخافت :

— كلا .. احملني إليها ، في قلبي بقية حياة أريد أن تنفذ في بيعة .

ووجه طاهو نظرة إلى الملكة في ارتباك شديد ، فقامت الملكة واقفة وقال
بهدوء :

— نفذ مشيئة مولاي .

— ١٩٦ —

وسمع الملك صوتها ، وأدرك قولها ، فقال لها :
— أيتها الأخت ، طالما غفرت لى الذنوب ، فاغفرى لى هذه أيضا .. إنها
رغبة ميت .
فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة . وانحنى على جبينه ولثمته ، ثم أوسعت
للعبيد .

الوداع

انحدرت السفينة في هدوء متجهة صوب جزيرة بيجة ، والهودج في مقصورتها بحمله الثمين ، يقف الطبيب عند رأسه ، وطاهو وسوفخاتب عند قدميه .. وكانت هذه أول مرة يحجم فيها الحزن على السفينة ، فتحمل مولاها نائما مستسلما ، يغشى وجهه ظل الموت . وكان الرجلان يلان زمان الصمت وعيناها الحزيتان لا تفارقان وجه الملك الشاحب ، وكان يرفع جفنيه الثقيلتين ، وينظر إليهما نظرة ذابلة ، ثم يعود فيغمضهما في تراخ . ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويدا رويدا ، حتى رست إلى سلم حديقة القصر الذهبي .

ومال طاهو على أذن سوفخاتب ، وهمس قائلا :
 — أرى أن يسبق أحدنا الهودج حتى لا تؤخذ المرأة بغتة .
 ولم يكن سوفخاتب في تلك الساعة الرهبة يبالى شعور إنسان ، فقال باقتضاب :

— افعل ما بدا لك .
 ولكن طاهو لم يبرح مكانه ، ولبسته حيرة التردد ، فقال :
 — يا له من نبال لا يدري الإنسان كيف يؤديه إليها .
 فقال سوفخاتب بحدة :
 — ماذا تخشى أيها القائد ؟! إن من يتلى بمثل ما ابتلينا به لا يعمل حسابا لمحدور .

قال سوفخاتب ذلك ، وغادر المقصورة مسرعا ، وصعد درجات السلم إلى الحديقة ، واخترق المشى مهرولا حتى انتهى إلى البركة ، فاعترضت سبيله الجارية شيث ، وقد دهشت الجارية لمراه ، وكانت تعرفه من تلك الأيام الخوالى . وفتحت فاما لتكلمه ، ولكنه قطع عليها السبيل قائلا بسرعة :

— أين سيدتك ؟.

فقال شيث :

— مسكينة سيدتى لا تعرف اليوم لنفسها مستقرا . وما زالت تدور بالحجرات ، وتطوف بالحديقة حتى ...

وفرع صبر الرجل فقاطعها قائلا بحدة :

— أين سيدتك ؟.

فقال مستاءة :

— فى الحجرة الصيفية يا سيدى .

وأسرع الرجل إلى الحجرة . ودخل متنحنا ، وكانت رادوبيس جالسة على كرسي مسندة رأسها إلى يدها ، فلما أحست بالداخل التفت إليه ، وسرعان ما عرفت ، فقامت واقفة وكأنها تقفز قفزا ، وقالت باهتمام وقلق :

— الرئيس سوفخاتب .. أين مولاي ؟..

فقال الرجل الغارق فى حزنه بذهول :

— سيأتى عما قليل ..

فضمت يدها إلى صدرها فرحا ، وقالت بصوت بهيج :

— لشد ما عذبتنى المخاوف على سيدى ، لقد بلغنى أنباء العصيان المحزنة ، ثم

انقطع عني كل شيء ، فتركت وحدى إلى وساوس قلبى .. متى يأتى سيدى ؟

وذكرت بسرعة خاطفة أنه لم يتعود أن يرسل رسولا بين يديه فاعتورها القلق
وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سوفخاتب كلامه :

— ولكن لماذا بعثك إليّ ؟

فقال الوزير بمجمود :

— صبرا يا سيدتى ، فلم يرسلنى أحد ، والحقيقة الأسيفة أن مولاى
أصيب .

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعا غريبا داما ، فحملقت فى وجه
الوزير الكتيب فزعة ، وصدرت عن صدرها آهة زفرة حرى مرتعشة ، فقال
سوفخاتب الذى أفقده الحزن شعوره :

— صبرا صبرا .. سيصل مولاى محمولا على هودجه كمشيئته . لقد أصيب
بسهم فى هذا اليوم المنكود الذى غدا عيدا وأضحى مأتما مروعا .

ولم تحتل المكوث فى الحجرة ، فجرت إلى الحديقة كالفرخة الذبيحة ،
ولكنها لم تكذب تجاوز العتبة حتى سمرت قدماها فى الأرض ، وثبتت عينيها على
الهودج يحمله العبيد متجهين صوب الحجرة ، فأفسحت لهم الطريق ، وهى
تضع يديها على رأسها المضطرب من هول المنظر ، ثم تبعتهن على الأثر . وقد
وضعوا الهودج فى حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا خارجا ، وخرج فى
ذيلهم سوفخاتب ، وخلا المكان لها وله .. واندفعت إلى الركوع إلى جانبه ،
وشبكت أصابع يديها وشدت عليها بقسوة وبحالة عصبية عنيفة ، ونظرت إلى
عينييه الساهمتين الذابلتين ، وقد انقطعت منها الأنفاس ، وجرى بصرها الزائغ
على صدره المضطرب ، فرأت بقع الدم والسهم النافذ ، فاقشعر بدنهما بحالة ألم
جنونى ، وصاحت بصوت متقطع من العذاب والفرع :

— أصابوك .. يا للهول !

وكان نائما في تراخ وهمود ، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذة في الانحلال السريع ، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبّت فيه نسيمات حياة رقيقة ، ولاح في عينيه المظلمتين ظل ابتسامة خفيفة . ولم تكن تراه إلا هائجا مفعما بالحياة كالعاصفة ، فكادت تجنّ ، وهى تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل ، وألقت نظرة نارية على السهم الذى أحدث كل هذا ، وقالت بتألم :

— كيف تركوه في صدرك ١٩ . هل أستدعى الطبيب ١٩ .

فاستجمع قواه الخائرة المشتتة ، وقال بصوت ضعيف :

— لا فائدة .

فلاحت في عينها نظرة جنونية ، وقالت بصوت العتاب :

— لا فائدة يا حبيبى .. كيف تقول هذا ؟ .. هل هانت عليك حياتنا !

فمد يده في ضعف شديد حتى مست كفها الباردة ، وهمس قائلا :

— هى الحقيقة يا رادوبيس ، لقد جئت لأموت بين يديك في المكان الذى

أحببته أكثر من أى مكان في الدنيا .. فلا تندبى حظنا ، وامنحبنى صفاء .

— مولاي ، أتنعى إلىّ نفسك ١٩ . يا لساعة الأصيل هذه ، كنت أنتظرها يا

حبيبى بنفس أضناها الشوق وغرر بها الأمل ، وكنت أرجو أن تجيء حاملا إلىّ

بشرى الفوز ، فجئت حاملا إلىّ هذا السهم .. كيف لى بالصفاء ١٩ .

فازدرد ريقه بصعوبة ، وقال بتوسل وبصوت كالأنين :

— رادوبيس تناسى هذا الألم وادنى منى ، أريد أن أنظر إلى عينيك

الصافيتين .

إنه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألق بالغبطة والسعادة ليختم بصورته الفاتنة حياته ، أما هى فكانت تعانى آلاما لا قبل لإنسان بها ، وكانت تود لو تنفس عن

صدرها المضطرم بالصراخ والعيول والهذيان ، أو تلتبس الشفاء في الجنون العنيف واصطلاء نيران الجحيم ، فكيف تصفو وتهلأ وتطالعه بالوجه الذى أحبه وسكن إليه دون العالمين .. وكان يتابع النظر إليه برجاء ، فقال بخزن :
— ليست هاتان العينان عينيك يا رادوييس .

فقالت بأسى وحزن :

— هما عيناى يا مولاي ، ولكن جف ما يمدهما بالنور والحياة .
— أو اه يا رادوييس ، ألا تريدين أن تنسى آلامك هذه الساعة إكراما لى ..
أريد أن أرى وجه رادوييس حبيبتى ، وأن أستمع إلى صوتها العذب .
ونفذ رجاءه إلى قلبها ، فكبر عليها أن تحرمه من شيء يريده فى تلك الساعة السوداء ، وقست على نفسها قسوة شديدة ، فبسطت صفحة وجهها واغتصبت من شفتيها المرتعشتين ابتسامة وحنن عليه فى سكون واطمئنان كأنما تحنو عليه ، وهو يرقدرقاد غرام ، فتبدى على وجهه الشاحب الذابل الرضا ، وانفجرت شفتاه الباهتتان عن ابتسامة .

ولو أنها تركت لعواطفها لما وسعتها الدنيا هذيانا وجنونا ، ولكنها نزلت على إرادته العريضة ، وملأت عينها من وجهه ، وهى لا تصدق أن هذا الوجه سيغيب عنها بعد لحظات قصيرة إلى الأبد ، وأنها لن تراه فى هذه الدنيا مهما تأملت أو تأوهت أو سكبت الدمع الحزين ، وأن صورته وحياته وجهه ستغدو ذكريات ماض غريب ، هيئات أن يصدق قلبها المكلم أنه كان يوما حاضرها واستقبالها . كل هذا لأن سهما مجنونا استقر فى هذا الموضع من صدره . كيف يستطيع هذا السهم الحقير أن يقضى على آمال ضاقت عنها الدنيا بأسرها !.. وتهتد المرأة تنهدا حارا صعد فتات قلبها ، وكان الملك يستفرغ بقية الحياة القلقة فى صدره ، المضطربة فى أنفاسه ، وقد خارت قواه ووهنت أعضاؤه ، وماتت حواسه ،

(رادوييس)

وأظلمت عيناه ، ولم يبق منه إلا صدر يضطرب اضطرابا عنيفا ، ويقتتل به الموت والحياة اقتتال القهر واليأس . وتجلى بغتة على وجهه الألم وفتح فاه كأنما يريد أن يصرخ أو يستغيث ، وأمسك يدها التي امتدت إليه في فزع لا يوصف ، وصاح بقوة :

— رادوبيس اسندى رأسى .. اسندى رأسى .

وأحاطت رأسه بيديها المرتجفتين وهمت أن تجلسه ، ولكنه شفق شهقة قوية ، وأسقطت يده إلى جانبه ، وانتهت عند ذاك المعركة الناشبة بين الحياة والموت . وأعادت رأسه إلى وضعه الأول بسرعة ، وصرخت صرخة فزع شديدة عالية ، ولكنها كانت قصيرة ، ثم انقطع صوتها كأنما مزقت مسالكه ، وتصلب لسانها ، والتحم فكها بشدة ، وحملت في وجه الذى كان إنسانا بعينين جامدتين ، ثم لم تبد حراكا .

وأذاعت صرختها الخبر الأليم ، فهرع الرجال الثلاثة إلى الحجره دون أن تحس بهم ووقفوا أمام الهودج ، ألقى طاهو هلى وجه الملك نظرة ذاهلة ، وعلت وجهه صفرة الموت ولم ينبس بكلمة ، وتقدم سوفخاتب من الجنة ، وانحنى في إجلال عظيم وقد أخفاها عنه دمع جرى على خديه وتساقط على الأرض ، وقال بصوت متهدج مزقت نبراته الباكية الصمت الخيم :

— سيدى ومولای ، وابن سيدى ومولای ، نستودعك الآلهة العلية التى اقتضت مشيقتها أن يكون اليوم بدء رحلتك إلى عالم الأبدية . وددت لو أفتدى شبابك الغض بشيخوختى الفانية ، ولكنها إرادة الرب التى لا ترد . فالوداع يا مولای الكريم .

ومد سوفخاتب يده الهزيلة إلى الغطاء ، وسجى الجنة فى أناة ، وانحنى مرة أخرى ، وعاد إلى مكانه بقدمين ثقيلتين .

وظلت رادوبيس جاثية ، في غفوة من الذهول لا تفيق ولا تتحول عينها عن الجثة ، وقد سرى في جسمها جمود غريب كالموت ، فلم تبد حراكا ، ولا بكت ، ولا صرخت ، وظل الرجال في وقفتهم منكسي العروس .. إلى أن دخل أحد العبيد الذين حملوا الهودج ، وقال :

— وصيفة الملكة .

والتفت الرجال إلى الباب ، فرأوا الوصيفة تدخل يبدو على وجهها الحزن الشديد ، فانحنوا لها تحية ، فردت التحية بإيماءة من رأسها ، وألقت نظرة على الجثة المسجاة ، ثم ردت ناظرها إلى سوفخاتب ، فقال الرجل بصوت حزين :

— انتهى الأمر أيتها السيدة الجليلة .

فصمت المرأة برهة كالذاهلة ، ثم قالت :

— ينبغي إذا أن تحمل الجثة الكريمة إلى القصر الفرعوني ، هذه إرادة جلالة الملكة أيها الوزير .

واتجهت الوصيفة نحو الباب ، وأومأت إلى العبيد ، فهرعوا إليها مسرعين ، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج . وقصد العبيد إلى الهودج ومالوا إلى قوائمه ليرفعوه ، فانتبهت رادوبيس مذعورة ولم تكن تحس بشيء مما يدور حولها ، وتساءلت بصوت مبحوح غريب :

— إلى أين .. إلى أين ؟ .

وارتمت على الهودج ، فتقدم منها سوفخاتب وقال :

— إن القصر يريد أن يؤدي واجبه نحو الجثة المقدسة .

فقالت المرأة الذاهلة :

— لا تأخذوه مني .. انتظروا .. سأموت على صدره .

وكانت الوصيفة تتعالى بناظرها عن رادوبيس ، فلما سمعت قولها قالت

بخشونة :

— إن صدر الملك لم يخلق لكي يكون لحدا لإنسان .
وانحنى سوفخاتب على المرأة ، وقبض على معصمها برقة ورفعها بهدوء ،
وحمل العبيد الهودج ، ففرعت رادوبيس يدها من بين يديه ، وأدارت رأسها
بعنف فيما حولها فلم يبد على وجهها التائه أنها عرفت أحدا من الحاضرين ،
وصاحت بصوت متقطع كالحشرة :

— لماذا تأخذونه .. هذا قصره .. وهذه حجرته .. كيف تسومونني القهر
أمامه .. إن مولاي لا يرضى عمن يسيء إليّ .. أيها القساة .. أيها القساة .
ولم تبالها الوصيفة ، فشقت طريقها إلى الحديقة ، وتبعها العبيد يحملون
الهودج . وغادر الرجال الحجرة في خشوع وصمت . وكادت المرأة تجن .
وجمدت في مكانها لحظة قصيرة ، وهمت باندفاع وراءهم ، ولكن يدا غليظة
أمسكت بذراعها ، فحاولت التخلص منها ، ولكن ضاعمت محاولتها هباء .
فالتفتت إلى الورا بعنف وغيظ ، فوجدت نفسها وجهها لوجه أمام طاهو ..

نهاية طاهو

وسهمت إليه بنظرة غريبة كأنها لا تعرفه ، وحاولت أن تخلص ذراعها ، ولكنه لم يمكنها من غايتها ، فقالت له بعنف :
— دعنى أذهب ..

فهز رأسه يمنة ويسرة ببطء كأنه يقول لها : كلا كلا .. وكان وجهه رهيبا مخيفا ونظرة عينيه جنونية ، وتمتم قائلا :

— إنهم ذاهبون إلى مكان لا يجوز أن تلحقهم إليه .

— دعنى أذهب لقد خطفوا سيدى .

فأربد وجهه ، وقال لها بلهجة عنيفة كأنه يلقي أمرا عسكريا :
— لا تقاومى رغبة الملكة الحاكمة .

فسكت عنها الغضب فى خوف وكفت عن المقاومة . واستسلمت استسلاما غريبا ، وقطبت جبينها ، ثم هزت رأسها فى حيرة كأنها تحاول أن تستجمع قوى إدراكها المشتت الذاهل ، وحدجته بنظرة غريبة وإنكار وقالت :
— ألا ترى أنهم قتلوا مولاي .. قتلوا الملك !

وكانت عبارة « قتلوا الملك » تقع من أذنيه موقعا غريبا مروعا فسكن هياجه ، وقال :

— نعم يا رادوبيس ، قتلوا الملك ، وما كنت أحسب قبل اليوم أن سهما يمكن أن يقضى على حياة فرعون .

فقالت ببساطة البله :

— فكيف تدعهم يخطفونه منى بعد ذلك ١٩.

فانفجر ضاحكا ضحكة جنونية مخيفة ، وقال :

— أتريدى أن تتبعى أثرهم ؟.. يا لك من مجنونة يا رادوبيس ، إنك تعمين عن العواقب ، فقد أذهلك الحزن ، اصحى أيتها الفاتنة ، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليها بالهوان ، وانتزعت زوجها من بين يديها ، وأهويت بها من سامق المجد والسعادة إلى زوايا النسيان والشقاء .. إنها سرعان ما تبعث إليك من يسوقك إليها مكبلة بالسلاسل ، ثم تدفع بك إلى أيدي جلادين لا يعرفون الرحمة يخلقون شعرك الحريرى ، ويسملون عينيك السوداوين ، ويجدعون أنفك الدقيق ، ويصلمون أذنيك الرقيقتين ، ثم يحملونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوهة يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ويسير بين يديك مناد يصيح بأعلى صوته أن انظروا إلى العاهرة المشئومة التى أتلقت الملائكة على نفسه ، ثم أتلفته على شعبه .

وكان طاهر يتكلم بلهجة تشف عن غل وعيناه ترقان بنور مخيف ، ولكنها لم تتأثر بكلامه كأنما حيل بينه وبين حواسها ، وسهمت إلى شئ غير منظور فى هدوء غريب ، ثم هزت منكبيها فى استهانة وبساطة . فاحتمد فى قلبه الغيظ والحنق لبرودها وذوولها ، واندفع الغضب من قلبه إلى قبضة يده فشدها عليها ، وشعر برغبة فى أن يوجه إلى وجهها ضربة هائلة جنونية فيحطمه تحطيمًا ، ويمتدح ناظره بتشوّهه ، وتفجر الدم من مسامه ومنافذه ، ولبت دقيقة يتفرس فى وجهها الهادئ الذاهل ، ويحاور رغبته الشيطانية ، ولكنها رفعت عينيها إليه دون أن يلوح فيهما معنى من معانى الحياة ، فاضطرب وتخاذل وبدا عليه رعب من يضبط متلبسا بجرمة ، فتراحت أصابعه ، وتهد تنهدا عميقا ثقيلا ، ثم قال :

— أراك لا تكثرين لشيء .

وكانت لا تلقى إلى ما يقول بالا ، ولكن تصادف أن قالت وكأنها تحدث نفسها :

— كان ينبغي أن تتبعهم .

فقال طاهو بغضب :

— كلا .. كلا .. ما عاد كلانا يصلح للعالم .. ولن يفقدنا بعد اليوم أحد .

فقالت ببساطة وهدهوء :

— أخذته منى .. أخذته منى :

— فعلم أنها تعني الملكة . وهز منكبيه قائلاً :

— لقد استوليت عليه حيا ، واستردته ميتا .

فحدجته بنظرة غريبة ، وقالت له :

— يا أحمق يا جاهل ألا تعلم .. لقد قتله الخائنة لتسترده .

— من الخائنة .

— الملكة ، هي التي أفشت سرنا وأثارت الشعب . هي التي قتلت مولاي .

وكان ينصت إليها في صمت ، وعلى فمه ابتسامة شيطانية ساخرة ، فلما

انتهت ضحك ضحكته الجنونية المخيفة ، ثم قال :

— أخطأت يا رادويس ، ليسبت الملكة خائنة ولا قاتلة .

وحمل في وجهها ودنا منها خطوة ، وكانت تنظر إليه بدهشة وإنكار ، ثم قال

بصوت رهيب :

— إن كان يهلك أن تعرفي الخائن ، فهذا هو ذا يقف أمامك .. أنا الخائن يا

رادويس .. أنا ..

ولم يهملها قوله كما كان يتوقع ، ولا بدت عليها اليقظة . ولكنها هزت رأسها

هزات خفيفة كأنما تريد أن تنفض عن نفسها الحمل والإعياء . فاستولى عليه الغضب ، وأمسك بكتفها بغلظة ، وهزها بعنف شديد ، وصاح بها :
— اصحى ، ألا تسمعين ما أقول .. أنا الخائن .. طاهو الخائن .. أنا علة الكوارث جميعا ..

وارتعد جسمها بعنف ، وانتفضت انتفاضا شديدا خلصت به من يديه وتقهقرت خطوات ، وهى تنظر إلى وجه الفرع بخوف وجنون ، فسكت غضبه وهياجه ، وأحس بتخاذل جسمه ورأسه فأظلمت عيناه ، وقال بهدوء وبلهجة حزينة :

— إني أنطق بكلمات هائلة بكل بساطة ، لأنى أشعر شعورا صادقا أنى لست من أهل الدنيا . لقد انقطع ما بينى وبين العالم جميعا ، ولا شك فيما أحدثه اعترافى لك من الفرع ، ولكنها الحقيقة يا رادوييس ، لقد تحطم قلبى بقسوة شنيعة ، ومزق نفسى الألم البالغ فى تلك الليلة الجنونية التى فقدتك فيها إلى الأبد . وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة ، ثم استطرد قائلا :

— وانطويت على الألم ، واستوصيت بالصبر والتجملد ، واعتزمت صادقا أن أؤدى واجبى إلى النهاية ، حتى كان ذلك اليوم الذى دعوتنى فيه إلى قصرك لتستوثقى من إخلاصى . فى ذلك اليوم جن جنونى ، واشتعلت النار فى دماغى ، فهذيت هذيانا غريبا ، واستاقنى الجنون إلى عدو متربص ، فأفضيت إليه بسرنا ، وهكذا انقلب القائد الأمين خائنا غادرا يطعن من وراء الظهر .

واهتاجته الذكرى فتقلص وجهه ألما وخزيا ، ونظر إلى وجهها الفرع بقسوة ، فعاوده الغضب والحنق ، وصاح :

— أيتها المرأة الهلوك المدمرة . لقد كان جمالك لعنة على كل من رآه . لقد عذب قلوب بريئة ، وخرب قصرا عامرا ، وزلزل عرشا مكينا ، وأثار شعبا

أمينا ، ولوث قلبا شريفا .. إنه لشؤم ولعنة ..
وسكت طاهو ، وما زال الغضب يغلى في شرايينه ، ورآها كصورة للعذاب
والخوف ، فأحس ارتياحا ولذة ، وتمتم قائلا :
— ذوق العذاب والهوان ، وانظري الموت فما ينبغي لأحدنا أن يحيا ، وقد
مت منذ زمن بعيد ، ولم يبق لى من طاهو إلا ثيابه المزركشة المجيدة ، أما طاهو
الذى اشترك فى غزوة التوبة ، وأبلى بلاء حسنا استحق به ثناء ييبى الثانى ، طاهو
قائد حرس مرزق الثانى ، وصفيه ، ومشيره ، فلا وجود له ..
وألقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله . وبدأ على وجهه الضيق والجزع
الشديد ، ولم يعد يحتمل السكون المطبق ، ولا رؤية رادويس التى استحالت
تمثالا جامدا . فنفض فى الهواء بقوة وسخط واشتمزاز ، وقال :
— ينبغي أن ينتهى كل شيء ، ولكنى لن أحرم نفسى من العقاب الصارم ،
سأذهب إلى القصر ، وأدعو كل من يحسن بى الظن ، ثم أعلن جريمتى للملأ ،
وأمزق الستار عن الخائن الذى طعن مولاه وهو يساره ، وأنزع النياشين التى
تحلى صدرى الآثم ، وأرمى بسيفى ، ثم أظعن قلبى بهذا الخنجر .. فالوداع يا
رادويس ، والوداع أيتها الحياة التى تستأدنا فوق ما تستحق ..
نطق طاهو بهذه الكلمات ، ثم ذهب ...

النهاية

ولم يكد طاهو يغادر القصر حتى رسا القارب الذى يحمل بنامون بن بسار إلى سلم الحديقة . وكان الشاب منهوك القوى شاحب اللون معفر الثياب ، قد هدم أعصابه ما رأى من اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس . وكان بلغ مسكنه بشق الأنفس ولاقى في طريق العودة ما هون عليه ما صادفه في الذهاب ، وتنفس الصعداء حين وجد نفسه يسير في ممرات حديقة قصر بيجة الأبيض ، والحجرة الصيفية تعترض سبيله عن بعد قريب ، وانتهى به المسير إلى الحجرة ، فاجتاز عتبتها ، وهو يظن أنها خالية . ولكنه ما لبث أن أدرك خطأه . ورأى رادوبيس جالسة في استرخاء على ديوان تحت صورة وجهها الرائعة ، وشيث متربعة عند قدميها يشملهما سكون غريب فتردد هنيئة ، وأحست شيث بمقدمه ، والتفتت إليه رادوبيس ، ثم قامت الجارية وانحنت له تحية وغادرت الحجرة ، وتقدم الشاب من المرأة ، وقد لفه الفرح ، فلما أن تبين وجهها عن كذب ركدت حركة نفسه ، وأصابه الوجوم والغم ، ولم يشك في أن أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته ، وأن أنباء الآلام التى تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل ، فألبسته هذا الرداء الغليظ من الكدر . وركع بين يديها ، ثم مال على حاشية ثوبها فقبلها بحنان ، ونظر إليها بعينيه الصافيتين نظرة إشفاق كأنه يقول لها : « فداؤك نفسى » ، ولم يغب عنه ما بدا على وجهها لدى رؤيته من الارتياح ، فخفق قلبه خفقة السعادة ، وتخضب وجهه بالاحمرار ، وقالت له رادوبيس بصوت ضعيف :

— غبت طويلا يا بنامون .

فقال الشاب :

— لقد شققت طريقى وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين : إن أبو اليوم تغلى وتفور وتنثر الشظايا المحرقة ، فتملاً الجو رحماً ..

ثم دس الشاب يده فى جيبه وأبرز لها قارورة صغيرة ، فتناولتها بيدها وعقدت عليها كفها ، وأحست ببرودتها تسرى فى جسمها وتستقر فى قلبها . وسمعتة يقول لها :

— أرى أنك تحملين نفسك فوق ما تحمل .

فقالت له :

— إن الأحزان تتقل بالعدوى .

— ولكن رفقا بنفسك ، فما ينبغي لك أن تستسلمى كل الاستسلام إلى الحزن .. ليتك يا مولاتى تهاجرين إلى أمبوس ردحا من الزمن ريثما يعود الهدوء إلى هذه البقاع .

وكانت تسمع إليه فى اهتمام خادع ، وتنظر إليه بغرابة ، نظرتها إلى آخر حى من أهل هذه الدنيا تقع عليه عيناها لآخر مرة ، وكانت فكرة الموت قد استولت عليها استيلاء جعلها تشعر كأنها غريبة عن هذه الدنيا . واختنقت عواطفها اختناقاً لم تحس معه بأى رحمة نحو الشاب الراكع أمامها ، الهائم فى عالم الآمال بعينين مغمضتين عن المصير الذى ينتظره عن كذب .. وظن بنامون أنها تدير فكرته فى نفسها فلعب بقلبه الأمل واستفزه الطمع فقال بحماس :

— أمبوس يا مولاتى بلد السكينة والجمال ، لا ترى العين فيها إلا سماء صافية ، وطير لاهايا ، وبطا ساجحا ، وأخضر ناضرا .. وسيمحو جوها المشرق السعيد الآلام التى أثارها فى نفسك الرقيقة أبو الحزينة الغاضبة .

وسرعان ما سئمت حديثه ، واتجهت أفكارها إلى القارورة العجيبة ، وأحسست بشوق إلى النهاية . فبحثت عيناها الموضوع الذى تنخله الهودج منذ حين ، وصرخ قلبها أن ها هنا ينبغى أن تختم حياتها ، واعتزمت أن تتخلص من .
نامون ، فقالت له :

— إن ما تعرضه علىّ جميل يا بنامون ، فدعنى أفكر وحدى رويدا ..
فأضاء وجه الشاب بالمرح والأمل ، وسألها :
— هل يطول انتظارى ؟
فقالت :

— لن يطول انتظارك يا بنامون .
فلثم الشاب يدها ، وقام واقفا ، وغادر الحجرة .
ودخلت شيث على الأثر ، وكانت رادوييس تهم بترك مجلسها ، فلما رأت الجارية ابتدرتها قائلة لتتخلص منها :
— إلى بإبريق من الجعة .

فذهبت الجارية إلى القصر ، وكان بنامون قد اتجه إلى البركة واطمأن إلى مقعد على حافتها ، وكان فى تلك الساعة يشعر بالسعادة والغبطة ، ويدنى إليه الأمل غايته فى أن يذهب بمعبودته إلى أمبوس بعيدا عن الشقاء الخيم على أبو فتخلص له ، ويسكن إليها ، ودعا الآلهة أن تهبط إليها فى وحدتها وتلهمها الرأى السديد والحل السعيد ..

ولم يطق الجلوس طويلا ، فقام يسير الهوينى حول البركة ، ولما أتم دورته رأى شيث تحمل إبريقا ، وتجه بسرعة إلى الحجرة ، فتبعها بعينيه حتى غيبها الباب ، وأراد أن يعاود الجلوس مرة أخرى ، ولكنه لم يكد يفعل حتى سمع صرخة مدوية آتية من داخل الحجرة فانتفض واقفا ، وقد انخل قلبه فى صدره ، واندفع جريا

إلى مصدرها ، فرأى فى وسط الحجرة رادويس ملقاة على الأرض ، والجارية تجثو على ركبتيها إلى جانبها وتنكب عليها تناديا ، وتحس خديها وكفيها .. فهرع إليها بساقين مرتجفتين ، وقد اتسعت عيناه ولاح فيهما الهلع والفرع ، وجثا إلى جانب شيث وأمسك بكف رادويس بين كفيه ، فشر ببرودتها ، وكانت كالنائمة ، إلا أن وجهها شاحب تمازجه زرقة خفيفة ، وقد انفرجت شفتاها الباهتان وبعثرت خصلات شعرها الأسود على صدرها ومنكبيها ، وانسابت صفائر منه على البساط ، فأحس بجفاف حلقه واختناق أنفاسه ، وسأل الجارية بصوت مبحوح :

— ماذا بها يا شيث .. لماذا لا تحيى ؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل :

— لا أدرى يا سيدى ، فلقد وجدتها عند دخولى الحجرة كما تراها الآن ، فناديتها فلم تجب ، وأسرعت إليها أهزها فلم تنبه ، ولم تبد عليها اليقظة ، أو اه يا مولاتى .. مالك ما الذى اعتورك فحولك إلى ما أرى ؟.

ولم ينبس بنامون بكلمة ، وجعل يطيل النظر إلى المرأة الملقاة فى سكون رهيب ، وإن عينيه لتدوران فيما حولها إذ عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهنمية منزوعة السداة ، فشقق شهقة عنيفة ، والتقطها بأصابعه المرتعدة ، فلم يجد بها إلا آثارا لاصقة بباطنها ، وردد بصره بين القارورة ووجه المرأة فتبين له الحق ، وسرت فى جسمه النحيل رجفة مزقت جوارحه ، فأن أنينا موجعا لفت إليه الجارية ، وقال بصوت فرع :

— يا للهول .. يا للرعب !

فصوبت إليه الجارية عينها ، وسألته بلهفة وذعر :

— ماذا يهولك ويرعبك ؟.. تكلم فإنى أكاد أجن من الحيرة !!

ولكنه لم يأبه لها ، وقال يحادث رادوبيس ، وكأنها تسمعه وتبصره :

— لماذا انتحرت ... لماذا انتحرت يا مولاتي ؟

فصرخت شيث ودقت صدرها بيدها ، وقالت :

— ماذا تقول ، كيف علمت أنها انتحرت يا هذا ؟

فرمى القارورة بعنف ، فاصطدمت بالحائط وتحطمت ، ثم قال بذهول

وحيرة :

— لماذا أزهقت نفسك بهذا السم ..؟ ألم تعديني بأن تفكرى جديا فى

اصطحابى إلى أمبوس بعيدا عن أحزان الجنوب .. أكنت تخدعيني ريثما ترهقين

روحك ؟

فنظرت الجارية إلى حطام القارورة ، وقالت بدهشة :

— من أين لمولاتي بالسم ؟.

فهز منكبيه يأسا ، وقال :

— أتيت لها به بنفسى .

فتولاها الغيظ ، وصاحت به :

— كيف تأتى به يا شقى ؟!

— لم أكن أدري أنها تريد له لتزهق به نفسها ، لقد خدعتنى كما فعلت لى الآن .

فتحولت عنه يائسة ، وأفحمت فى البكاء ، وانكبت على قدمى مولاتها

تقبلهما وتغسلهما بدموعها ، وغشى الشاب ذهول ، فتفجرت عيناه ، وثبتتا

على وجه رادوبيس الساكن سكون الأبدية ، وكان يعجب فى ذهوله كيف

يلحق العدم بمثل هذا الجمال الذى لم تشرق الشمس على مثله من قبل ، وكيف

تسكن الحيوية الفائضة الملتبة ، وتكتسى بهذا الإهاب الشاحب الذابل الذى تهم

به عوامل الخراب ؟ تمنى لو أن يراها لحظة خاطفة وقد ردت إليها نسمة الحياة ،

فأبدت عن تثنيها الرقيق ، وأشرقت بوجهها ذى البهاء ابتسامة السعادة ،
وانبعثت من عينيها نظرة الحب والفتون ، ثم يموت فتكون آخر عهده بالدنيا ..
وأزعجه نحيب شيث أيما إزعاج ، فنهرها قائلاً :
— أمسكى عن هذا ؟

وأشار إلى قلبه ، ثم استدرك :
— هنا حزن جليل ، أجل من البكاء والنحيب .
وبقى في نفس الجارية أمل ضعيف يخفق ، فنظرت إلى الشاب خلل
دموعها ، وقالت بتوسل :
— ألا يوجد رجاء يا سيدى ؟. عسى أن يكون ما بها غيوبة شديدة ؟!
ولكنه قال بصوته الحزين :

— ما من رجاء ولا أمل ، ماتت رادوييس ، ومات الحب ، وتبددت
الأوهام .. كم عبثت في الأحلام والأوهام .. أما الآن فقد انتهى كل شيء ،
وأيقظنى من غفوتي الموت الرهيب ..

وانقصف آخر شعاع للشمس ، وانغمس وجهه القاني في عين حمئة ،
فزحفت الظلمة تغشى الكون في ثوب حداد . ولم تنس شيث في حزنها واجبها
نحو جثة مولاتها ، وأدركت أنها لن تستطيع أن توفى حقها من الإجلال والصون
في بيعة الحاطة بأعدائها والتربصين للانتقام منها وأفضت بمخاوفها إلى الشاب
الحزين الذى تحترق نفسه على كتب منها ، وطلبت إليه أن يحملها الجثة إلى بلدة
أمبوس ، وهنالك يدفعان بها إلى أيدي المخططين ، ويودعانها مقبرة أسرة بسار ،
ووافق بنامون على رأيها بقلبه ولسانه ، فنادت شيث بعض الجوارى ، وأتين
بهودج ، ووضعن الجثة عليه وسجّنها .. ورفع العبيد الهودج إلى السفينة
الخضراء التى انحدرت به نحو الشمال .

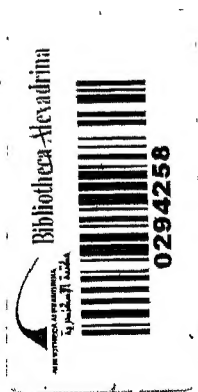
— ٢١٦ —

وجلس الشاب عند رأس الجثة على مقربة من شيث ، وقد شمل المقصورة
سكون عميق .. فى تلك الليلة الحزينة ، والسفينة تنساب مع المياة المصطخبة
صوب الشمال ، تاه بنامون فى وديان قصية من الأحلام ، ومرت حياته أمام
ناظره فى صور متعاقبة ، عرضت آماله وأحلامه وما كابد من ألم ورجاء ، وما
ظن يوما أنه نصيبه من السعادة والهناء والعيش النضير . ثم تنهد من أعماق قلبه
المكجوم ، وثبت عينيه على الجثة المسجاة التى ارتطمت عليها آماله وأحلامه ،
فتحطمت وتناثرت ، كأوهام بددتها اليقظة .

رقم الإيداع ٢٠٣٠

الترقيم الدولى ٣ — ٢١٣ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء



التمن ٠٠ ٤ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه